حسن محمّد علي عبّارة

الشخصيّة الكافرة

دراسة قرآنيّة

دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد.
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان.
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (٠١)
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م

تصميم الغلاف: عبّاس مكّي
الإخراج الفني: بسمة تقي

الشخصيّة الكافرة

دراسة قرآنيّة

المحتويات

تقديم:

السيّد محمد حسين فضل الله (لبنان) ١٩

د. محمود عكّام (سوريا) ٢٣

أ.د. محمد علي آذرشب (إيران) ٢٧

المقدّمة ٣١

مشكلة البحث ٣١

أسباب اختيار البحث ٣٢

مجال الدراسة ٣٣

أهداف البحث ٣٤

أهمية البحث ٣٥

الفصل الأول: أول الكافرين

المبحث الأول: معنى الكفر ٣٧

المطلب الأول: الكفر في اللغة ٣٧

المطلب الثاني: الكفر في الاصطلاح ٣٨

المبحث الثاني: أقسام الكفّار ٤٠

المطلب الأول: الكافرون المنكرون ٤٠
المطلب الثاني: الكافرون الجاحدون ٤٠
المطلب الثالث: الكافرون المعاندون ٤١
المطلب الرابع: الكافرون المنافقون ٤٢
المطلب الخامس: الكافرون الضالون ٤٢
المبحث الثالث: الكافر الأول ٤٣
تمهيد ٤٣
المطلب الأول: معنى إبليس في اللغة ٤٣
المطلب الثاني: معنى الشيطان في اللغة ٤٤
المبحث الرابع: الشخصية الإبليسية ٤٧
المطلب الأول: إبليس في القرآن ٤٧
المطلب الثاني: إبليس المتكبّر ٤٨
المطلب الثالث: إبليس، الحاسد، العنيد، الحاقد ٤٩
ـ إقرار إبليس ٥١
المطلب الرابع: إبليس المتعصّب ٥٢
المطلب الخامس: إبليس الجاهل ٥٣
ختام الفصل ٥٧

الفصل الثاني: أعمال إبليس وسلطانه

المبحث الأول: أعمال إبليس ٥٩
المطلب الأول: العداء للإنسان ٥٩

المطلب الثاني: الإغواء نحو الأمور السيئة ٦٠
المطلب الثالث: إخافة المؤمنين ٦٠
المطلب الرابع: خلق العداء، وإيجاد الضغينة بين الناس ٦١
المطلب الخامس: الصدّ عن ذكر الله، وعن الصلاة ٦٢
المطلب السادس: إيجاد العداوة ضد الأنبياء ٦٢
المطلب السابع: إغواء آدم وبنيه ٦٢
المطلب الثامن: الخلف بالوعد ٦٣
المطلب التاسع: تزيين الأعمال السيئة والحثّ عليها ٦٤
المطلب العاشر: إيجاد النسيان لذكر الله ٦٤
المطلب الحادي عشر: الحث على الإسراف والتبذير ٦٥
المطلب الثاني عشر: تنمية الآمال المستحيلة في نفوس الناس ٦٥
المطلب الثالث عشر: إشغال الناس عن أمر الله ٦٦
المطلب الرابع عشر: تعليم الناس السحر ٦٦
المطلب الخامس عشر: إطماع الناس للوقوع في الزلل ٦٧
المطلب السادس عشر: مجالسة الذين نسوا ذكر الله ٦٧
المطلب السابع عشر: التسلّط على أعوانه ٦٨
المطلب الثامن عشر: إرشاد الناس إلى عذاب جهنم ٦٨
المطلب التاسع عشر: عصيان الله ٦٨
المطلب العشرون: إثارة الفساد بين الناس ٦٨
المطلب الحادي والعشرون: مرافقة الكاذبين والخاطئين ٦٩
المطلب الثاني والعشرون: تخويف الناس من الفقر ٧٠
المطلب الثالث والعشرون: العواصف من شتى أطراف الإنسان ٧٠
المطلب الرابع والعشرون: استفزاز الناس بالصياح ٧٠
المطلب الخامس والعشرون: تعليم أعوانه الجدل الفاسد ٧١

المطلب السادس والعشرون: الاحتكاك بالإنسان والتأثير فيه ٧٢
المبحث الثاني: سلطة الشيطان ٧٣
المطلب الأول: خصيصة للشيطان ٧٣
المطلب الثاني: حدود السلطة الشيطانية ٧٤
المطلب الثالث: الإنسان المهزوم ٧٥
المطلب الرابع: الإنسان المنتصر ٧٧
المبحث الثالث: خطبة شيطانية ٨٠
المطلب الأول: الوعد الباطل ٨٠
المطلب الثاني: الوعد الحق ٨٠
المطلب الثالث: حرية الإنسان ٨٠
المطلب الرابع: إبليس ينفض يده ٨١
المطلب الخامس: تبرّؤ إبليس من الكفر ٨١
ختام الفصل ٨٣

الفصل الثالث: الشخصية

المبحث الأول: التعريف بالشخصية ٨٧
تمهيد ٨٧
المطلب الأول: معرفة الطبيعة البشرية ٨٧
المطلب الثاني: تعريف الشخصية ٨٨
المطلب الثالث: معرفة قاصرة ٩٠

المبحث الثاني: الطريق الوحيد للمعرفة ٩٣
تمهيد ٩٣
المطلب الأول: الكتاب العزيز ٩٤
المطلب الثاني: الإجابة الكاملة ٩٥
المطلب الثالث: فضل القرآن على علم النفس الحديث ٩٦
المطلب الرابع: الشخصية الإنسانية في نظر القرآن ٩٧
المطلب الخامس: الإنسان في نظر الإسلام ٩٨
أ ـ الروح ٩٨
ب ـ النفس ٩٨
جـ ـ العقل ٩٩
ختام المبحث ١٠٠
المبحث الثالث: الشخصية الكافرة ١٠٢
تمهيد ١٠٢
المطلب الأول: أسباب الخيبة ١٠٣
المطلب الثاني: سمات الصنف الكافر الرئيسية ١٠٤
ختام الفصل ١٠٥

الفصل الرابع: الجهل

المبحث الأول: النماذج البارزة للأحكام الجاهلة ١٠٧
تعريف ١٠٧
المطلب الأول: اتّباع الظن ١٠٨

المطلب الثاني: النفي والإثبات دون دليل ١١٠
المطلب الثالث: السطحية ١١٢
المطلب الرابع: سطحية الكافر ١١٣
المبحث الثاني: الجدال ١١٦
تعريف ١١٦
المطلب الأول: جدال المكابر ١١٦
المطلب الثاني: جدال الكافر الجاهل في القرآن ١١٨
المطلب الثالث: المراء ١٢١
المطلب الرابع: الغفلة ١٢٢
ختام الفصل ١٢٥

الفصل الخامس: الحسد والجبن

المبحث الأول: الحسد ١٢٧
تعريف ١٢٧
المطلب الأول: الحسود ١٢٨
المطلب الثاني: هدف الحسود ١٢٩
المطلب الثالث: وسائل الحسود ١٢٩
المطلب الرابع: كلمة ١٣٠
المطلب الخامس: الحسد: الذنب الأول ١٣٠
المطلب السادس: حسد أهل الكتاب ١٣١
المطلب السابع: حسد القريب ١٣٤
المبحث الثاني: الجبن والذل والتبعية ١٣٦

تعريف ١٣٦
المطلب الأول: منشأ الجبن ١٣٦
أ ـ الأوهام ١٣٦
ب ـ الحرص على الحياة ١٣٧
جـ ـ الخوف من الاستلاب ١٣٨
المطلب الثاني: ضعف الإرادة ١٣٩
المطلب الثالث: ليس كل من يخاف جباناً ١٤٢
ختام الفصل ١٤٤

الفصل السادس: الكبر

المبحث الأول: الكبر، والتكبّر، والاستكبار ١٤٧
المطلب الأول: الكبر ١٤٧
المطلب الثاني: الكبرياء ١٤٨
المطلب الثالث: الاستكبار ١٤٨
المطلب الرابع: المتكبّر ١٤٩
المطلب الخامس: منشأ الكبر ١٥٠
المبحث الثاني: الكافر: متكبّر ومستكبر ١٥٢
تمهيد ١٥٢
المطلب الأول: الافتخار بالمنازل والنوادي ١٥٢
المطلب الثاني: انتقاص أتباع الأنبياء ١٥٣
المطلب الثالث: انتقاص الرسل ١٥٤

المطلب الرابع: العتوّ والنفور ١٥٥
المطلب الخامس: طلب غريب، ودعاء عجيب ١٥٥
المطلب السادس: جحود بعد استيقان ١٥٨
ختام الفصل ١٦٠

الفصل السابع: العناد

المبحث الأول: الحزم والعند ١٦٣
تعريف ١٦٣
المطلب الأول: الفرق بين الحزم والعند ١٦٣
المطلب الثاني: أسرى العناد ١٦٥
المبحث الثاني: صور قرآنية ١٦٦
المطلب الأول: قوم إبراهيم ١٦٦
أ ـ المحاكمة العلنية ١٦٧
ب ـ حكم المعاندين ١٦٩
المطلب الثاني: قوم فرعون ١٧٠
المطلب الثالث: كفار قريش ١٧٢
المطلب الرابع: السؤال الجزاف ١٧٢
المبحث الثالث: صور صفيقة منكرة ١٧٤
المطلب الأول: لو عرجوا في السماء، فلن يؤمنوا ١٧٤
المطلب الثاني: لو نزل كتاب في قرطاس، فلن يؤمنوا ١٧٥
المطلب الثالث: الدعاء الغريب والعناد الجامح ١٧٨

المطلب الرابع: الاستعادة التلقائية للسلوك ١٧٩
ختام الفصل ١٨١

الفصل الثامن: اتّباع الهوى والشهوات

المبحث الأول: أسرى الهوى والشهوة ١٨٣
تمهيد ١٨٣
تعريف ١٨٤
المطلب الأول: أعدى الأعداء ١٨٤
المطلب الثاني: حديث القرآن ١٨٦
أ ـ الكلب اللاهث ١٨٧
ب ـ عبيد الهوى ١٩٠
جـ ـ النفس الأمّارة بالسوء ١٩٣
المبحث الثاني: الإنسان المنقاد ١٩٥
المطلب الأول: سيطرة الدوافع ١٩٥
المطلب الثاني: الانتصار الأعظم ١٩٦
المبحث الثالث: عبيد الدنيا ٢٠٠
المطلب الأول: الكمال الباطل ٢٠٠
المطلب الثاني: الترف والمترفون ٢٠١
المطلب الثالث: محبوبة الكافر ٢٠٢
المطلب الرابع: السعادة والشقاء ٢٠٣
ختام الفصل ٢٠٥

الفصل التاسع: الطغيان

المبحث الأول: الفرعون ٢٠٧
تعريف ٢٠٧
المطلب الأول: أسوأ بني الإنسان ٢٠٨
المطلب الثاني: الطاغية... الإله ٢١٠
المبحث الثاني: الأساليب الفرعونية ٢١٢
المطلب الأول: تقسيم المجتمع ٢١٢
الطائفة الأولى ـ أعوان الفرعون ٢١٢
الطائفة الثانية ـ المتملّقون ٢١٤
الطائفة الثالثة ـ الرعاع ٢١٤
المطلب الثاني: الاستخفاف ٢١٥
المطلب الثالث: المكايد الشيطانية ٢١٧
المطلب الرابع: التطميع والتهديد ٢١٩
المطلب الخامس: غسل الدماغ ٢١٩
ختام الفصل ٢٢١

الفصل العاشر: سلطان الأوضاع الموروثة والقائمة

تمهيد ٢٢٣
المبحث الأول: سلطة الأوضاع الموروثة ٢٢٥
المطلب الأول: سلطان التقاليد ٢٢٥
المطلب الثاني: التقاليد لا تكبّل حرية الإنسان ٢٢٨

المطلب الثالث: سلطان التقليد ٢٢٩
المطلب الرابع: سلوك التقليد ٢٣١
المطلب الخامس: العامل المجهول ٢٣٤
المبحث الثاني: سلطان الأوضاع القائمة ٢٣٦
المطلب الأول: سلطان الألفة ٢٣٦
المطلب الثاني: سلطان الصخب الجماهيري ٢٣٧
ختام الفصل ٢٤٠

الفصل الحادي عشر: الهرب... حيث لا مهرب

تمهيد ٢٤٣
المبحث الأول: شخصيّتا الإنسان ٢٤٥
المطلب الأول: الشخصية العرضية ٢٤٥
المطلب الثاني: الشخصية الذاتية ٢٤٥
المطلب الثالث: الواقع والتجربة ٢٤٩
المبحث الثاني: الإحساسات الأربعة ٢٥٠
المطلب الأول: الحس الفني أو الجماليات ٢٥٠
المطلب الثاني: حسّ اكتشاف العلوم، أو البحث ٢٥١
المطلب الثالث: حسّ الخير أو الأخلاق ٢٥١
المطلب الرابع: حس معرفة الله، أو الحس الديني ٢٥٢
المبحث الثالث: الحجة عليهم لا لهم ٢٥٣
المطلب الأول: الحجة الواهية ٢٥٤

المطلب الثاني: الفطرة الإنسانية ٢٥٧
ختام الفصل ٢٥٩
الخاتمة ٢٦١
المصادر والمراجع ٢٦٧

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد محمد حسين فضل الله

(لبنان)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين وأصحابه المنتجبين والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

للإيمان والكفر امتداد في المسألة الثقافية يتصل بالجانب الموضوعي للفكر من حيث انفتاحها على القضايا المتصلة بالله، في وجوده وتوحيده وصفاته وهيمنته على الوجود والموجود؛ وبالنبوّة في معناها الغيبي وفي حركتها البشرية وفي شخصية النبي ودوره ورسالته وحركيته في الدعوة وفي الحياة؛ وباليوم الآخر في عمق الغيب الذي يمثّله بكل مفرداته من يوم القيامة والحساب والجنة والنار، بالإضافة إلى الخطوط التفصيلية في العقيدة والشريعة والمنهج.

فهناك جدل فلسفي كبير في إثبات هذه القضايا، أو نفيها، أو في الشك المحيط بها؛ وقد امتد امتداد حركة الصراع الثقافي في التاريخ، ولا يزال هذا الجدل في حركة الثقافة المعاصرة مما قد يختلف فيه المفكّرون، في الجانب الموضوعي من المسألة.

ولكن هناك نقطة مهمة في هذا المجال وهي تأثير الإيمان والكفر في الشخصية الإنسانية من حيث الخلفيات الكامنة وراء هذا الاختيار أو ذاك، ومن حيث المؤثّرات الأخلاقية والاجتماعية في داخل الواقع أو ذاك، ومن حيث

النتائج السلبية هنا والإيجابية هناك، أو المعطيات الخيّرة أو الشريرة في هذا الجانب أو ذاك.

وهكذا عاش الإنسان في الحياة بين شخصية مؤمنة تتميّز بأخلاقيتها وروحيتها في الانفتاح على الله، في مواقع عظمته وامتداد نعمته وفي معنى الخير والعدل والرحمة والعطاء والصدق والقدرة والعزّة وغير ذلك من صفاته، مما يدفع بالإنسان إلى أن يتمثّلها في وجدانه ويعيشها في حياته ليكون إنسان الخير والمحبة والانفتاح والعدل والرحمة والصدق والأمانة وحب الخير للناس، وإنصاف الناس من نفسه ورفض الظلم للآخرين، والإحسان إليهم وما إلى ذلك، فيكون وجوده بركةً ونعمةً للإنسان وللحياة، لأنه وجود الخصب الذي ينمّي في الحياة إيجابياتها ويطرد سلبياتها.

وبين شخصية كافرة تختزن في داخلها الشرّ الذي يوسوس به الشيطان ليمتد منه الظلم والكذب والخيانة والحسد والإضرار بالناس والقسوة والإساءة والأذى للآخرين، لأن هذه الشخصية لا تنفتح على الله، بل تستسلم للشيطان الذي يمثّل رمز الشيطان بكل ما تعنيه الشيطنة من المعاني الشّريرة القذرة التي تهوي بالإنسان إلى المنحدر الذي يتّجه به نحو الهاوية والهلاك.

وهكذا عاشت الحياة في مداها التاريخي وفي حركتها المستقبلية هذا الصراع الميداني بين أخلاقيات الشخصية الإيمانية التي ترتفع بالحياة وبالإنسان إلى الدرجة العليا في العقل والروح والحركة والحياة، وأخلاقيات الشخصية الكافرة التي تهوي بالإنسان إلى حيث الوصول إلى زوال الروحية والإنسانية والعقلية، وطغيان الحركية الشريرة؛ ولا تزال مسألة الاستكبار والاستضعاف التي تختصر كل النشاط الإنساني في حركة الصراع في العالم تمثّل بنتائج الجدل بين الكفر والإيمان، في ما يطبعان به الإنسان بطابعهما الأخلاقي والحركي.

وقد عالج القرآن الكريم هذه المسألة معالجة دقيقة عميقة واسعة متحرّكة في كل خفايا الإنسان ودوافعه وأخلاقياته ونشاطاته وحربه وسلمه، وعلاقاته بالإنسان والحياة، بما يمثّل الشخصية المؤمنة والكافرة في أبرز ملامحها الذاتية والعملية، مما يجعلنا نواجه المسألة مواجهة واقعية نتطلّع فيها إلى الإيمان

والكفر، وهما يتحرّكان معنا في الصورة الإنسانية السلبية والإيجابية بعيداً عن عالم التجريد الفكري، كما هو الأسلوب القرآني في تجسيد الصورة وتأصيل الفكرة وإرجاع الحركة الإنسانية إلى جذورها في الفكر وفي الحياة، وفي الطبيعة الإنسانية بغرائزها وتطلعاتها.

وهذا الكتاب دراسة واسعة منفتحة على آيات القرآن في متابعتها للشخصية الكافرة من خلال معنى الكفر في الفكر، وفي التجربة الإنسانية؛ وفي الحديث عن الكافر الأول الذي انطلق كفره من العقد الإبليسية في الكبرياء الذاتية التي تنطلق من حالة جهل لا تمثّل الواقع بجميع جوانبه، بل تحدق بالعقدة من موقع الذات ممّا يجعلها تتحرّك بطريقة عدوانية ضد الإنسان في كل مواقعه على مستوى الأجيال لتنحرف به عن الصراط المستقيم، فتمنعه من القرب من الله الذي يؤدّي به إلى الجنة؛ وتنطلق الدراسة لتستوحي القرآن في حدود الشخصية الإبليسية مقارنةً بالشخصية الإنسانية الإيمانية، فتؤكّد أن وعي الإنسان لربه ولإيمانه، ولحركته في اتجاه هذا الوعي، سوف ينتهي به إلى الانتصار على الشيطان.

وتتابع الدراسة الحديث عن ملامح الشخصية الكافرة التي يتمثّلها الناس في الشخص الكافر ليلتقوا الجهل المكابر والحسد والجبن والكبر والعناد واتّباع الهوى والشهوات والطغيان، والهروب من الحقيقة، والهزيمة من الواقع...

وهكذا يمثّل هذا الكتاب دراسة تفصيلية عن هذه العناوين السلبية، باعتبارها الملامح الأصلية التي تدفع بالكفر وتتحرّك من خلاله، في تجسيد الشرّ الذي يرهق إنسانية الإنسان في شخصية الشرير، وفي النتائج الشريرة للذي يصيبه الشر، وتلك هي قيمة هذه الدراسة في تصويرها للشخصية الكافرة بما يوحي للناس أن يتعرفوها ليتعاملوا بها من موقع المنفتح على حقائق الحياة في الإنسان.

لقد نجح الفاضل الباحث حسن محمد علي عبارة، حفظه الله، في تأصيل هذه الدراسة في معالجة للآيات القرآنية واستنتاجاته منها، وتوسيع الفكرة في انفتاح على كل مصادر المعرفة في الثقافة الإسلامية بعيداً عن الحساسيات

المذهبية وغيرها، وتلك هي مهمة الباحث الموضوعي، وهذا ما نجح فيه المؤلِّف الفاضل.

إننا نتمنّى للأستاذ الباحث المزيد من الإنتاج الثقافي الإسلامي القرآني، ونرجو للقراء الاستفادة من كتابه القيّم، لأن فيه غنىً للمعرفة الإسلامية في غير جانب.

والله الموفّق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين فضل الله

٢٠/ شوال ١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الكفرُ لا شخصيَّةَ له

د. محمود عكّام (سوريا)

الحمدُ للّهِ وليِّنا، والصلاةُ والسلام على محمدٍ نبيِّنا، وعلى آله أُولي مودّتنا، ورضي الله عن الأصحاب الكرام، وبعد:

فالحديثُ عن الكفر حديثٌ عن شذوذ ونشاز في الشخصية الإنسانية، وما هذا الذي قلتُ بحُكمٍ عاجل اتخذتُه، لكنه عصارةُ زمن يحوي بحثاً ويستفيض سعياً لإصابة الحق.

وبداية التبيان تنطلق من المعنى اللغوي لكلمة «الكفر»، إذ تشير إلى التغطية، ومجانبةِ الوضوح، وهذا ما يتنافى مع دلالات كلمة «الشخصية» التي توحي بالظهور، والجلاء، والبُدوِّ، حتى إذا ما وُصفَتْ ـ أعني الشخصية ـ بالإنسانية تميَّز الظهور هذا بالسيادة والقيادة، استناداً إلى مخزون متفرِّد، أهمُّ تجلياته العقل؛ وإلى معالمَ شكليةٍ خاصة مرعيَّةٍ بحسن التقويم، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان/ ٢٠]، و﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين] وهاتان الآيتان دليلنا على ما قدّمنا.

وليس أمامنا إلا «البديع» في عالم البلاغة، ليسعفَنا في مسامحة الباحث الفاضل حين عنونَ دراسته القيِّمةَ بـ «الشخصية الكافرة»، فيكون ذلك على سبيل «المشاكلة»، والمشاكلة فحسب، وينتفي أيُّ احتمال تصوُّري لتوازٍ بين الكفر والإيمان.

الكفر طارئ، والإيمان في الشخصية الإنسانية ثابتةٌ أساس، والطروء هذا لا يدخل في إطار الطبيعة، أو المحتمَلات العادية بل هو تكلّف اعتدائي، أو اعتداء متكلَّف من الإنسان ذاته على ذاته ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان]. وفي الشدائد تظهر الحقائق ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل/ ١٤]. مفاصلةٌ شاقةٌ ومضنية بين الظاهر والباطن، وإشعالُ فتيل العداوة بينهما، لصالح الزَّيف، وعلى حساب خطّ الفطرة والصبغة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار]. لمَ هذا التكلّف السلبي في رفض قرارات الداخل الفطري، والباطن الصِّبغوي؟!

ألم يأنِ لك أن تفيق من سُباتِ ظلمِ الذات على حركة العدالة الفاعلة، والمساهمة في توحيدك ظاهراً وباطناً: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾. [الأنعام].

أسرع في اتخاذ القرار، وإلا انتُزعتْ عنك حصانة الشخصية الإنسانية بسبب منك، وأضحيت عدداً منكراً بين المخلوقات الأخرى، لأنك لم تكن فيها على سبيل الإيجاد الابتدائي، بل صرتَ منها على سبيل الردِّ العقابي: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة].

نعم أسرعْ وسارعْ وسابقْ، فالخطاب مقنِعٌ وحاسم، والمخاطِب جادٌّ في التصنيف وإعلان النتائج: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

دعكَ أيها الإنسان من التشويه وتحمَّسْ للصواب، فكفرُك باللهِ تشويهٌ، وأنّى لِنِسْبيٍّ أن ينكرَ مطلَقاً، وأمّا إيمانك باللهِ فصوابٌ وحقٌّ مثل ما أنّك تنطق.

بالإيمان تعلم، وتعلم كيف تعلم، وبالكفر تجهل جهلاً وجهالة مركّبين، ويصحبُ الجهلَ كبرٌ، ويغلّفه حسدٌ، ويسوده جبنٌ، ويسوّره عنادٌ، وينتج عنه هوىً لا يَعرفُ أفُقَ الأمانة اتجاهُه.

عدتَ لأهوائكَ عبداً وكم

تَسْتَعْبِدُ الأهواءُ أربابَها

هذا شطر من حديث المقدمة هذه، وأما الشطر الآخر فكلامٌ ينطوي على تقدير وثناء على جهود مبذولةٍ جادة في هذه الدراسة، فقد أحسن باحثنا الفاضل الدكتور حسن وأجاد، والإحسان والإجادة تجلّيا في اختيار موضوع أهم، يمسّ الإنسان في عمقه، إذ الإنسان ـ في النهاية ـ إما مؤمنٌ ثَبتت في إهابه إنسانيتُه، وإما كافر فرّغ إهابَه من إنسانيته، فراح يستبدل به الذي هو أدنى: (كلُّ الناس يغدو، فبائعٌ نفسَه فمعتقُها أو موبقها) كما ورد عنه ﷺ.

ومنهج البحث لم يفارق ساحَ الإحسانِ، والإجادةِ أيضاً، فقد انتقل الباحث الأكرم من التشخيص في عالم الكافرين إلى التقعيد، وقديماً قالوا: «العلم ما كان بقواعد»، وقالوا أيضاً: «لا علمَ إلا بالكلّيات».

فرسمَ الملامح، وحدّد المعالمَ، وأصّل الصفاتِ، وبيّن السمات.

وقد تمّ كل ذلك في إطار لغوي رصين، وقالب بلاغي إبلاغي.

وهذا ما يجعلني أخيراً أتوجّه إلى أخي الباحث الدكتور حسن فأشكره على مساهمة فاعلة، في إغناء مسيرة الفكر، وإضعاف، بل دحر، طارئة الكفر، فجزاه الله خيراً، وأثابه أجراً.

والله وليّنا جميعاً.

د. محمود عكّام

بسم الله الرحمن الرحيم

د. محمد علي أذرشب (إيران)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

فطر الله سبحانه الناس على الإيمان به، هذه حقيقة قائمة في نفس كل إنسان... إذ تراه مفطوراً على الإيمان بقانون العلّيّة، وعلى البحث عن علل كل ظاهرة في الكون والحياة.. وتراه منذ فجر التاريخ وحتى عصرنا الراهن يتجه نحو مثل أعلى يعبده، حقيقيّاً كان هذا المثل الأعلى أم وهمياً سرابياً.

وإلى هذه الحقيقة تشير الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف].

من هنا فإن «الكفر» حالة عارضة على الإنسان، يجب أن نبحث عن عللها النفسية والاجتماعية، قبل أن نبحث عن عللها الفكرية.

ولو رجعنا إلى القرآن لتلمّسنا بعض الإضاءات التي تشير إلى سبب الكفر، منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم].

فالغارقون في السيّئات يحاولون أن يتخلّصوا من نداء الفطرة وأن يريحوا

أنفسهم من عناء السؤال الذي يلحّ عليهم في وجدانهم: ألست بربكم؟ فيتّجهون إلى التكذيب والاستهزاء، وهي نتيجة حتمية للمنغمسين في شهواتهم وموبقاتهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور/ ٣٩].

فالكافر يبحث أيضاً عن مثله الأعلى المفطور عليه، ولكنه بدل أن يتجه نحو المثل الأعلى الحق، يلهث صوب مثل أعلى زائف يتعملق في طريقه فيعبده من دون الله.

فالكافر، إذن، «يعبد» «إلهاً» ضمن حركة هي «دين» لكن المؤمنين يخاطبون الكافرين بالقول ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

حتى الذين يعيشون غارقين في أهوائهم ومستنقع شهواتهم لهم إله يعبدونه من دون الله: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان/ ٤٣].

من دلائل الكفر، إذن، تعملق الآلهة المزيّفة على طريق الإنسان نحو الله. من هنا كان من واجب الجماعة المسلمة إزالة هذه العوائق عن طريق البشرية كي تجد سبيلها إلى الإله الواحد الأحد الحق.

ومن الآيات التي تشير إلى سبب الكفر قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس].

فالنسيان ظاهرة بارزة في ساحة البشرية، يؤدّي بها إلى أن تغفل عن مسائلها الكبرى، وتغفل عن تجاربها الحياتية، وتغفل عن مصالحها الحقيقية.. بل تغفل عن ربّها.. من هنا فإن المهمة الأولى للأنبياء هي «التذكير».. ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١﴾ [الغاشية].

ثم إن النصوص الإسلامية الأخرى تحمل أيضاً دلالات رائعة على سبب الكفر لا يمكن في هذه السطور الموجزة عرضها، وأكتفي بالعامل الاقتصادي

الذي يشير إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رض): «أينما ذهب الفقر قال له الكفر خذني معك»، وقوله: «كاد الفقر أن يكون كفراً».

فالفقر يحدث خللاً في استقامة الإنسان وكرامته وفطرته، طبعاً الفقر المفروض على الإنسان، لا الفقر الذي يختاره الإنسان اختياراً كي يسمو على الانشداد بالمال والمتاع.. الفقر المفروض يخرج الإنسان عادة عن إنسانيته، وينحرف به عن التعادل في الموقف واتّخاذ القرار.. ويؤدّي في كثير من الأحيان إلى الكفر..

بعد هذه الإشارات إلى العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية للكفر، لا بدَّ من التأكيد على مسألة هامة هي: أن الإنسان المسلم يحمل مسؤولية هداية الكافرين إلى الصراط المستقيم. من هنا لا بدَّ من استخدام كل العلوم الاجتماعية والنفسية للتعمّق في فهم ظاهرة «الكفر» ودراسة أسبابها، وسبل معالجتها، باعتبارها ظاهرة «مَرَضية» في المجتمع البشري.

لا يجوز أن يكون موقفنا من الكفّار هو «الازدراء» و«المقت» و«البراءة».. نعم هذا هو الموقف المطلوب من الكفّار الذين يجابهون المسلمين بقوة السلاح.. أمام هؤلاء الإرهابيين لا بدّ من تعبئة طاقات الأمّة عسكرياً: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ [الأنفال/ ٦٠]، ونفسياً: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة/ ١]، واستراتيجياً: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء/ ١٠٢]. أما بالنسبة لغيرهم من الكفّار، فالخطاب القرآني خطاب لين ورحمة ورأفة واستدلال:

- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٨].
- ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار].
- ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم].

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

- ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت/٤٦].

لقد دفعني لكتابة هذه السطور البحث القيّم، الذي أعده الأستاذ حسن محمد علي عبارة بعنوان «الشخصية الكافرة ـ دراسة قرآنية»، وكان موفّقاً حين نحا في اتجاه «بيان أبعاد هذه الشخصية المنحرفة وصفاتها، وفكّ رموزها، وإلقاء الأضواء الكاشفة على دهاليزها النفسية».

وأرجو أن تكون هذه الدراسة بداية لدراسات نفسية واجتماعية، معمّقة لظاهرة الكفر في العالم، يهتدي بها الدعاة إلى الله في ساحة جهادهم.

أ.د. محمد علي آذرشب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

مشكلة البحث:

إنها مشكلة ذلك الإنسان الذي فرَّ من ربه، وكفر به، فوضع نفسه في مأزق، وأيّ مأزق.

لقد وضعها تحت نير عبوديات؛ لا ترحم، ولا تنفع، وكلما تقدّم الزمن أصبحت أفظع.

فبعد أن انحدر إلى اللادينية ـ وذلك شأن لم تمر به البشرية من قبل ـ وبعد أن تفشّى بين ظهرانيه، مبدأ التطور الداروينى، والسلوك الجنسي الفرويدي، إذا به ـ ويا للحسرة ـ ينساق أخيراً إلى مؤتمر: التنمية والسكان بالقاهرة، وإلى مؤتمر: المرأة في بكين، وإلى أمثالها من مؤتمرات، وأعياد، ومن مهرجانات، أقوام لوط، وعاد، وثمود... ليكمل بذلك أبالسة صهيون، وجنودهم من قادة الكفر، ورعاة الفساد، إشعال الحريق المدمّر للأخلاق.

وليعشّش الفسق في كل الأنحاء، وليمسخ الإنسان من هيئته البشرية، إلى هيئة أدنى من مرتبة الحيوان.

فيباح الإجهاض لوقف الزيادة السكانية، وتطوّر برامج التثقيف الجنسي، وتُعطى الحرية للشواذّ جنسياً، في ممارسة حياتهم بشكل طبيعي.

ولتشير فقرات المشاريع إلى أشكال أخرى غير الزواج، وإلى تمتّع غير المتزوجين «بحياة جنسية مرضية».

وهكذا تترقّب الصهيونية تحقيق حلم البروتوكولات، وتفرك الأيدي فرحاً ونشوة، وهي ترى الأميين ـ وكما ورد في التعبير القرآني ـ ينغمس كلٌّ منهم بالشهوات، وتقوده الأهواء، ويتبع الباطل والخرافات، وبذا يقتل الطاقات الموهوبة له، والتي تؤهّله للارتفاع والتكامل، وينساق إلى الحضيض، ويلتصق بالأهواء الأرضية الوضيعة، ويتأصّل حب الدنيا في نفسه.

وينتهي الأمر بإنسان عصر الفضاء، والحاسوب (الكمبيوتر) والغوص في أعماق البحار، إلى أن يغدو جسماً متخماً بكل أنواع الملذّات، وروحاً مظلمة قد حُرمت كل غذاء.

إن إنسان هذا العصر قد أنار حوله كل شيء، ولكنّ المشكلة أنه أمسى عاجزاً عن السير، على الأرض، بغير التواء.

فهل من مشكلة أدهى وأمرّ؟!

أسباب اختيار البحث:

لقد تم اختيار البحث، للتعرّف إلى خصائص هذا الإنسان، الذي نفخ الله فيه من روحه، وفطره على الإيمان والتوحيد.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

لقد شهد هذا الإنسان لله بالربوبية، مذ أخرجه الله من صلب أبيه، وإنه ليعود إلى هذه الشهادة، إذا مسَّه الضر ونزلت به الكوارث.

لقد كان فرعون يدّعي الألوهية، ويقول لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات/ ٧٤]. ويسوم بني إسرائيل سوء العذاب، ولكنه، وعندما أدركه الغرق، وعالج سكرات الموت، قال:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس/ ٩٠].

وكذلك، فإن المتعنّتين الذين يناقضون واقع الحق، الذي تدلّهم عليه فطرتهم، فيشركون بالله سبحانه، ويكفرون به، ويعبدون أصناماً من أصناف وألوان شتّى، فإنهم حين تشتد بهم الأيام، وتحدق بهم المخاطر، ويمسّهم الضرُّ في البحر أو البر، يلجأون إلى الله سبحانه، بوحي من هذه الفطرة المتأصّلة في الإنسان، ويعترفون بوجوده بدافع من داخلهم، ومن أعماق روحهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس].

ولكن، وبالرغم من ذلك، فإن هذا الإنسان، يأبى إلا أن يسحب نفسه من إطار هذه الحقيقة الصافية، وأن يعمي بصره عن رؤية الآيات الساطعة، ويصمّ سمعه عن نداء الحق.

فيغدو بذلك كالكلب اللاهث، لا ينفع معه إرشاد.

فمن هو إذاً هذا الإنسان؟ وما خصائصه؟

مجال الدراسة:

إن هذا البحث، محاولة لدراسة الإنسان، مذ تمرّد على الله واندفع بعكس فطرته، وأصبح مطيّة للشيطان يقوده حيث يشاء.

وإن هذا الإنسان، الكافر، هو هو، سواءٌ أكان في كهفه أم فلاته، أم كان في خيمته، أم ناطحات سحابه.

وإن القوم الكافرين، هم هم، سواءٌ أكانوا في العصور الحجرية، أم الرعوية، أم عصر الأنترنت.

وإن الفراعنة الطغاة، أيضاً، هم هم، من نمرود إبراهيم، إلى فرعون موسى، إلى القياصرة، والأكاسرة، . . . وإلى هتلرات القرن الحادي والعشرين.

أهداف البحث:

إن من أهداف هذا البحث، بيان أبعاد هذه الشخصية المنحرفة وصفاتها، وفكّ رموزها، وإلقاء الأضواء الكاشفة على دهاليزها النفسية.

وإذ نفعل ذلك ـ بعون الله ـ فسيكون الاعتماد على كتاب الله أولاً ـ فالبحث دراسة قرآنية ـ ثم على السنّة المطهّرة، صنو القرآن.

وكتاب الله مائدة ربانية مستديمة، حبا الله بها عباده، تبياناً لكل شيء، وهداية للتي هي أقوم.

والهدف من ذلك الإعلان للناس، في كل عصر وفي كل بقعة وفي كل جيل، أن لا مسوغ لهم أن ينحرفوا عن الخط الإلهي، متذرّعين بحجج، وتسويغات باطلة، متأثّرين بسلوك الآباء، والتقليد، والجبرية، وغير ذلك.

فقد أبطل القرآن ذلك كله، وبيّن أن الإيمان بالله سبحانه، مركوز في الفطرة، ومغروس في الشعور، ومخلوط بالدم والعصب.

وبيّن أن هذه الشخصية الكافرة، إن هي إلا شخصية منحرفة، مكابرة، جاهلة، معاندة، منتكسة. . .

والسنّة المطهّرة، أيضاً، سبقت كل الدراسات الإنسانية، والنفسية في تبيان أن عواصف الشهوات والنزوات، التي تتلاعب ببني آدم، وأن الأمواج العاتية

من الأنانية وحب التسلط، هي من وراء كفر الإنسان، وانحرافه. وليس النقص في الحجج، والبراهين، والأدلّة.

إن من أهداف هذا البحث القول: إنّ دلائل وجود الله، أكثر من أن تحصى، فهي مبثوثة في الأرض، وفي السماء، وهي موجودة، في كل ذرّة من ذرّات هذا الكون الفسيح. وقد تجلّت في هذا العصر، كما لم تتجلّ في أيِّ وقت. هذا العصر، الذي قطع به العلم شوطاً واسعاً، في كل مضمار. وكلما تقدَّم العلم، تجلّت حقيقة أن لهذا الكون، صانعاً واحداً، وربّاً واحداً، وخالقاً واحداً، عظيماً ماجداً.

ولكن ومع ذلك، فإن دائرة الكفر تتّسع، فلم يُغنِ العلم شيئاً أولئك الذين أبَوْا الاصطلاح مع فطرتهم؛ فاستنزلوا بذلك نقمة الله سبحانه، وجزاءه الرهيب، وعقوباته المتتالية، التي تشكّل جرس إنذار، يدقّ في ساحات الأمم، علّها تتّعظ بما يحلُّ من فناء ودمار.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد/ ٣١]. ولا بدّ من التنويه بأن سيكون للدراسات الإنسانية، النفسية، والاجتماعية، والفلسفية، الغابرة والمعاصرة، دور في إثبات ما يطلق من أحكام، وما يُضفى من صفات، وما يُستنبط من سنن، وما يُنتظر من مصائر لهذه الشخصية الكافرة، على مستوى الفرد، والمجتمع، والأمة، والحضارة الإنسانية بعامّة.

أهمية البحث:

إن من الأهمية أن يعلم بأن كل مظاهر العظمة، التي يصطنعها كفّار العصر، من خلال مواقعهم السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية أو العلمية، وما يضفونه على ذواتهم من ألقاب، وما يطلقونه على علومهم وفلسفاتهم من عناوين برّاقة، لا تُغيّر من خصائص الشخصية الكافرة شيئاً.

إن هؤلاء لا يختلفون، بخصائصهم، عن كل الذين نزدريهم، ونمقتهم، ونبرأ

منهم، من كفّار سابقين، وفَجَرة مترفين، ومعتدين آثمين، وعُصاة سافلين. سواءٌ أكانوا على مستوى الأفراد أم الأقوام، أم الحكّام.

فليس للإنسان ـ وللمسلم خصوصاً ـ أن ينبهر ويظن أنهم على شيء.

وكذلك، فإن من الأهمية أن يعلم بأن ما تحقّق للإنسان، من قفزات علمية هائلة، لم تمنحه شيئاً من طمأنينة، أو هناءة أو أمان، لأن مبعث هذه الأمور ما يقيمه الإنسان من توازن بين الروح والمادة، ومن تناغم بين روح ذكية طاهرة، وجسد مطيع خاضع.

فنحن قبضة من الطين، ونفخة من روح الله.

قبضة الطين تجعلنا نأكل ونشتهي، ونتلذّذ.

وروح الله يجعلنا نسمو، ونصفو، ونخلق، ونبدع، ونؤنس ما حولنا.

فعلينا ألّا نجعل الروح يغرق في الطين، وكذلك، لا نجعل الطين يذوب في حرارة الروح.

وإني لأرجو الله سبحانه، أن يتدارك بلطفه ما في هذا الجهد من قصور، وأن يتجاوز بعفوه عمّا لحقنا من تقصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين وأصحابه الميامين.

الفصل الأول

أول الكافرين

المبحث الأول: معنى الكفر

المطلب الأول: الكفر في اللغة[1]: الكفر بالضم ضد الإيمان، ويفتح كالكفور والكفران.

وكفر نعمة الله: جحدها وسترها.

وكافر: جاحد لأنعم الله.

كفر عليه يكفره: غطّاه.

كفر الشيء: ستره.

وأصل كلمة الكفر: من كفر الشيء، إذا غطّاه.

وجاء أيضاً أن الكفر هو: الإنكار والجحود.

---

(١) الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ط٢، ص ٦٠٥. الأصفهاني: الراغب الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، بيروت، دار المعرفة، ص٤٣٣. السويج، محمد: بين الجدران فيما فسّر أو دلّ على تفسير القرآن من القرآن مع ملحقه، بيروت، دار البيان العربي، ط١، ١٩٩١، الملحق/ ٢٢٠. القاموس المحيط: معجم لغوي، رتّب على الحرف الأصلي أولاً، فالأول ثانياً، فحروف الوسط، حذفت منه الصيغ القياسية، وأكثر من المعاني الطبية والمصطلحات. لترجمة القاموس المحيط، أنظر: الموسوعة العربية الميسّرة، مجموعة من الباحثين بإشراف غربال، أشرف، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٢/ ١٤٦٥. ويعدّ أشمل المعاجم الصغيرة، شرحه الزبيدي بالمعجم المعروف: تاج العروس.

المطلب الثاني: الكفر في الاصطلاح: عدم التصديق بالله ورسوله[1].

أو: جحود الوحدانية، أو الشريعة أو النبوّة[2]. ويمكن تبيّن المعاني والدلالات المختلفة لكلمة الكفر، من تتبّع ورودها في القرآن الكريم[3].

أ ـ الكفر ضد النفاق: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت].

ب ـ الكفر ضد الإيمان: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف/ ٢٩].

ج ـ الكفر ضد الشكر: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة].

د ـ كفر بمعنى: غطّى وستر: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد/ ٢٠]، أي الذين ستروا وغطّوا بذره في التراب، وسقوه فأنبت. فقيل: للزارع: كافر. ومن هذا المعنى، أُخذ تكفير الذنوب، أي: تغطيتها وسترها.

هـ ـ الكفر: الإنكار: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾، [آل عمران].

و ـ الكفر: الجحود: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة/ ٨٩]. أي: جحدوا به. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل/ ١٤]. فالجحود: كفر مع علم.

---

(١) غربال، أشرف وآخرون: الموسوعة العربية الميسّرة ٢/ ١٤٦٥.

(٢) الأصفهاني الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص ٤٣٤.
الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد، أديب لغوي وفقيه، أصله من أصفهان وعاش ببغداد، ألّف عدة كتب، وتتبّع في كتابه «المفردات في غريب القرآن» دوران كل لفظ في الآيات القرآنية، وأتى عليه بالشواهد من الحديث والشعر. والمفردات، من أهم الكتب المفسّرة لألفاظ القرآن. توفي الراغب عام ١١٠٨م. لترجمة الراغب، انظر: الموسوعة العربية الميسّرة، ١/ ٨٥٤.

(٣) انظر الأصفهاني: المفردات، ص٤٣٣، ٤٣٦، الرازي: مختار الصحاح، تحقيق حمزة فتح الله، وترتيب محمود خاطر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥/ ١٩٨٥، ص ٥٧٢. السويج، محمد: بين الجدران، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

٧ ـ الكفر: كفر النعمة: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[1] [النحل/ ٤٠].

٨ ـ الكفر: البراءة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[2] [إبراهيم/ ٢٢].

(١) وهذا القول ورد حكاية على لسان نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام.

(٢) وهذا ما يعلنه إبليس في خطبته الأخيرة، يوم الحساب، كما ورد في محكم التنزيل.

المبحث الثاني: أقسام الكفّار

للمفسّرين والباحثين تقسيمات في الكفّار، بالنظر إلى حالتهم النفسية، كما في كل من المؤمنين والمنافقين.

ويمكن القول: إن الكفار أربعة أقسام[1]، أو خمسة.

المطلب الأول: الكافرون المنكرون: ككفر فرعون، كما جاء في الآية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص].

فهو ينكر الله بلسانه، مع أنه يعلم وجوده في قلبه، ولقد واجهه نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام بذلك: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء].

المطلب الثاني: الكافرون الجاحدون: وهم الذين ينكرون الله بألسنتهم، مع أنهم يعلمون وجوده في قلوبهم، ككفر إبليس لعنه الله. وهذا الجحود، إما أن يكون:

أ ـ جحوداً بالربوبية، وأنه لا جنة ولا نار، (كما في وصف الزنادقة والدهريين)[2] القائلين ما حكاه القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

يقول الشهرستاني بشأن هؤلاء: «فمن معطل بطّال؛ لا يردّ عليه فكره برادّ، ولا يهديه عقله ونظره إلى اعتقاد، ولا يرشده فكره وذهنه إلى معاد، قد ألف المحسوس وركن إليه، وظن أنه لا عالم سوى ما هو فيه، من مطعم شهيّ

---

(١) الخازن، علاء الدين بن محمد البغدادي: تفسير الخازن، المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل، وبهامشه تفسير البغوي المعروف: بمعالم التنزيل، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ١/ ٣١ ـ ٣٢.
حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، بيروت، دار القلم، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٧٢٣. السويج، محمد: ملحق بين الجدران، ص ٢٢٠.

(٢) السويج، محمد: ملحق بين الجدران، ص٢٢٠، عن الإمام جعفر الصادق (رض).

ومنظر بهيّ، ولا عالم وراء هذا المحسوس، وهؤلاء هم الطبيعيون الدهريون، لا يثبتون معقولاً»[1].

ب ـ أن يعرف الحق، ولا يعترف به ظلماً وعدواناً؛ كما في الآية: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

وككفر اليهود؛ «الذين عرفوا أن النبي محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله»[2].

وقد نزل في هذا الصنف قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

المطلب الثالث: الكافرون المعاندون: وهم الذين يعرفون الحق في قلوبهم، ويعترفون به في ألسنتهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان].

ولكنهم، ومع ذلك، يعاندون في الإيمان بالله ورسله، واتّباع شريعته، ويستكبرون عن عبادته لأسباب كثيرة، منها الحسد، والبغي، والكبر؛ ومنها الطمع واتّباع الشهوات... ونحو ذلك.

ويضرب مثل على ذلك: أمية بن أبي الصلت، الذي كان يعرف، ويقرّ، ولكنه لا يدين بما يعرفه، ويقرُّ به[3].

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن القاسم: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٢/ ٤. الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ): عالم فارسي، محقّق في الفقه والكلام والأديان. تفقّه على الخوافي، الفقيه الشافعي، كان حسن المحاورة والوعظ، وكانت معارفه في علم الكلام، والفرق الكلامية، والدينية، والفلسفية من الشمول، بحيث تعدّ مصنفاته فيها من المصادر التي لا يستغنى عنها، وكتاب الملل والنحل من أشهرها. لترجمة الشهرستاني، انظر: الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١٠٩٨؛ الملل والنحل، ١/ ٣ ـ ٥.

(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية، وأسسها، ص ٧٢٣.

(٣) السويج، محمد: بين الجدران، ص ١٦٤.

المطلب الرابع: الكافرون المنافقون: وهم الذين يظهرون الاعتراف بألسنتهم، وقلوبهم منكرة غير معترفة. قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون].

على أنه لا يخلو هؤلاء المنافقون من أن يكون أحدهم ضالاً في نفسه، أو جاحداً، أو معانداً.

المطلب الخامس: الكفّار الضالّون: يمكن، أخيراً، الإشارة إلى صنف الكفّار الضالّين، وهم الذين ينكرون الله بألسنتهم، «لأنهم لا يعلمون وجوده في قلوبهم، ولا يعرفون ما يذكر لهم من التوحيد، وأصول الدين»[1].

وقد أشار القرآن الكريم، إلى هذا الصنف، وسمّاهم: ﴿ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾. في قوله تعالى، في فاتحة الكتاب: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

وممّا جاء في الضالّين: أنهم الذين لم يعرفوا الحق، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذي يقرن به العمل[2]. ودلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

وأشار إليهم أيضاً بوصف العمى، في قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد].

وليست هذه التقسيمات، وهذه الصفات، «في عهد القرآن فقط، بل إنها صفاتهم، في كل عصر، ومصر»[3].

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٧٢٣.

(٢) السويح، محمد: بين الجدران، ص١٦٤.

(٣) لاشين، عبد الفتاح: لغة المنافقين في القرآن، بيروت، دار الرائد العربي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٦/١.

المبحث الثالث: الكافر الأول

تمهيد:

لقد كان هناك خلق من خلق الله؛ يرى عياناً قدرة الله سبحانه، «ويعلم أن الله هو الخالق، المالك، الرازق، المدبّر، الذي لا يقع شيء إلا بإذنه»[1].

ولكنه، ومع ذلك، عصى ربّه سبحانه، وكفر به؛ «مع العلم ومع الاعتقاد»[2]. وهذا الخلق المتمرّد، هو إبليس، الشيطان الرجيم.

ولقد حدّثنا القرآن الكريم، في غير آية، عن الملامح الذاتية لإبليس، وأفاض في ذلك، بحيث لا نحتاج إلى جهد كبير، لنعرف شخصية إبليس، من خلال هذه الصورة القرآنية.

وليس غير القرآن، وليس غير الوحي، من سبيل لمعرفة تفاصيل الشخصية الإبليسية، إذ إنها من «أمور الغيب التي عرَّفنا الله إياها، في ما عرَّفه لأنبيائه من أمور الغيب. وفي هذا الإطار، لا بدَّ لنا من أخذ ملامحها وتفاصيلها، من النصوص الدينية، عبر ما أوحاه الله في الكتب السماوية»[3].

المطلب الأول: معنى إبليس في اللغة: البَلَس محرَّكة: مَنْ لا خير فيه، أو عنده إبلاس وشرّ[4].

وأبلس: يئس وتحيّر، ومنه إبليس، وهو أعجمي[5].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ط٧، ١٣٩٨/١٩٧٨، ٣/١٢٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ٣/١٢٦٦.
(٣) فضل الله، السيّد محمد حسين: الحوار في القرآن، بيروت، دار الملاك، ط٥، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ٤٠٣.
(٤) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق الترزي، وحجازي، والطحاوي، والغرباوي، راجعه عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ١٥/٤٦٢.
(٥) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٦٨٧.

إبليس: مَنْ أبلس حتى يئس منه، ومنه سمِّي إبليس، لأنه يئس من رحمة الله[1].

والإبلاس: الانكسار والحزن، يقال: أبلس فلان، إذا سكت غمّاً[2].

المطلب الثاني: معنى الشيطان في اللغة: الشيطان: النون فيه أصلية، وهو من شطن أي: تباعد، ومنه بئر شطون. وشطنت الدار، وغربة شطون[3].

شيطان: من شطن، وتعني: ابتعد، ويراد به: الابتعاد عن الحق والصواب، والشيطان: كل عاتٍ متمرّد، من إنسان، أو جنّ، أو دابّة[4].

يقول الله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات].

الشَّطَن محرّكة: الحبل الطويل، ج أشطان. وشطنه: شدّه. والشاطن: الخبيث[5].

شيطان: لفظ عبري الأصل، ومعناه لغة: العدوّ، ويدل في الإسلام، والمسيحية واليهودية، على مبعث الشرّ ممثَّلاً في شخص[6].

ويرى عدد من علماء اللغة: أن إبليس لفظة أعجمية معرّبة، عن اللفظة

---

(١) الجواهري، أبو نصر إسماعيل بن أحمد: الصحاح في اللغة والعلوم، تجديد صحاح العلّامة الجواهري، والمصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، بيروت، دار الحضارة العربية، ط١، ١٩٧٤، ١/ ١١٠. الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٢. السويح، محمد: ملحق بين الجدران، ص ١٤٨.

(٢) الجواهري، أبو نصر إسماعيل: الصحاح ١/ ١١٠. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس، ١٥/ ٤٦٢. الرازي: مختار الصحاح، ص ٦٢.

(٣) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ص ٢٦١.

(٤) الجواهري، أبو نصر اسماعيل بن أحمد: الصحاح، ١/ ٦٦٧. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٥١١. الرازي: مختار الصحاح، ص ٣٣٨.

(٥) الجواهري، أبو نصر اسماعيل بن أحمد: الصحاح، ١/ ٦٦٧. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٥١١. الرازي: مختار الصحاح، ص ٣٣٨.

(٦) غربال، أشرف، وآخرون: الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١١٠٦.

اليونانية: ديابولس Diabolos. ويقولون: إن كلمة Diable الفرنسية، وكلمة Devil الإنكليزية، مأخوذتان من الجذر اليوناني[١].

كما أن مؤلّفي معاجم اللغة العربية، وعدداً من المفسّرين، يرون أعجميتها، أو أنها من الألفاظ الدخيلة على اللغة العربية[٢]، ويقولون: إن لفظة Diabolos تعني في اللغة اليونانية: النمّام: المفتري[٣].

والعلماء الذين يعدّون إبليس، لفظة أعجمية، يمنعونها من الصرف، ويقولون: إن اعتبارها ممنوعة من الصرف، يرجع إلى استثقال حركة الجرّ في آخرها[٤].

وإضافة إلى ذلك، فإن هذه اللفظة ليس لها نظير في اللغة العربية، ولم يصادف أن تَسَمّى بها أحد، طوال الأزمنة الماضية.

وقد ورد ذكر لفظة إبليس، في القرآن الكريم مفردة، إحدى عشرة مرّة، ولم ترد إبليس بصيغة الجمع، في القرآن، مطلقاً.

كما أن كفر إبليس، لم يكن، في البدء، كفر شرك. ويقول في هذا الإمام

---

(١) حجّتي، محمد باقر: مجلة الثقافة الإسلامية، مجلة شهرية تصدرها المستشارية الإسلامية الإيرانية بدمشق، عدد ٢٩، ص ١٢٨.

(٢) الآلوسي، محمود شهاب الدين: روح المعاني، قرأه وصحّحه: محمد حسين العرب، بإشراف هيئة البحث والدراسات في دار الفكر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥؛ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٩٣، ١/ ٢٥٦. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ٦٨٧. الآلوسي: (١٨٠٢ ـ ١٨٥٤)، فقيه عراقي، مفتي بغداد، أشهر مؤلفاته: روح المعاني، وهو في التفسير. لترجمة الآلوسي، انظر: الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١٦٦٤.
ابن منظور: (١٢٣٢ ـ ١٣١١م)، لغوي ومؤرّخ، ولد بطرابلس الغرب، اختصر كثيراً من الكتب المطوّلة في الأدب والتاريخ، كالأغاني، والعقد الفريد، وأشهر كتبه المعجم المعروف: لسان العرب. لترجمته انظر: الموسوعة العربية الميسّرة، ١/ ٢٧.

(٣) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب. المصطلحات العلمية، ٤/ ٩٦.

(٤) الآلوسي، محمود شهاب الدين: روح المعاني، ١/ ٣٦٤.

جعفر الصادق (رض): «إن إبليس أول من كفر، وكان كفره غير شرك، لأنه لم يدعُ إلى عبادة غير الله، إنما دعا إلى ذلك بعد، فأشرك»[1].

وبذا يكون الكفر، أقدم من الشرك[2].

(١) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، بيروت، دار صعب ودار المعارف للمطبوعات، ط٤، ١٤٠١هـ، ٣٨٦/٢، باب الكفر والشرك.

(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

المبحث الرابع: الشخصية الإبليسية

لكل موجود شخصية تخصّه، ولا يمكن تصوّر أي شيء، من دون أن نقدّر له شخصيته، «فإنّما تتعلّق الأحكام بالموجود المتشخّص بشخصيته»[1].

وشخصية إبليس، لعنه الله، ليست من الموجودات، التي يمكن التصرّف في تفاصيلها، من خلال التجارب الذاتية، إذ هي من الغيب.

وأيضاً، فإن فكرة إبليس، كموجود حي، ليست من الأفكار، التي تخضع للتجربة، بل إن كل حديث، عن هذه الشخصية، إنما مردّه إلى كتاب الله، وإلى الوحي السماوي.

هذا، وقد حاول بعض المتفلسفين منح مواقف إبليس، «وجه المأساة في قضية إيمانه، فصوّروه بصورة الموحّد الخالص في توحيده، المؤمن العميق في إيمانه، وعزوا رفضه السجود لآدم، إلى رغبته في توحيد العبادة لله سبحانه، فلا يشرك أحداً في السجود لله، حتى إذا كان ذلك بأمر من الله، فهو مستعدّ لتقبّل عذاب الله، في سبيل الإخلاص لمحبته، ولإيمانه به»[2].

«ولكن هذه المحاولة، لا تخضع لأي أساس ديني»[3].

المطلب الأول: إبليس في القرآن: عندما تحدث القرآن الكريم عن إبليس، كقوة مادية مخلوقة من النار، صوّره لنا كائناً متمرّداً، ومخلوقاً يتمثّل فيه الشر، بكل أنواعه.

ويعيش في داخله، زهو العظمة والكبرياء، فيتحدّى الله سبحانه، ويتمرّد على إرادته، «عندما يتعارض مع نزعة الكبر في ذاته»[4].

---

(١) اللاري، السيد مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، بيروت، الدار الإسلامية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٨٨.

(٢) العظم، صادق جلال: نقد الفكر الديني، بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٦٩، ص٧٩ - ١٤٨. ولقد عقد الكاتب في كتابه أكثر من فصل لبحث مأساة إبليس، على حدّ زعمه.

(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٤٠٢.

(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

وهذه (الكبرياء هي التي منعته من السجود لآدم)[1]، وليس التوحيد الخالص.

وسنجد، في ما يأتي من حديث عن شخصية إبليس، صفة الحاقد، الذي يدفعه حقده إلى أن يجعل من نفسه «مغوياً ومضلّاً لبني آدم، ويناصبهم العداء منذ عهد أبيهم آدم (ع)»[2].

وأن يمارس كل ما يستطيع من الأعمال، في سبيل تحطيم هذا الكائن، في ذاته، وفي ذريته، كسبيل من سبل التنفيس عن حقده المكبوت في أعماقه.

فمن أين لإبليس صورة الموحِّد، المحبّ لله، الذي يريد أن يحرق نفسه، في سبيل الاحتفاظ بصفاء حبه وإيمانه؟

«هل نستطيع أن نضع ذلك، في غير أجواء الخيال الشعري الذي يعيشه الشعراء الحالمون؟[3].

المطلب الثاني: إبليس المتكبّر: إن أول معصية، نجمت من الذات، وانبعثت من الكبر، وإن «أول شبهة وقعت في الخليقة»[4] كانت من إبليس، إذ رفض السجود لآدم عليه الصلاة والسلام. وبرفضه هذا «وضع بذور الاستعلاء والتحقير»[5].

لقد خلق الله آدم (ع)، وكرّمه، وفضّله على كثير من خلقه، وكانت بداية التكريم الإلهي له أن أمر الله الملائكة، وإبليس معهم، أن يسجدوا له، في جو احتفاليّ عظيم، كتدليل على عظمة هذا المخلوق الجديد، لخصائصه الذاتية، «وللدور الكبير الذي أعدّ له في خلافة الله في الأرض، ولتسخير المخلوقات الطبيعية العظيمة له، ليستطيع القيام بدوره أعظم قيام»[6].

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن أبي القاسم: الملل والنحل، ١/١٦.
(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دمشق، دار القلم، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٢/٢٧٢.
(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٤٠٣.
(٤) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن أبي القاسم: الملل والنحل، ١/٦٦.
(٥) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ٤٩٤.
(٦) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٤٠١.

«ولكن كبر إبليس صرفه عن طاعة الله»[1]، «ومنعه أن يعترف بتفوّق الإنسان»[2]، وتعاظمت العقدة في نفسه، إلى درجة أن يكون مستعداً، لمواجهة أسوأ النتائج، في قضية مصيره، في سبيل المحافظة، على كبريائه الذاتي.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

المطلب الثالث: إبليس، الحاسد، الحاقد، العنيد: تتتالى الصور القرآنية، مجسّدة لنا العقدة المَرَضِيّة؛ التي عاشها هذا الكائن ضد الإنسان.

لقد وقف إبليس موقف الحاسد الحاقد، الذي يريد أن ينتقم ويدمّر الإنسان، ويعمل على الإساءة إلى المكانة الرفيعة، التي وضعه الله فيها. نعم لقد «تحوّل الحسد إلى حقد، وإلى تصميم على الانتقام في نفس إبليس»[3]. ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء/ ٦٣].

هذه استعارة على بعض التأويلات في هذه الآية، وهو أن يكون الاحتناك هٰهنا افتعالاً من الحنك، «أي: لأقودنّهم إلى المعاصي»[4]، كما تقاد الدابة بحنكها، غير ممتنعة على قائدها، وهو عبارة عن الاستيلاء عليهم، «والملكة لتصريفهم، كما يملك الفارس، تصريف فرسه، يثني العنان تارة، ويكبح اللجام مرة»[5].

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٩٦.

(٢) فاروقي، إسماعيل: مقالات المؤتمر الثاني للفكر الإسلامي في طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٤٧٧.

(٣) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٠٢٨.

(٤) الرضي، الشريف: تلخيص البيان في مجازات القرآن، طهران، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط١، ١٤٠٧ هـ، ص ١١٠. طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، بيروت، دار العلم للملايين ط٢، ١٩٨٣، ص ٣٦.

(٥) الرضي، الشريف: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص١٠٠. الشريف الرضي: محمد بن الحسين، أديب ولد ومات ببغداد، درس اللغة والحديث، والفقه، والأدب. كان إمامياً=

«فيكون نحو قولك لألجمن فلاناً، ولأرسننّهُ»[1]. وقال يعقوب بن إسحاق، ابن السكّيت في إصلاح المنطق: «يقال: حنك الدابة، يحنكها حنكاً، إذا شدّ في حنكها الأسفل حبلاً، يقودها به. وقد احتنك الدابة، مثل حنكها، إذا فعل بها ذلك»[2].

ويجوز أن يكون من قولهم: احتنك الجراد الأرض، «أي استولى عليها فأكلها، واستأصلها»[3]، «وأتى على نبتها»[4].

فيكون معناه «لاستولينَّ عليهم»[5] و«لاستأصلنّهم بالإغواء، ولاستطيعنَّ إهلاكهم بالإضلال، لأن اتّباعهم غيّه، وطاعتهم أمره، يؤولان بهم إلى موارد الهلاك، وعواقب البوار. قال الشاعر:

نشكو إليكَ سنةً قد أجحفتْ واحتنكتْ أموالَنا وأجلفَتْ

أي أهلكت أموالنا.

وقيل أيضاً: المراد بذلك، لأضيِّقنَّ عليهم مجاري الأنفاس، من أحناكهم بإيصال الوسوسة لهم، وتضاعف الإغواء عليهم.

ويقال: «احتنك فلان فلاناً إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه»[6].

= معتزلياً، في عام ٣٩٩هـ ولّاه الخليفة الطائع نقابة الطالبيّين وخلافة والده في النظر في المظالم، وإمارة الحج. خلع عليه بهاء الدولة البويهي لقب: الشريف الجليل، ولُقب (الرضي ذا الحسبين).
كان أشعر الطالبيّين، جمع من المختارات الأدبية: المجازات النبوية، والحسن من شعر الحسين، والزيادات في شعر أبي تمام، ونهج البلاغة من خطب الإمام علي (رض)، وكتب في التفسير: تلخيص البيان في مجازات القرآن، وغيره، وفي الفقه: تعليق خلافة الفقهاء، وغيره، وكتب في التاريخ. ترجمة الشريف: الموسوعة العربية الميسرة، ٢/١٠٨٣.

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد: المفردات، ص ١٣٤.
(٢) الرضي، الشريف: تلخيص البيان، ص ١٠٠.
(٣) الشهرستاني، أبو الفتح محمد: المفردات، ص ١٣٤.
(٤) انظر: الرازي: مختار الصحاح، ص ١٥٩. الرضي، الشريف: تلخيص البيان، ص ١٠٠.
(٥) الشهرستاني: المفردات، ص ١٣٤. الرازي: مختار الصحاح، ص١٥٩.
(٦) الرضي، الشريف: تلخيص البيان، ص١٠٠.

إقرار إبليس:

عن سالم بن عبد الله، عن أبيه عمر (رض) قال: «لما ركب نوح عليه السلام السفينة، رأى شيئاً لم يعرفه. فقال له نوح: ما أدخلك؟ قال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك؛ فتكون قلوبهم معي، وأبدانهم معك. فقال نوح عليه السلام: أخرج يا عدو الله.

فقال إبليس: خمس أهلك بهن الناس، وسأحدثك منهن بثلاث، ولا أحدثك باثنتين. فأوحى الله تبارك وتعالى إلى نوح (ع): أنه لا حاجة لك إلى الثلاث. مُرْه يحدثك بالاثنتين.

فقال بهما أهلك الناس: وهما لا يكذبان: الحسد، والحرص. فبالحسد لعنت، وجعلت شيطاناً رجيماً؛ وبالحرص أبيح لآدم الجنّة كلّها، فأصبت حاجتي منه فأخرج من الجنة»[1].

وروي عن الإمام الصادق (رض) أن «... إبليس قال لنوح: إيّاك والحسد، لأن الحسد كان دأبي... وسبب هبوطي ولعنتي»[2].

وهكذا،

فإن إبليس، وبطبيعة الشر التي تمحّض لها، وخضوعاً منه لأنانيته المَرَضِيَّة، لم ينظر إلى النتائج السيّئة على مصيره، في الدنيا والآخرة، بل أصرَّ على رفضه لأوامر الله، وتمادى في إصراره على الرفض، إلى حدٍّ أنه أراد من الله سبحانه، أن يمنحه الخلود في الدنيا.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر].

وذلك ليتفرّغ للإنسان، مغويّاً ومضلًّا، ومثيراً في داخله الصراع بين الخير

---

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن البغدادي: تلبيس إبليس، بيروت دار الرائد العربي، ص ٣٠.

(٢) الثقافة الإسلامية، عدد ٢٩، ص ١٣٠، عن الدر المنثور للسيوطي، ١/ ٥٠.

والشر، ومحبّباً له الشر، في أسلوب شيطاني دقيق خادع. «ليلبّي في داخله العقدة الحاقدة، التي تريد أن تحطّم الإنسان في روحه، وموقعه من الله»[1].

لقد كان تكريم الله سبحانه لآدم هو سبب تمرُّد إبليس، لعنه الله؛ وبالتالي أبعد إبليس عن ساحة رحمة الله.

«ورد في البحار، عن قصص الأنبياء، عن الإمام جعفر الصادق (رض) قال: أمر إبليس بالسجود لآدم فقال: يا ربّ وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم، لأعبدنّك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها. قال الله جلّ جلاله: «إني أحب أن أُطاع من حيث أريد»[2].

المطلب الرابع: إبليس المتعصّب: ليس الإيمان ادّعاءات تلوكها الألسن، وليس الإيمان تسلية للأحزان لفترة ما، وليس الإيمان نظرية من النظريات، يغوص العقل في خفاياها، «بل الإيمان هو الاندماج الكلّي في إرادة الله، التي تتركّز في العمل بوصاياه، وأوامره، والتضحية بكل غالٍ ونفيس في سبيله»[3].

وإن عبادة الله سبحانه؛ لا تتمثل بأوضاع معيَّنة، من أعمال الإنسان بل هي الخضوع لله في كل ما يريده، بالطريقة التي يريدها، بعيداً من كل نوازع النفس، ودوافعها الذاتية. «ولعل من أوضح مظاهر ذلك، أن يكبت الإنسان رغباته الشخصية، أمام إرادة الله»[4].

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٤٠١.
(٢) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، قم، إيران، مطبوعات إسماعيليان، ط٣، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ١/ ١٣٦.
(٣) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص ١٣٩.
(٤) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٤٠٤.

ولم يكن إيمان إبليس، كما ينبغي أن يكون الإيمان، ولم تكن عبادة إبليس كما ينبغي أن تكون العبادة.

ولذا، وعندما امتحن اللعين، تكشّفت حقيقته، وسقط قناعه، وإذ به العنصري المتعصّب. قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف].

فإن هي إلا الفكرة العنصرية، وإن هي إلا الحميّة والعصبية. يقول الإمام علي (رض): «كانت الحمية أمراً طارئاً على إبليس...، ومعاداته لآدم من أصل خلقته، فإبليس عدوُّ الله، وزعيم المتعصّبين، وسلف المستكبرين، وإبليس واضع أسس العصبية»[1].

و«المستكبر بالمادة التي خلق منها وهي النار»[2].

لقد كانت حالة إبليس مصداقاً، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «ما أسرّ عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها: إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ»[3].

المطلب الخامس: إبليس الجاهل: صوّر القرآن الكريم إبليس، لعنه الله، بصورة الكائن المتمرّد، الذي يعيش في داخله، زهو العظمة، بالعنصر الذي خلق منه، بإزاء الإنسان الذي ينتمي إلى عنصر التراب.

«لقد قاس إبليس بين النار والطين»[4]، تلك النار التي تفني التراب

---

(١) ابن أبي طالب، الإمام علي (رض): نهج البلاغة، ضبط د. صبحي الصالح، إيران، قم، دار الهجرة، ص ٢٨٦.

(٢) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن أبي القاسم: الملل والنحل، ١٦/١.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الجامع الصغير، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دمشق، مكتبة الحلبوني، ٤١٦/٢، حديث رقم: ٧٨١٣.

(٤) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، مطبعة البابي الحلبي بمصر، ط٢، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٤م، ١٩٣/٢.

وتحرقه؛ ولذا فإنها أعظم منه. ولقد وقع إبليس بقياسه هذا، في أمور، «تدلّ كلها على جهله»[1].

١ ـ اعترض إبليس على أمر من الله، وهذا يعدّ كفراً بلا شك. ويعد، كذلك، جهلاً، في أصل الكفر أيضاً.

فشعائر عبادة الله سبحانه، إنما يرجع تحديدها إلى الله سبحانه، ولا نملك تغييرها. وهي، مهما اختلفت، فهي موجّهة إليه سبحانه.

وهكذا، فإن أمر السجود لآدم، عبادة لله سبحانه، لأنه كان بأمر منه. «ولو صدّق إبليس أنه إله العالمين، لما احتكم عليه بِلَم»[2].

٢ ـ أعتقد أن الله يأمره، بما يطابق هواه ورأيه الضعيف.

٣ ـ استدلّ أن الله خلقه من مادة، ذات مزيّة؛ وهذا وحده كافٍ ليظهر جهل إبليس، حيث:

أ ـ إن قيمة الكائن ودوره، لا ترتبط بالعنصر الذي يتكوّن منه، بل بالخصائص الروحية، والفكرية والعملية، التي تتميز فيها الموجودات، وتحرّك حياتها، من أجل الوصول إلى أسمى المراتب، وأرفع الدرجات.

ب ـ لا يمكن إثبات أفضلية مادة على أخرى بالقياس؛ فبعض المواد

---

(١) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢/ ٢٠٢. القرطبي، محمد بن أحمد أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن، المعروف بتفسير القرطبي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ٧/ ١٧٠ ـ ١٧٢. الشوكاني: فتح القدير، ٢/ ١٩١. محمد باقر حجتي: مجلة الثقافة الإسلامية، عدد ٢٩، ص١٣٠.
الشوكاني: (١١٧٣ ـ ١٢٥٠هـ) ولد باليمن، تفقّه على مذهب الإمام زيد، ثم تحلّى بمنصب الاجتهاد. من كتبه المشهورة: كتاب نيل الأوطار في الحديث، وفتح القدير في التفسير، والفتح الرباني في الفتاوى. لترجمته انظر: الشوكاني، فتح القدير، ١/ص ٤ ـ ٨. القرطبي: أنصاري، خزرجي، أندلسي. من كبار المفسّرين، رحل إلى الشرق، وتوفي بمصر عام ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م، كان ورعاً، متعبّداً، تاركاً للتكلّف، يمشي بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية. لترجمة القرطبي، أنظر الزركلي: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٠، ١٩٩٢م، ٥/ ٣٢٢.

(٢) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن أبي القاسم: الملل والنحل ١٢/ ١٨.

والأشياء غالية، ولكنها على حسب أصلها حقيرة، وتافهة، كالمسك الذي يستخرج من صرّة الغزال، والماس الذي يستخرج من الفحم.

جـ ـ خلقت الملائكة من النور، في حين أن إبليس خلق من نار، ذات لهب حارق، وملوث بالدخان، ومتّصف بالاضطراب.

والنور، من غير شك، أفضل من النار. فمع أن الملائكة خلقت من النور، وهو العنصر الأفضل، والأكثر اعتباراً، فإنها امتثلت لأمر الله بكل تواضع، وسجدت. في حين أن إبليس، الذي خلق من عنصر أقل قيمة ومؤذٍ، لم يسجد.

أفلم يكن له «بالملائكة المطيعين لهذا الأمر، أسوة وقدوة، فعنصرهم النوري، أشرف من عنصره الناري»[1].

ولكن إبليس، لعنه الله، لم يغفل هذا فحسب، بل غفل أيضاً عن المزيّة التي منحها الله لآدم، حين خلقه بيده، وقدرته: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ [ص].

وجهل أنه نفخ فيه من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر].

د ـ إن في عنصر التراب والطين، رزانة وهدوءاً، ووقاراً وسكوناً، وفي النار حدة واضطراب[2]. هذا ما جعل إبليس يثور، ويتمرد، ويستكبر.

هـ ـ نرى في الأحاديث: أن تراب الجنة، من المسك الأذخر، في حين أن الأخبار، لم تذكر قط وجود نار في الجنة[3].

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٢/١٩٢.
(٢) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ٢/٢٠٢. الشوكاني، محمد ابن علي: فتح القدير ٢/١٩١.
(٣) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٢/١٩١.

و ـ عرّف الله النار بأنها وسيلة للتعذيب، في حين أنّه، جلّ وعلا، لم يذكر التراب، أداة للتعذيب[١].

ز ـ التراب لا يحتاج إلى النار، في حين أن النار محتاجة إلى التراب، لأنها محتاجة إلى مكان، والمكان من التراب[٢].

لذا، فقد قال ابن عباس (رض): «كان أولى بإبليس أن يطيع، من أن يقيس بفكره، لكنه شغل بقياس الكلام، فكان أول موجود قاس بفكره»[٣]، و«إبليس، هنا، قد جعل له رأياً مع النص»[٤].

فهو، أي إبليس، «مَنْ سَنَّ الكبر والاستبداد»[٥]، و«الاعتماد على الرأي الشخصي، والجنوح إلى الهوى في مقابلة النص»[٦].

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٢/ ١٩١.

(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٣) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٢٠٢. الشوكاني: فتح القدير، ٢/ ١٩٣، والقائل عند الشوكاني هو الحسن.

(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٣/ ١٢٦٦. الشهرستاني: الملل والنحل، ١/ ١٦.

(٥) البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، بيروت، دار صادر، ٢/ ٤. وبهامشه حاشية الكازوري.
البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: قاضٍ، مفسّر، علّامة، من تصانيفه، بالإضافة إلى التفسير: منهاج الوصول إلى علم الأصول، لب اللباب في علم الإعراب. وفاته: سنة ٦٨٥هـ. أنظر: الزركلي، الأعلام، ٤/ ١١٠.

(٦) الشهرستاني، أبو الفتح محمد: الملل والنحل، ١/ ١٨.

ختام الفصل

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [1] [الأعراف].

بعد أن خيّب الله إبليس من رحمته، وطرده من جنّته، لم يجد الخبيث له مهرباً، إلا التخرّص والوهم، فنسب الإضلال إلى الله سبحانه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ فقال، كما ورد في التنزيل: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾.

ولكن إبليس ما كاد «ينسب الغواية، التي تمكنت من نفسه، إلى صنع الله»[2]، حتى اتّضح منطقه المقلوب، إذ بادر إلى التوعّد والتهديد، ونسب، وبلسانه هو، الغواية إلى نفسه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾. وفي آية أخرى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر].

ومعنى هذا: أن إبليس هو الغواية والتضليل؛ فكيف ينسب ذلك إلى الله سبحانه؟

إن ما قدّر الله له من الغواية، وما أنزل به من الخيبة، إنما كان «بسبب معصيته وتبجّحه»[3]؛ ولم يكن تذرّعه هذا إلا فعل متبجّح قد دارت عليه دائرة السوء.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص].

«إنه الحسد ينضح من هذا الردّ، والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين في آدم، وهو النفخة فيه من روح الله، والذي يستحقّ هذا التكريم.

---

(١) الغيّ: الضلال والخيبة، أو جهل من اعتقاد فاسد. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١٠/ ١٤٩. الرازي: مختار الصحاح، ص ٤٨٤.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٨/ ٣٣.

(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٣/ ١٢٦٦.

وهو الرد القبيح، الذي يصدر عن الطبيعة التي تجرّدت من الخير كله، في هذا الموقف المشهود[1].

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٣٠٢٨/٥.

الفصل الثاني

أعمال إبليس وسلطته

المبحث الأول: أعمال إبليس

وهكذا، فإن إبليس قد لجَّ في غروره، وأعلن عن تفرّغه لنشر الغواية والانحراف، ولإشاعة الضلالة والفحشاء، حتى يمكن القول، الذي لا مرية فيه: «أن كل شبهة وقعت لبني آدم؛ فإنما وقعت من إضلال الشيطان الرجيم ووساوسه، ونشأت من شبهاته»[(١)].

واعتمد الشيطان، في خطّته الإضلالية، على التزيين والإغواء، وطرح الأماني والآمال على عقول البشر، كي يندفعوا وراء الشذوذ والانحراف، «ولا يجدوا حرجاً من تغيير خلق الله، والعمل على اجتثاث أي أصول تدعو إلى الفضيلة»[(٢)].

ولقد عدّد القرآن الكريم أنواع الأعمال التي جنّد لها نفسه، ودرّب عليها حزبه:

المطلب الأول: العداء للإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة]. إن إبليس، هو الشيطان، «عدو الإنسان، وعدو الحق والخير والهدى»[(٣)]. وقد كثرت

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد: الملل والنحل، ١٨/١.
(٢) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٤٩٥.
(٣) عبد الرحمن، عائشة: الشخصية الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٠، ص٤٦.

النصوص، التي تحذّر الناس من الشيطان وذريّته وجنوده، ومن موالاتهم؛ وتأمرهم بأن يتّخذوهم عدوّاً، وأن لا يتّبعوا خطواتهم؛ «حتى لا يضلّوهم ولا يستدرجوهم إلى عذاب النار»[1].

المطلب الثاني: الإغواء نحو الأمور السيئة والقبيحة، والكذب على الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة]. فالفساد الجنسي الذي استشرى في العالم، من استحداث اللباس الذي يكشف عن عورات المرأة ومفاتنها، والذي يغري الناس بالفواحش، هو من إيحاء الشيطان.

وإن ما تشهده البشرية «من فساد خلقي، من إفشاء أندية للعراة، يظهر فيها الرجال والنساء، وبدون لباس؛ إنما هو من وساوس الشيطان، أخبرنا الله به قبل أن يقع، وينتشر ويستفحل كما حصل في هذا العصر»[2]، حيث الخطة الصهيونية لتدمير إنسانية الناس، والتعجيل بانحلالهم، ليسهل تعبيدهم لملك صهيون!

«ولتوجّه معاول السحق، للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين.. بتلك الحملة الفاجرة الداعرة، إلى العري النفسي والبدني، الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان»[3].

المطلب الثالث: إخافة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

إنه الشيطان؛ يحاول أن يجعل أولياءه، مصدر خوف ورعب، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة، ويلبسهم لباس القوة والقدرة «ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضر.. ذلك ليقضي بهم لباناته وأغراضه، وليحقّق بهم الشر في الأرض والفساد، وليخضع لهم الرقاب،

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/ ٢٢٤.
(٢) طبارة: عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص٥١.
(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن الكريم، بيروت، الدار العربية للنشر، ط٤، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، ٨/ ١٤٥.

ويطوّع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجوههم صوت الإنكار؛ ولا يفكّر أحد في الانتفاض عليهم، ودفعهم عن الشر والفساد»[1]. بل يغترّ ضعاف النفوس، وأصحاب المصالح الضيّقة «بتخويفات الشيطان وإشاعاته، ويتأثّر بها أولياؤه المستعدّون للتأثّر بها»[2].

المطلب الرابع: خلق العداء، وإيجاد الضغينة بين الناس، من طريق الخمر والقمار: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [المائدة/ ٩١]. فالخمر والقمار هما من أهم ما يحرص عليه الشيطان، في وسوسته للناس، لأنهما أداتان من أدوات المعصية، والتخريب، والعداوة بين الناس[3]. ولا يحتاج الإنسان إلى طول بحث، حتى يرى أن هدف الشيطان، وغاية كيده، وثمرة رجسه، إن هي إلا إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم، وبين الناس «وفي نشر التمزُّق، والابتعاد عن الحياة الإنسانية الواعية، المتّصلة بالله»[4].

فالخمر بما تفقد من الوعي، وبما تهيّج من نزوات ودفعات، والميسر الذي يصاحبها وتصاحبه، بما يتركه في النفوس من خسارات وأحقاد، يجعلاننا نقول: «إن من طبيعة هذه الأمور، أن تثير العداوة والبغضاء، مهما جمعت بين القرناء في مجالات من العربدة والانطلاق اللذين يخيّل للنظرة السطحية أنهما أنس وسعادة»[5].

وبالتالي، تفقد الأمة شخصيتها القويّة الفاعلة، «وهذا ما أثبتته الحوادث التاريخية، حيث تمزّقت الشخصية الإسلامية، بنفوذ الخمر، وما يرافقه من مجون ودعارة، إلى مجالس الأمراء والحكّام»[6].

---

(١) قطب، سيّد: في ظلال القرآن الكريم، ٤/ ١٤١.
(٢) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم، طهران، معاونية العلاقات الدولية في منظمة الإعلام الإسلامي، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١٨٦.
(٣) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٥١.
(٤) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٣١٢.
(٥) قطب، سيّد: في ظلال القرآن ٧/ ٣٠.
(٦) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٣١٢.

المطلب الخامس: الصدّ عن ذكر الله، وعن الصلاة: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة].

الخمر تنسي، والميسر يلهي، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين؛ «وعالم المقامر، كعالم السكّير؛ لا يتعدّى الموائد والأقداح والقداح»[1].

المطلب السادس: إيجاد العداوة ضد الأنبياء: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام/ ١١٢].

إن الشياطين ـ من إنس وجن ـ وقد تمحّضوا للشر والغواية، يتمادون في ذلك؛ حتى إنه «يخدع بعضهم بعضاً بالقول المزخرف، الذي يوحيه بعضهم إلى بعض. ومن معاني الوحي: التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن»[2]. وقد يكون «بصوت مجرّد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح»[3]، «وبأصوات تنبعث من أمكنة مختلفة»[4].

ويغرّ بعضهم بعضاً، ويحرّض بعضهم بعضاً، على حرب الرسل، وحرب الهدى، من خلال هذا «القول المزوَّق»[5] الخادع، والذي قد يتمثّل بطرح شائعات، والقيام بحملة نفسية، وإيحائية وتمويهية، «ومحاولة طرح الشعارات البرّاقة، لإغراء العامّة والجهلة وذوي الأهواء، وإثارة الغرائز»[6].

المطلب السابع: إغواء آدم وبنيه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف].

«هذه إستعارة، والصراط هنا كناية عن الدين، الذي جعله الله سبحانه طريقاً إلى النجاة والمفاز، في دار القرار.

---

(١) قطب: سيد: في ظلال القرآن، ٧/ ٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ٨/ ١٧.
(٣) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٥١٥؛ الرازي: مختار الصحاح، ص٧١٣.
(٤) غربال وآخرون: الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١٩٦٤.
(٥) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣١٢.
(٦) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٥٩.

وإنما قال صراطك، لمّا كان الدين: الطريق المؤدية إلى رضا الله ومثوبته، والموصلة إلى نعيمه وجنته»[1].

فكأن إبليس، لعنه الله، إنما توعّد بالقعود على طريق الدين، مصرّاً على ملاحقة الإنسان في كل حالة، «ليمنعه من سلوك الطريق إلى الله»[2]، بإغوائه ومكره، وخدائعه، وتلبيسه، ووساوسه.

فيطرح، من خلال ذلك، العقبات أمام المسيرة الإنسانية السويّة، «ويمنعها من تقدّمها نحو هدف الخلق المعلن، ورصد حركاتها من جميع الجهات، وذلك بهدف جرّ البشرية إلى طريق الكفر بأنعم الله، وترك طريق الشكر»[3].

المطلب الثامن: الخلف بالوعد: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال/ ٤٨].

يزيّن الشيطان للفئة المشركة أعمالها، بعد أن تسلّم له قيادها؛ فتنسى كل عيب فيها، وتغترب عن ذاتها، وتصوّر نفسها قوة غالبة، «حتى كأن لا غالب لها من الناس»[4]. وإمعاناً في التغرير، يعلن الشيطان عن «إجارته لها، ونصرته لها»[5].

وهكذا، يقود الشيطان هؤلاء المغفّلين إلى الهاوية، عبر هذه الشعارات الخادعة. وحينما تبدو الحقيقة، ويتخاذل جيش الكفر، فمن الطبيعي، حينئذ، أن يعترف الشيطان بضعفه وكذبه، ويتراجع عن شعاراته الكاذبة، «ويخذلهم ويتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، ولا يوفي بعهده معهم»[6].

بل ويعلن: أنه بريء من هذه الفئة الضالّة، زيادة في تكبيتها، وإظهاراً لعدائه لها.

---

(١) الرضي، الشريف: تلخيص البيان، ص٣٣.
(٢) قطب، سيد: الظلال ٨/ ١٣٨.
(٣) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٦٧.
(٥) قطب، سيد: في ظلال القرآن ١٠/ ٢٥.
(٦) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

المطلب التاسع: تزيين الأعمال السيّئة والحثّ عليها: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل].

وقد زيّن الشيطان للإنسان، في بعض أدوار الحياة البشرية، أعمالاً هي من أقبح ما يكون، في الحقيقة والواقع، وأحياناً تحت ستار الأعمال الصالحة، «وتلقّاها الناس حينئذٍ بصفتها أعمالاً مقبولة لديهم»[1].

ويذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة، فيقول: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُمۡ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام].

فعندما يتحجّر القلب، ويقسو، يتعطّل ويموت؛ فلا يستطيع الاستقبال، ولا يثور فيه إحساس، ولا يتنبّه للتلقّي والاستجابة، ويسلك سبيل الانحراف، والانخراط «في سلك الفتنة الشيطانية، ونسيان الحياة الإنسانية الحقة»[2].

ودائماً يكون الشيطان من ورائه، «يزيّن له ما هو فيه، من الضلال والعناد»[3].

المطلب العاشر: إيجاد النسيان لذكر الله: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة/ ١٩].

الشيطان يغلب حزبه من الكفّار والمنافقين، «ويستولي عليهم»[4]. و«يستعلي»[5]. ويسوقهم سوقاً عنيفاً[6]، ويحيط بهم، فينسيهم «أوامر ربهم والعمل بطاعته، وزواجره في النهي عن معاصيه»[7].

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص١٢١.
(٢) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٣٦.
(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٧/ ١٩١.
(٤) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ١٩/ ١٩٥.
(٥) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٥/ ١٩٣.
(٦) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص١٣٤.
(٧) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٥/ ١٩٣.

المطلب الحادي عشر: الحثّ على الإسراف والتبذير: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء].

التبذير: تفريق المال كما يفرّق البذر، كيفما كان من غير تعمّد لمواقعه[١].

والتبذير من صفات الشياطين وإيحائهم[٢]. فإذا فعله أحد من بني آدم» فقد أطاع الشيطان، واقتدى به[٣]، وأصبح ملازماً له؛ «وبالعكس كالأخوين اللذين هما شقيقان متلازمان في أصلهما الواحد»[٤].

وبالتالي يماثل المبذّر الشيطان في كفره، «إذ التبذير يؤدّي إلى كفران النعمة»[٥].

المطلب الثاني عشر: تنمية الآمال المستحيلة في نفوس الناس: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء/١١٩]. ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء].

التمنّي: أكثره تخمين وظنّ، وتصوّر ما لا حقيقة له[٦]. والإضلال: «الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية»[٧]، و«العدول عن الطريق المستقيم»[٨].

يعمل الشيطان على اقتطاع جزء من البشرية، وإبعادها عن السير الصالح، من خلال الإضلال والأماني الكاذبة، التي تبعدهم عن طاعة الله، استجابة لرغباتهم النفسية الكاذبة الباطلة «الناشئة عن تسويله ووسوسته»[٩].

وبذا، يصبح الإنسان من أهل التمنّي الحمقى، «وتموت جذور فكره الإنساني السليم»[١٠].

---

(١) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٤٠؛ الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٣/ ٢٢١.
(٢) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٥٠.
(٣) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٣/ ٢٢١.
(٤) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٣/ ٨٢.
(٥) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٥٠.
(٦) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٤٧٥ ـ ٤٧٦.
(٧) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ١/ ٥١٧.
(٨) الأصفهاني، الراغب: المفردات ص ٢٩٧.
(٩) الشوكاني: محمد بن علي: فتح القدير ١/ ٥١٧.
(١٠) آملي، جوادي: معارف القرآن من خلال الحواميم السبع، ترجمة دار الصفوة، بيروت، دار الصفوة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٠١.

إذ من الطبيعي أن الوعود والآماني الشيطانية «. . . رغم سعتها الوهمية، فهي غرور وتغرير، وإيهام لا غير»[1]. يقول الإمام علي (رض): «إيّاك والاتّكال على المنى، فإنها بضائع النوكى[2]»[3].

المطلب الثالث عشر: إشغال الناس عن أمر الله، وعن دينه، وخلق البلبلة في نفوسهم: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾[4] [النساء].

فمن طريق بثّ خرافات الشرك، يحرم الناس الكثير من الثروات الحيوانية بعد تقطيع آذانها، وتغيير الخلق الإلهي: «كما في إخصاء العبيد، والمثلة، واللواط وغير ذلك»[5]. وكما في الاستنساخ المعاصر.

ولن يؤدّي ذلك إلّا إلى الخسران، وأي خسران أبين، مِنْ خسران مَنْ خرج عن حكم الفطرة السليمة، وبدّل بالسعادة الحقيقية، وكمال الخلقة، المواعيد الكاذبة، والأماني الموهومة.

المطلب الرابع عشر: تعليم الناس السحر: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة/ ١٠٢].

والسحر على معانٍ:

«الأول: الخداع، وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المُشَعْبِذُ بصرف النظر عمّا يفعله لخفّة يده. والثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرّب إليه»[6].

---

(١) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص١٢١.
(٢) النوكى: جمع أنوَك، وهو الأحمق: وزناً ومعنًى.
(٣) ابن أبي طالب، الإمام علي (رض): نهج البلاغة، ص٤٠٢.
(٤) البتك: يقارب البت، لكن البتك يستعمل في قطع الأعضاء والشعر؛ انظر: الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٦.
(٥) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٥/ ٨٥؛ الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ١/ ٥١٧.
(٦) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٢٢٦.

المطلب الخامس عشر: إطماع الناس للوقوع في الزلل: كما كانت حال إبليس اللعين مع أبينا آدم عليه الصلاة والسلام «الذي لم يلبث في الجنة، إلا ريثما ابتلي بالتكليف، وامتحن بالغواية، فأصغى إلى وسوسة إبليس، ونسي عهد ربّه، ثم ندم؛ فتاب الله عليه»[1].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾﴾ [طه].

المطلب السادس عشر: مجالسة الذين نسوا ذكر الله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف].

«عشى عن كذا نحو عمي عنه»[2]، والعشا «كلال البصر عن الرؤية، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع: الذي لا تملك العين أن تحدّق فيه، أو عند دخول الظلام، وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله»[3].

«والمراد ها هنا عشا البصيرة»[4].

فالذي يتعامى، ويتغافل، عن ذكر الله[5]، يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه ويصبح له قرين سوء، ويوسوس له، ويزيّن له السوء «وكل حوار بينهما، إنما هو من هذا القبيل»[6]، إذ إنّ وظيفة قرناء السوء من الشياطين، أن يصدّوا قرناءهم عن سبيل الله.

«وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين، أن يصدّه عن السبيل الواحدة القاصدة»[7].

---

(١) عبد الرحمن، عائشة: الشخصية الإسلامية، ص٤٦.
(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٣٦.
(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/٣١٨٩.
(٤) ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ٤/١٢٨.
(٥) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٦) عبد الرحمن، عائشة: الشخصية الإسلامية، ص٤٦.
(٧) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/٣١٨٩.

المطلب السابع عشر: التسلّط على أعوانه: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

إنما يتسلّط الشيطان، «على من يتّخذه ولياً»[١]، فيغويه، «فيطيعه»[٢] في وساوسه، «ويدير له الشيطان أموره كما يريد»[٣].

المطلب الثامن عشر: إرشاد الناس إلى عذاب جهنّم: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحجّ].

المطلب التاسع عشر: العصيان لله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾.

عصى عصياناً، إذا خرج عن الطاعة[٤]. وقال الكسائي العصيّ والعاصي بمعنى واحد[٥].

فالشيطان، «الذي استكبر عن طاعة ربّه»[٦]، حين ترك ما أمره به من السجود لآدم[٧] عصيٌّ للرحمٰن لا يأمر بشيء فيه رضاه؛ «وإنما يوسوس بما فيه معصيته المؤدّية إلى عذابه وسخطه، . . . وحيث إن الشيطان مقيم على معصيته لله، فلن يأمر، أبداً، إلا بما فيه معصيته والحرمان من رحمته»[٨].

المطلب العشرون: إثارة الفساد بين الناس: فهو الذي يغري بالعداوة والبغضاء بين الناس، فيفرق بين الأخ وأخيه: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف/ ١٠٠]، وبين الزوج والزوجة، وبين طوائف الأمة وجماعاتها.

والشيطان هو الذي يفسد بين المؤمنين، بالكلمة القاسية الخشنة، تصدر

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٣/ ١٩٤.
(٢) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٥٨٦.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٢/ ٣٤٤.
(٤) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٣٧.
(٥) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٣/ ٣٣٦.
(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٢٢.
(٧) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٣/ ٣٣٦.
(٨) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٤/ ٥٨ ـ ٥٩.

وتفلت بلا وعي؛ ثم بالرد السَّيِّىء الذي يتلوها. فإذا جوّ المحبة والوفاق يتبدّل إلى العداوة والخلاف.

في حين أن «الكلمة الطيبة تبعد الشيطان، وتأسو الجراح ـ جراح القلوب»[1].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء/ ٥٣].

النزغُ: «دخول في أمر لإفساده»[2].

فالكلام الخشن، والمحاورة القاسية الغليظة، تأذن للشيطان ببدء العمل وإتمامه.

والإحسان بالقول، ولزوم الأدب الجميل، حرز من نزغ الشيطان.

المطلب الحادي والعشرون: مرافقة الكاذبين والخاطئين: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء].

لا يقال في المُفترى والكذب، وما كان من الشيطان، إلا التنزُّل، فلا يقال لما كان من الشيطان، نزل، أو أنزل. أو نزّل[3].

والإفك: «كلُّ مصروف عن وجهه، الذي يحقّ أن يكون عليه»[4]، وأَفَكَهُ أي قلبه وصرفه عن الشيء[5].

إن الشيطان إنما يتنزّل على من «يشابهه ويشاكله، من الكهّان الكذبة»[6]، «الذين يتلقّون إيحاءات الشياطين، ويذيعونها مع التضخيم والتهويل»[7]، ومثل الشيء مجذوب إليه.

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٤٩.
(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٤٨٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٨٩.
(٤) المصدر نفسه، ص١٩.
(٥) الرازي: مختار الصحاح، ص١٩.
(٦) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٥٣.
(٧) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٦٢٠.

المطلب الثاني والعشرون: تخويف الناس من الفقر: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة/٢٦٨]. إن الذي يثير في القلوب الخوف من الإملاق، ويزعزع اليقين فيما عند الله، إنّما هو الشيطان.

فالشيطان هو الذي يخوّف الفقر، «ويثير في النفوس الحرص، والشح، والتكالب»[(١)]، ويلقي في روع الإنسان: «أن الإنفاق على المحتاجين يذهب المال؛ ويأمره بالحرص عليه، ومنع الزكاة عن مستحقّيها»[(٢)].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة. فأمّا لمة الشيطان فإيعاد بالشرّ، وتكذيب بالحق. وأما لمة الملك، فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى، فليحمد الله. ومن وجد الأخرى، فليتعوّذ بالله من الشيطان»[(٣)].

المطلب الثالث والعشرون: العواصف من شتّى أطراف الإنسان: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

للحيلولة بينهم، وبين الإيمان والطاعة، وهو «مشهد حيّ شاخص متحرّك، لإطباق إبليس على البشر، في محاولته الدائبة لإغوائهم، فلا يعرفون الله، ولا يشكرونه، اللهم إلا القليل الذي يفلت ويستجيب»[(٤)].

المطلب الرابع والعشرون: استفزاز الناس بالصياح، والهجوم بالأصحاب والفرسان والمشاة، والمشاركة في الأموال والأولاد ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء/ ٦٤].

استفزّ: أزعج، والفَزُّ: ولد البقرة. وسُمّيَ بذلك لما تُصُوِّر فيه من الخفّة[(٥)].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ١/٥٦.
(٢) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٤٩.
(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الجامع الصغير، ١/٢٣٢٢، رقم الحديث ٣٣٨٤، رواه الترمذي، والنسائي، وابن حيان، عن ابن مسعود (رض).
(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ٨/١٢٧.
(٥) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٧٩. الشوكاني: فتح القدير، ٣/٢٤١.

«استزعجْ واستخفّ من استطعت من بني آدم، واستنهضهم لمعصية الله سبحانه، واحملْ عليهم بجنودك وأعوانك، فرسانهم ورجالتهم، واجمعْ عليهم كل ما تقدر من مكايدك، وتسلَّطْ عليهم بكل ما تقدر.

وأمرْهم بأخذ المال من غير حلّه، وإنفاقه في غيره حلّه. وإن أخذوه من حلّه، فليستعملوه في غير طاعة الله.

وليحصّلوا أولادهم بالزنا، أو إن حصّلوهم بالحلال، فليربّوهم تربية غير صالحة، على وجه يألفون في خصال الشر، وأفعال السوء، فيجعلوا للشيطان سهماً معهم في الأموال والأولاد»[1].

المطلب الخامس والعشرون: تعليم أعوانه الجدل الفاسد: لإيجاد الخصومة بين المؤمنين ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

الوحي وحيان: وَحْيٍ من الله، ووَحْيُ الشيطان. فوحي الله إلى محمد، ووحي الشيطان إلى أوليائه[2]. «بما يوسوسون به إليهم، ليجادلوا المسلمين في نزاع فرعي، كمسألة الذبائح، موضوع الآية الكريمة؛ وفي مسألة واضحة أمر الله بها، لعلّهم ينحرفون بالمسلمين إلى مأزق المجادلة، ثم الوقوع في هوّة الشرك، عبر طاعتهم لتآمر أولياء الشيطان، بما جهّزوهم به، من تعليمات داخلية»[3].

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٤٦/١٣. ابن كثير، ٤٩/٣. الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير ٢٤٢/٣.

(٢) القول لابن عباس (رض). انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ١٧١/٢. الشوكاني: فتح القدير، ١٥٨/٢.

(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ٣٩/٨٢. وانظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١٧١/٢. الشوكاني: فتح القدير، ١٥٨/٢. التسخيري والنعماني: تفسير الأجزاء العشرة، ص٢٦٢. آملي، جوادي: تفسير سورة إبراهيم، ص٦٨.

المطلب السادس والعشرون: الاحتكاك بالإنسان، والتأثير فيه، وإيصاله إلى مرحلة الجنون في النهاية. يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ (١) (٢) [البقرة/ ٢٧٥].

«فالشيطان يمكن أن يمسّ الإنسان بجنون، فيتخبّط خبط عشواء»(٣).

---

(١) يتخبّطه الشيطان: يصرعه، أي: يقوم كالمصروع، والخبط: الضرب على غير استواء، والسير على غير هدًى. انظر: الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص١٤٢. الشوكاني: فتح القدير ٢٩٥/١٢.

(٢) المسّ: الجنون والخبل، ويقال: في كل ما ينال الإنسان من أذًى. انظر: الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٤٦٧. هويدي، محمد: التفسير المعين للواعظين والمتّعظين، بيروت، دار البلاغة، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٤٧.

(٣) انظر: الشوكاني: فتح القدير، ٢٩٥/١. التسخيري والنعماني: تفسير الأجزاء العشرة، ص١١٩. قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ٧٣/٣.

المبحث الثاني: سلطة الشيطان

ما دور إبليس، أمام الإنسان؟ وما مدى تأثيره في إضلاله ومدى تسلّطه عليه، وقدرته على دفعه للانحراف؟؟

هل يمثّل القدرة الطاغية، التي تشلّ إرادة الإنسان، وتحيط به من بين يديه، ومن خلفه؛ حتى لا تترك له مجالاً، للسير في خط الطاعة؟

أم أن دوره يقتصر على حدّ الدعوة، وتسلّطه ينحصر في الامتحان والابتلاء؟؟

«إن تأثير الشيطان ليس سوى الوسوسة[1] تارة، وإثارة الوعود الكاذبة، والتمنيات المعسولة، وخلق الأجواء المغرية تارة أخرى، وإن تسلّطه إنما هو تسليط امتحان وابتلاء»[2].

المطلب الأول: خصيصة للشيطان: للشيطان خصيصة، خُصَّ بها هذا الكائن المتمرّد، لحكمة يعلمها الله سبحانه، وهي: أنه مع كل إنسان، يجري منه مجرى الدم.

عن عائشة أم المؤمنين (رض): «أن رسول الله، خرج من عندها ليلاً. قالت: فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع. فقال: 'مالك يا عائشة؟'. فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: 'أو قد جاءك شيطانك؟' فقلت: يا

---

(١) الوسوسة: الخطرة الرديئة والهمس الخفي، انظر: المفردات، ص٥٢٢. ووسوسة الشيطان للبشر، هي ما يجدونه في أنفسهم، من الخواطر الرديئة، التي تزيّن لهم ما يضرّهم، في أبدانهم، ومعاملاتهم. انظر: طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء، ص٣٨.

(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية، ص٧٤٨؛ طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء، ص٣٨، وما بعد. قطب، سيد: خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦٥، ص١٤٩. فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٤٠٥ ـ ٤٠٦. آملي، جوادي: تفسير سورة إبراهيم، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥، ص٦٣.

رسول الله أو معي شيطان؟ قال: 'نعم'، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: 'نعم'»[1].

عن علي بن الحسين (رض)، عن صفية أم المؤمنين (رض) قالت: كان رسول الله، معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدّثته ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، وكان سكنها في دار أسامة بن زيد رضي الله عنه، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله أسرعا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «على رسلكما؛ إنما هي صفية بنت حُيَيّ». فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما.

فقال النبي (ص): «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً، أو قال: شيئاً»[2].

وعن أبي جعفر (رض) قال: إن آدم عليه السلام قال: يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان وأجريته مني مجرى الدم، فاجعل لي شيئاً، فقال: يا آدم جعلت لك أن من همّ من ذريتك بسيّئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيّئة. ومن همّ منهم بحسنته فإن لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشراً.

قال: يا ربّ زدني، قال: جعلت لك أن من عمل منهم سيّئة، ثم استغفر غفرت له. قال: يا ربّ زدني. قال: جعلت لهم التوبة، أو قال: بسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا ربّ حسبي[3].

المطلب الثاني: حدود السلطة الشيطانية: كوّنت هذه الخصيصة الشيطانية صورة مألوفة لدى الكثير من أفراد الطبقات الشعبية التي تحاول، في كثير من

---

(١) صحيح مسلم، ١٧ ـ ١٥٦/١٨، رقم ٧٠٤١؛ ابن الجوزي البغدادي: تلبيس إبليس، ص٣٤.

(٢) صحيح البخاري، ضبط مصطفى البغا، بيروت، مطبعة الهندي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ٧١٦/٢، حديث رقم: ١٩٣٣، ١٩٣٤، ٢٩٣٤، ٣١٠٧، ٢٥٨٦٥، ٦٧٥٠.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ج٢، باب الاستغفار من الذنب.

أوضاعها المنحرفة، إلقاء المسؤولية على الشيطان؛ وتبرّىء نفسها من مسؤولية الانحراف، «باعتبار خضوعها الطبيعي لأساليب الشيطان»[1].

ولكن هذه الصورة، غير الصورة القرآنية عن الشيطان. فالشيطان، وإن كان مصدر الشر في الوجود، وداعي الفساد على هذه الأرض، وعدوّ الإنسان الذي يدأب على تقوية دواعي الشر والباطل في النفس الإنسانية «ويزيّن لكل فرد ما تهفو إليه نفسه، ويميل إليه هواه، من حب للجنس، وتطلّع إلى الجاه، وإيثار للاستبداد، وميل إلى الطغيان والفساد»[2].

فإن القرآن جعل السلطة الشيطانية محدودة؛ والشيطان نفسه يدرك ذلك. ويعلم أنه المندحر المهزوم أمام عدوّه الإنسان، إن أخذ هذا الإنسان بأسباب النصر.

أما إن ترك الإنسان الأخذ بالأسباب، فلا يلومنّ إلا نفسه، إن أضحى صريعاً ـ وأيّ صريع ـ أمام عدوّه المبين: الشيطان.

المطلب الثالث: الإنسان المهزوم: إن سلطة الشيطان لا تتعدّى الوسوسة، التي تزيّن للإنسان المعصية، وتحسّن له الجريمة. أما السلطة المباشرة التي تمثّل الإكراه، والقهر، والإلجاء، فهذا ما لم يجعله الله له.

«ولكن الإنسان، الكافر والفاسق، الذي لا يستثير إيمانه، ولا يعيش الإحساس بعداوة الشيطان؛ هو الذي يعطيه السيطرة على نفسه، ويعطيه زمام قيادته»[3].

أ ـ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء].

يبيّن الله سبحانه حدود ما يمكن للشيطان من سلطة؛ فالشياطين تملأ قلوب

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٤٠٥.
(٢) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٤٩.
(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٤٠١.

الكذّابين الفاسقين، ذوي الأعمال الفاسدة وتتنزّل عليهم وفيهم، حيث تزيّن لهم الحرام.

«والذين يصغون لوساوس الشيطان، هم الكذابون الذين يطلقون الإشاعات والافتراءات، وعليهم يتنزّل الشيطان»[1].

ب ـ ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت/ ٢٥].

إن الفاسقين، يعرّضون أنفسهم، بسبب فسقهم، لعقاب شديد، يتجسّد في أنه يُقيّض لهم أصدقاء سوء، من شياطين الإنس مرّة، ومن شياطين الجن مرّة، «ليزيّنوا له ما هو لديهم حالياً: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. ويمنّونهم بمستقبل موهوم، ليكونوا مسرورين بما يظل بعدهم»[2].

جـ ـ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف].

لا يتمكّن الشيطان من الإنسان، إلا إذا أعرض عن ذكر الله تعالى. فعندما يغفل الإنسان عن ذكر الله: «ييسر له شيطاناً، يكون له ملازماً، كما أن من داوم على ذكر الله، باعد الله عنه الشيطان»[3].

د ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحجّ].

إن من يجعل الشيطان مولاه، فإنه يضلّه، أي: يغويه، ويوسوس له، ويصوّر له الباطل، بصورة الحق، «ويزيّنه له، ويهديه إلى عذاب السعير، أي: يوصله إلى هذا المصير السيّىء بسبب ما يوسوس له، ويزين لقلبه»[4].

هـ ـ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت/ ٥].

---

(١) آملي، جوادي: تفسير سورة إبراهيم، ص٦٩.
(٢) آملي، جوادي: معارف القرآن، ص١٠١.
(٣) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٥١.
(٤) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية، ص ٧٨٤.

وبناء على هذا، فإن الإنسان، الذي يغلق أذنه عن القرآن، فإنها بالتأكيد مفتوحة إلى جهة الشيطان والإغواء.

على أن الشيء الجدير بالملاحظة، هو: أننا عندما نقرأ الآيات، التي تتحدّث عن الشيطان، على سبيل المثال، وكيف يزيّن للإنسان أسباب الغواية والانحراف، وارتكاب الخطايا والآثام، فإننا، نتذكّر دوافع الشر الكامنة فينا، والنفس أمّارة بالسوء: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف/ ٥٣].

إنها تقوم بنفس الدور الشيطاني، «وتؤدّي نفس العمل، فهي تزيّن الهدف وتحبّب الإنسان فيه، وتدنيه منه، حتى ليكاد يلمسه بأصابعه، ويتحسّسه بيده، ممّا يحجب الرؤية عن الإنسان؛ فلا يرى خطأه. ويعزله عن السمع؛ فلا يلتفت إلى النصيحة. ويجسّد له المزايا والمصالح، التي سيحقّقها، بشكل فيه كثير من المبالغة؛ ولينسى ما سوف يسبّبه لغيره من الآلام والأضرار والمساوئ الجمّة»[1].

المطلب الرابع: الإنسان المنتصر: ليس الإنسان ريشة تتقاذفها الأقدار مع الريح إلى مكان سحيق، بل إن الصراع الدائر، بين الشيطان والإنسان، صراع متكافئ، يملك الإنسان فيه، الاختيار بين أن يريد، أو لا يريد.. «ودون الشيطان، والغلبة في هذه المعركة، حاجز قوي من الإيمان، وذكر الله، والاستعاذة به واللياذ بكنفه»[2].

أ ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل].

لا سلطان للشيطان على المؤمن، فالإيمان يفيض على النفس إشراقاً، ويملأ

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، منشورات صحيفة الدعوة الإسلامية، ط١، ١٩٩٠م، ص٦٣.

(٢) قطب، سيد: خصائص التصوّر الإسلامي، ص١٤٩.

القلب نوراً. «وإذا أشرقت النفس، واستنار القلب، انمحى كل ما يوسوس به الشيطان من شر»[1]. «وكلّما سلك الإنسان طريق الفضيلة، حظي بالمزيد من التوفيقات الإلهية، وانتفع بها»[2].

ب ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

يملك الإنسان العقل الواعي، الذي يميّز بين الخير والشر، والصلاح والفساد. وجاءت الرسالات السماوية، لتفتح للإنسان سبل المعرفة، لما يسلكه من طرق تؤدّي إلى الله.

والإنسان مؤمن، يستطيع، بما يملكه من عقل وإيمان ومن قوة روحية تهزّ كيانه وتثير فيه روح الصراع الحق، أن ينازل الشيطان في عملية الصراع الدائر بكل هذه القوى؛ «وبالتالي لا يستطيع الشيطان الضغط، ولا السيطرة، ولا تحقيق ما يريد»[3].

جـ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[4] [الأعراف].

إن المتّقين، إذا اتّصل بهم طيف[5] من الشيطان، ليحملهم على المعصية، تذكّروا أن هذا من عدوّهم الشيطان وإغوائه، «ليعمي، ويغلق، ويطمس

---

(١) طبارة: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص٥٠.
(٢) آملي، جوادي: تفسير سورة إبراهيم، ص٦٣.
(٣) انظر: قطب، سيد: خصائص التصور الإسلامي، ص١٤٩؛ فضل الله: السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٤٠١ ـ ٤٠٦.
(٤) طائف: هو الذي يدور على الإنسان، من الشيطان، يريد اقتناصه؛ انظر المفردات للراغب الأصفهاني، ص٣١١. والطائف: العسس، مختار الصحاح، ص٤٠٠.
(٥) طيف: وهو خيال الشيء وصورته، المتراءى له في المنام، أو اليقظة. ومنه قيل للخيال، طيفاً. انظر: المفردات، ص٣١١؛ الشوكاني: فتح القدير، ٢/ ٢٧٩.

بصيرتهم. وتذكّروا عقاب الله لمن اتبع الشيطان، وجزيل ثوابه لمن أطاع الله، وتذكّروا أن الله هو ربّهم، الذي يملكهم ويربّيهم، ويرجع إليه أمرهم.

فإذا هم يلجأون إلى ذكر الله، فيكفيهم الله مؤونة الشيطان الرجيم، ويدفع عنهم كيده.

فإذا بصيرتهم تتفتح وتتّقد. وإذا بحجاب الغفلة يرفع. وإذا هم أولوا بصيرة، يفرّقون بها بين الخير والشر، والحق والباطل؛ فيبعدون عن أنفسهم وساوس الشيطان، وتقودهم بصيرتهم نحو سبيل الخير»[1].

وهكذا فإن الإسلام يقرّر بأن: «الشيطان أضعف من أن يكون مسلّطاً على الإنسان»[2].

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله، قال: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه»[3].

---

(١) انظر: التسخيري، محمد علي؛ والنعماني: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٤٤٦. الظلال، دار العربية، ٩/ ١٣٩. الطباطبائي: الميزان ١٢/ ٣٨١. الشوكاني: فتح القدير، ٢/ ٢٧٩.

(٢) قطب، سيد: خصائص التصور الإسلامي، ص١٤٩.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الجامع الصغير، ١/ ٢٧٣. ابن الجوزي، عبد الرحمن: تلبيس إبليس، ص٢٥.

المبحث الثالث: خطبة شيطانية

يقف إبليس خطيباً، يوم القيامة، ليعلن في ضحاياه، هذه الحقيقة[1]:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ابراهيم].

ها هو الشيطان، هاتف الغواية، وحادي الغواة، «يتشيطن على الضعفاء والمستكبرين، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب»[2]. كلام يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، ويطعنهم طعنة أليمة نافذة:

المطلب الأول: الوعد بالباطل: إن مواعيده، التي كان يعدهم بها في الدنيا، من أهواء لذيذة، وآمال طويلة، «وإن صرفه لهم عن تذكّر الموت، وتخويفهم الفقر، والذلّة، وملامة الناس»[3]، وقوله «لهم أن لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار»[4]، كانت كلّها وعداً باطلاً.

المطلب الثاني: الوعد الحقّ: إن ما وعدكم الله سبحانه به، من بعث، وحساب، وفصل قضاء، وجنة ونار، ومجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، قد تحقّق وقوعه، وصدّقته المشاهدة[5].

المطلب الثالث: حرية الإنسان: يؤكد إبليس، وقد أدّى مهمته الأساسية، وانتهى دوره الإضلالي، يؤكّد الفكرة الدينية، في أن إرادة الإنسان حرّة، وليس

---

(١) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٧٤.
(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار العربية، ١٣/ ١٣٧.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٢/ ٤٦.
(٤) الشوكاني. فتح القدير، ٣/ ١٠٤. الطباطبائي، محمد حسين: الميزان ١٢/ ٤٦.
(٥) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان ١٢/ ٤٦.

له عليهم من سلطان، ولا وجود، لما يزعم، من قوّة له قاهرة تشلّ إرادة الإنسان، من دون اختيار منه.

بل الإنسان «هو الذي تخلّى عن شخصيته، ونسي ما بينه وبين الشيطان من عداء قديم»[١]، فاستجاب لدعوته الباطلة «العاطلة عن البرهان، الخالية عن أيسر شيء ممّا يتمسّك به العقلاء»[٢].

فلماذا يلقون اللوم على الشيطان، ولا يلقون اللوم على أنفسهم؟ في الوقت الذي لم يكن منه إلا إثارة الشهوة، وتزيينها، بينما كان منهم: الإرادة، والتضحية، والعمل.

إنه يعلن: «ما كان لي في الدنيا عليكم من تسلّط، لا من جهة أشخاصكم وأعيانكم، فأجبركم على معصية الله، بسلب اختياركم، وتحميل إرادتي عليكم، ولا من جهة عقولكم، فأقيم لكم الحجة على الشرك، كيفما شئت، فتضطر عقولكم لقبوله، وتطيعها نفوسكم بما تأمرها به»[٣].

المطلب الرابع: إبليس ينفض يده: ينفض إبليس الآن يده منهم، وهو الذي وعدهم من قبل ومنّاهم، ووسوس لهم أن لا غالب لهم؛ فأما الساعة فلا نصر منه ولا إغاثة، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ، فلقد وقعوا جميعاً في البلية، والعجز عن الخلوص، من هذه المحنة[٤].

المطلب الخامس: تبرّؤ إبليس من الكفر: ويبرز في خاتمة المطاف العنصر المثير، الذي يجعل الشيطان يكفر بإشراكهم إياه بالله، «ليبقى الإنسان المنحرف، المتمرّد على الله، وحده، دون ناصر، أو معين»[٥]، «تتضاعف عليه الحسرات، وتتوالى عليه المصائب»[٦].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ١٣/ ١٣٧.
(٢) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٣/ ١٠٤.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٢/ ٤٧.
(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن ١٣/ ١٣٧. الشوكاني: فتح القدير، ٣/ ١٠٤. الطباطبائي: الميزان، ١٢/ ٤٧.
(٥) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٣٥٦.
(٦) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٣/ ١٠٤.

كلمة

وهكذا يتخلّص الشيطان، وأمام الناس الذين ضلّوا بسببه، ممّا يريدون أن يحمّلوه من مسؤولية. ويعلن لهم: أن دوره الأساسي هو الإيحاء والوسوسة والدعوة، دون أن يكون له سبيل إلى الإرادة، التي تصنع الأعمال بشكل مباشر.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

بهذا تحدّد منهج إبليس وطريقه، إنه يقسم بعزة الله ليغوينّ جميع الآدميين، لا يستثني إلا من ليس له عليهم سلطان:

«لا تطوّعاً منه، ولكن عجزاً عن بلوغ غايته فيهم! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده، والعاصم الذي يحول بينهم وبينه، إنه عبادة الله التي تخلّصهم لله.

هذا هو طوق النجاة، وحبل الحياة»[1].

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٣٠٢٨/٥.

ختام الفصل

وهكذا، فإن الشيطان الرجيم يمضي، ومن خلفه حزب الشياطين من الإنس والجن، يزيّن للناس وللجان، الإلحاد والزيغان، وينفثون الضلال والسوء، ويتّبعون، في سبيل ذلك، شتى الأساليب والوسائل الماكرة الخبيثة.

ولقد استطاعوا أن يجتالوا[1]، أكثر بني آدم، عن دين الله، وأن ينحرفوا بهم إلى اعتقادات مبنيّة على الضلال والأوهام، ومؤدّية إلى الشقاء والخسران.

قال رسول الله: «قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم»[2].

وعسى أن قد تيسّر إلقاء الضوء على أول كافر، أنجب جميع قوى الجهل والتعنّت البغيض، والعداء اللئيم، والحرب الضروس التي واجهت أنبياء الله ورسله، على امتداد التاريخ الإنساني.

إن الشيطان، ومنذ رفض السجود لآدم، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، «أرسى قاعدة التحقير»[3]، التي رفعها المستكبرون ضد البشرية، ووضع أسس الانحراف، وبذور الإفساد.

وضبط الشيطان حركته على هذا الإيقاع، وجعله عمودها الفقري. وإن الإيقاع الإبليسي هذا، إيقاع الكبر والعنصرية، له أخطر الأثر على المصير الحياتي والأبدي للإنسان، كما حدث لإبليس.

---

(١) يجتالوا: يديروا.

(٢) صحيح مسلم، شرح الإمام محيي الدين النووي، المسمّى: المنهاج؛ شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق: الشيخ مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط٣١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ١٧ ـ ١٨/١٩٤، حديث رقم: ٧١٣٦.

(٣) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٨.

«ولما كان إصلاح الشيطان، أمراً ميؤوساً منه»[1] فهو «شرّ ليس عارضاً ولا وقتيّاً، وإنما هو الشر، الأصيل، العامد، القاصد، العنيد»[2].

كان اتّخاذه عدوّاً، ومعاداته، لشرّه الذي لا يفارقه، شيئاً طبيعياً، لا مهادنة فيه ولا مجاملة. وكانت مشاعر الكراهية، هي الأصل في معاملته.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

«اللهم، أعذني وذرّيتي من الشيطان الرجيم،

فإنك خلقتنا، وأمرتنا، ونهيتنا،

ورغبتنا في ثواب ما أمرتنا،

ورهبتنا عقابه،

وجعلت لنا عدوّاً يكيدنا،

سلّطته منّا على ما لم تسلّطنا عليه منه،

أسكنته صدورنا،

وأجريته مجرى دمائنا،

لا يغفل إن غفلنا،

ولا ينسى إن نسينا،

يؤمّننا عقابك، ويخوّفنا بغيرك،

إن هممنا بفاحشة، شجّعنا عليها،

وإن هممنا بعمل صالح، ثبطنا عنه،

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/ ٢٢٤.

(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٣/ ١٢٦٦.

وإلّا تصرف عنا كيده يضلّنا،

وإلا تقنا خباله[1]... يستزلنا،

اللّهم،

فاقهرْ سلطانه عنا سلطانك،

حتى تحبسه عنّا بكثرة الدعاء لك،

فنصبح من كيده في المعصومين،

بك»[2].

(١) الخبال: الفساد الذي يلحق الحيوان، فيورثه اضطراباً، كالجنون والمرض، يؤثّر في العقل والفكر، انظر: الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص١٤٢.

(٢) ابن الحسين: الإمام علي زين العابدين (رض): الصحيفة السجادية، بيروت، مؤسسة الأعلمي ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص١٢٢.

الفصل الثالث

الشخصية

المبحث الأول: التعريف بالشخصية

تمهيد:

لم يكن الإنسان، في يوم من الأيام، أشدّ حاجة إلى فهم شخصيته، ممّا هو عليه الآن. ذلك لأن ثمة صرخة مدوية، ترتفع الآن في كل مكان، معلنة أن الإنسان قد نمت معرفته بالعالم الطبيعي، وتقدّمت سيطرته عليه، فأصبح يرتاد الفضاء ويستنسخ الحيوان، حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من الهلاك.

«فلقد وصل الإنسان، اليوم، إلى مرحلة من القدرة والمهارة، يكاد معها أن يدمّر نفسه. ولم يعد أمامنا، اليوم، إلا أن ننمّي معرفتنا بالطبيعة البشرية، حتى يحدث التوازن اللازم في المعرفة الإنسانية، وحتى نكون أكثر قدرة على التحكّم في العوامل، التي تسير بنا إلى طريق الدمار»[1].

المطلب الأول: معرفة الطبيعة البشرية: إن الذي يميّز أفراد البشر، بعضهم من بعض، وبه يمكن التوصّل إلى معرفة الموقعية الحقيقية، والقيمة الذاتية لكل أحد هو «الشخصية».

---

(١) مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٩؛ عن محمد عماد الدين إسماعيل: الشخصية والعلاج النفسي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩، ص٣ ـ ٤.

فمع شبه الأشخاص بعضهم ببعض، من حيث الصفات النوعية، وردود الفعل المشتركة، ومن جهة الجوانب العامة للحياة الاجتماعية، «فإن لكل فرد كيفيات خاصة، من حيث الخصائص الطبيعية والتربوية. وفي كيان كل منهم، فردية تميّزه عن سائر المشاركين إياه في الإنسانية.

وتمايز الأفراد بعضهم عن بعض، لا يكون ببعض الخواص المجردة، بل بمجموعة متنوّعة من الصفات، والدوافع الداخلية الذاتية، والتي تحدث تأليفاً يشكّل شخصية متميزة»[1].

ولا بدّ أن تتمتّع هذه الصفات بنوع من الثبات والدوام، حتى تعدّ جزءاً من مقومات الشخصية.

«وفي الواقع، إن سجايا الإنسان، ونزعته، هي شخصيته. وكما ينطبق هذا الواقع على الأفراد، كذلك يصدق هذا بشأن الأمم، والأقوام المختلفة، بما لهم من خصائص في كل مناطق الأرض»[2].

المطلب الثاني: تعريف الشخصية: ورد في الشخصية تعاريف عدّة، سنعرض لها قبل ذكر قصورها، وتحديد الطريق الوحيد للمعرفة الكاملة بالشخصية الإنسانية.

أولاً: الشخصية نظام متكامل من مجموعة الخصائص الجسمية، والوجدانية، النزوعية، والمعرفية، التي تعيّن هوية الفرد، وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزاً بيّناً.

وللشخصية جانبان: ذاتي، وموضوعي:

والجانب الذاتي هو ما يعبّر عنه بالإنية، أي شعور الشخص بذاته. وهو ليس أوّلياً، بل يتكوّن تدريجياً، مارّاً بثلاث مراحل رئيسية: الشعور بالذات الجسمية، ثم الذات النفسية، وأخيراً بالذات الاجتماعية.

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٨.

بيد أن المرحلتين الأخيرتين مندمجتان، إلى حدّ بعيد، بحيث تكوّنان الذات المعنوية.

أما الجانب الموضوعي، فيتكوّن من مجموع السمات، التي تتيح للفرد أن يسلك إزاء الآخرين سلوكاً، موسوساً بطابعه. وتسمح اختبارات الشخصية بتقدير هذه السمات[١]. حيث إن الشخصية هي: «حدث في الطبيعة وظاهرة قابلة للملاحظة، ويمكن أن يتّفق عليها الملاحظون الأكفاء»[٢].

ثانياً: الشخصية: هي ذلك التنظيم الديناميكي، في الفرد، لتلك الاستعدادات النفسية التي تحدّد طريقته الخاصة، في التكيّف مع البيئة[٣].

«والمقصود بالتنظيم الديناميكي، أن تكوين الشخصية، لا يكون ثابتاً، بل يتغيّر بمرور الزمن، تحت المؤثرات المختلفة، والظروف المحيطة. وتخلص من ذلك، أن الشخصية: هي نتاج كل من العقل، والجسم في وحدة كلّية متكاملة»[٤].

ثالثاً: يرى كاتل أن الشخصية: هي تلك التي تمكّننا من التنبّؤ بما سوف يفعله الشخص، في موقف معيّن؛ وعلى ذلك، فإن هدف البحوث النفسية، في الشخصية، هو: تحديد قوانين تتعلّق بما سوف يفعله الأفراد المختلفون، في جميع أنواع المواقف الاجتماعية، والبيئية العامة.

إن الشخصية تتعلّق بكلّ سلوك الفرد، سواءً أكان سلوكاً صريحاً أم متخفّياً»[٥].

---

(١) الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/١٠٧٨.

(٢) مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ص١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٢٣.

(٣) Allport, G. personality: Psgchogical Interpretation. New York: Holt, 1937, P. 48؛ عن المصدر نفسه، ص١١.

(٤) مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، ص١١.

(٥) Cattell, R.; personality: A Sy St ematic, Theortical, and Factual study New york: Mc. Graw-Hill, 1950. P. 302؛ عن المصدر نفسه، ص١٢.

رابعاً: الشخصية: هي ذلك التنظيم التكاملي، الديناميكي الذي يتميّز به الفرد. وتكون من التفاعل المستمرّ المتبادل بين المكوّنات الجسمية والنفسية بشكليها: العقلية، والانفعالية، ومؤثّرات البيئة المادية والاجتماعية[1].

خامساً وأخيراً: يعتبر الباحثون في الشخصية أنّها تمثّل جوهر الإنسان. وترى هذه التعريفات أن: الشخصية تشير إلى ذلك الجانب من الفرد الذي يمثّله أكثر من الجوانب الأخرى، ليس لأنه الجانب الذي يفرّق بينه وبين الأشخاص الآخرين، فحسب، ولكن لأنه هو ما يكون عليه الشخص في حقيقته[2].

ويتمثّل هذا التعريف، في ما يراه ألبورت، من أن «الشخصية هي ما يكون عليه الإنسان في حقيقته»[3].

«ومقتضى هذا: أن الشخصية تتكوّن، في نهاية الأمر، من أكثر الأشياء تمثيلاً، وأعمقها تمييزاً للشخص»[4].

المطلب الثالث: معرفة قاصرة: على كل فرد أن يعرف حقيقة وجوده، وموقع الإنسان في هذا الوجود، كي يصل بهذه المعرفة إلى دور الإنسان، وحدود مسؤولياته، وعلاقاته بعالم الوجود.

«لأننا لا نتخيّل حالة نفسية، هي أصحّ من حالة البحث عن مكان الإنسان،

---

(١) عطية محمود هنا وآخرون: الشخصية والصحّة النفسية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص٩٠؛ عن مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، ص١٢.

(٢) المصدر نفسه ص١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥.

(٤) فرج أحمد فرج، قدري حفني، لطيف فطيم: (ترجمة) نظريات الشخصية، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص٢٢؛ عن المصدر نفسه، ص١٥.

من هذا العالم الذي نشأ فيه، ولا يتجاهل حقيقته إلا وهو في حالة مرضية، أو حالة من أحوال الجهالة، تشبه الأمراض»[1].

ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، بل إن الإنسان ليعجز عن الوصول إلى المعرفة الكاملة بنفسه: «فأغلب الأسئلة، التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري، تظلّ بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية، ما زالت غير معروفة؛ فنحن لا نعرف، وحتى الآن، الإجابة على أسئلة كثيرة»[2].

حيث إن الإنسان كلّ لا يتجزّأ، وفي غاية التعقيد. ومن غير الميسور «الحصول على عرض بسيط له. وليست هناك طريقة لفهمه، في مجموعه، وفي أجزائه في وقت واحد. كما لا توجد طريقة، لفهم علاقاته بالعالم الخارجي. ولكي نحلّل أنفسنا، فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة، وإلى استخدام علوم عديدة»[3].

ومن الطبيعي أن تصل كلّ هذه العلوم إلى رأي مختلف في نهاياتها المشتركة، فإنها تستخلص من الإنسان، ما تمكّنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط.

---

(١) العقاد، عباس محمود: كتاب الله، القاهرة، نهضة مصر للطباعة، ط١، ١٩٩٤، ص٩.
العقاد: ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤، شاعر وكاتب عربي، ولد في أسوان؛ أتم تعليمه الابتدائي؛ أقبل على تثقيف نفسه ثقافة واسعة؛ له عدة مجموعات شعرية؛ ظهرت الطبعة الأولى من ديوانه عام ١٩١٦؛ كتب سلسلة سِيَر لأعلام الإسلام بطريقة خاصة، أشبه برسم الشخصيات: عبقرية محمد، عبقرية الصديق، عبقرية عمر، عبقرية علي، وغيرها؛ واتجه إلى الفلسفة والدين: «الله» «إبليس» الفلسفة القرآنية: الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١٢٢٠.

(٢) كارل، الكسيس: الإنسان ذلك المجهول، تعريب: شفيق أسعد فريد، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٩٧٤، ص١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦.

«وبعد أن تضاف هذه المستخلصات إلى بعضها، فإنها تخلّف وراءها بقية عظيمة الأهمية، بحيث لا يمكن إهمالها»[1].

وهذا أمر في غاية الصدق والصحّة، إذ إنه من الواضح أن ما حقّقه العلماء من تقدُّم في ما يتعلق بدراسة الإنسان: «ما زال غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب».

(١) كارل، إلكسيس: الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٩٧٤، ص١٩.
إلكسيس كارل: ١٨٧٣ ـ ١٩٩٤، جراح وبيولوجي تجريبي أمريكي، ولد بفرنسا؛ انضم إلى معهد روكفلر عام ١٩٠٦؛ منح جائزة نوبل للفسيولوجيا والطب ١٩١٢، لأبحاثه الطبية الفذة، في خياطة الأوعية الدموية، ونقل الدم؛ ابتكر في الحرب، هو وداكن، طريقة لعلاج الجروح؛ ابتكر طرقاً تمكّن من الاحتفاظ بأنواع مختلفة من الأنسجة والأعضاء حية. أما كتابه «الإنسان ذلك المجهول» الذي استقبل بحماس عظيم عند نشره لأول مرة، وما زال، وغيره، ففيها إيمانه بإمكان تحسين الكائن البشري من الناحية الروحية، بالتحكّم في استخدام العوامل الطبيعية والكيميائية. انظر الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١٤٢١؛ الإنسان ذلك المجهول، ص٦٠٥.

المبحث الثاني: الطريق الوحيد للمعرفة

تمهيد:

نظراً لأهمية التفكير في حياة الناس، فإن الكتاب العزيز، القرآن الكريم، جاء حافلاً، ليس فقط بالآيات التي تحثّ المسلمين على تقليب النظر في ملكوت السموات والأرض، ليستدلّوا بذلك على وجود الخالق المبدع، بل جاء أيضاً بالآيات «التي تحثّهم على النظر في أحوال البشر، وبدايات خلق الأشياء»[1].

كذلك تحثّهم على النظر في تاريخ الأمم السابقة «وفحص حركة هذه الأمم، والعوامل التي أدّت إلى نهاية أجلها»[2]، وتحريك عقولهم، بقياس أحوالهم على أحوال تلك الأمم «حتى لا يعرّضوا أنفسهم لمثل ما تعرّضت له، من عقاب وتدمير؛ وأمرهم باكتشاف السنن العليا، التي تحكم حركة الإنسان، والكون، حتى يختصروا الجهد والوقت، وليجنّبوا أنفسهم التصادم معها»[3].

وهكذا فإن من أهم ما يهدف إليه القرآن: حثّ العقل الإنساني على التفكير والتدبّر، فيقول سبحانه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص/ ٨٧].

هذا بيان لشأن القرآن، وأنّه ذكر للعالمين فحسب، يذكّرون، به ومن خلاله، ما أودع اللّه قلوب جماعات البشر من العلم به وبآياته. فالقرآن للتذكير بما أنستهم إياه الغفلة، والإعراض، «فقد ينسون ويغفلون»[4]، وليس من الأمتعة، أو وسائل التكسّب التي تربح بها الأموال، أو تنال بها العزّة والجاه، «ولا

---

(١) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص١٦.
(٢) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص١٨.
(٣) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص١٦.
(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٣٠٢٨.

يختصّ بقوم دون قوم، حتى يؤخذ على تلاوته مال، وعلى تعليمه أجر، بل هو ذكر للجميع»[1].

«أذكر»: أشر إلى، إذا نسيت خاصة. وهل نفع التذكير إلا بعد نسيان؟ ذلك النسيان الآتي، بعد أن تطرد أشباح التقدّم المادي، من الذاكرة، صورة الحقيقة، عندئذٍ ينفع التذكير.

وقال تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

المطلب الأوّل: الكتاب العزيز: العزّة: حال مانعة للإنسان من أن يُغلَب، من قولهم أرض عزاز، أي صلبة[2].

والأرض المحكمة، وعدم القابلية للاختراق، والنفوذ، الحجر الصلب، سمّي «حجراً عزيزاً» عندما يكون غير قابل للنفوذ.

والأرض المحكمة، التي لا تقبل النفوذ، تسمى «أرض عزاز، فهي غير قابلة للاختراق»[3].

وعلى هذا، فإنّ الكتاب العزيز: كتاب لا يمكن دحضه، ولا انحراف فيه، «ولا يقبل النسخ، والإبطال، والتهذيب، والتغيير»[4].

وهذا ما من حقّه أن يكون! فإن ما ينزل من حضرة العزيز، هو العزّة؛ وما ينزل من حضرة الحكيم هو الحكمة.

«ووصف القرآن الكريم بالحكيم، دليل على عدم وجود نقطة ضعف فيه»[5].

فلا يمكن الوقوف أمام وحي اللّه بالشبهات العلمية، لأن جميع هذا الكتاب حكمة، ولا يمكن إطفاؤه بالدسائس، والقدرات الطاغية، «لأن كل آياته عزيزة،

(١) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٢٢٨/١٧.
(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٣٣.
(٣) آملي، جوادي: معارف القرآن من خلال الحواميم السبع، ص٧٤ ـ ٧٥.
(٤) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٣٢٢.
(٥) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

وغير قابلة للاختراق، ولا تستطيع أيّة قوة، مهما عظمت، أن تترك أثراً على حرم القرآن»[1].

المطلب الثاني: الإجابة الكاملة: إن الكتاب، الذي ينطق عن علم العليم الخبير، ويحمل عصارة تجربة الحضارات، يحوي الدواء الشافي، ويملك الإجابة، أقوى ما تكون الإجابة، إذ إن إجابته تحمل ضمناً حكم التاريخ، وحكم الحياة وسننها القاهرة.

«والقرآن الكريم خاتم الكتب السماوية، وامتداد لسنّة الله في الكون، وجميع الرسالات السماوية السابقة... ولا بد من التكشّف فيه، على ما يساعدنا على انتشال البشرية من الدمار»[2].

إذ القرآن الكريم، لم يتناول الجوانب المثالية والرفيعة، بالتحليل وإيضاح المواقف فحسب، بل سعى إلى الإشارة إلى الجوانب السلبية والمظلمة، التي تنشأ في الإطار الواقعي في الحياة؛ وتفرض نفسها على أرباب الرأي، وقادة المجتمع، وأفراده على حد سواء.

«فالهدف الرئيس للقرآن، هو: أن يوقظ لدى الإنسان وعياً أرقى، وأسمى بصلاته وعلاقاته الرئيسة»[3].

ومن خصائصه، أنه كتاب معجز، ومحفوظ، يسّره الله تعالى للذكر، ليفهمه ذوو الأفهام البسيطة والمتعمّقة، كلّ على مقدار فهمه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

---

(١) آملي، جوادي: معارف القرآن من خلال الحواميم السبع، ص٧٥.

(٢) غارودي، روجيه: من الإلحاد وإلى الإيمان، إعداد رامي كلاوي، دمشق، دار قتيبة، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٧.

(٣) محمد نجاتي: القرآن وعلم النفس؛ عن مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، ص١٩؛ والقول منسوب لمحمد إقبال.

فليس في القرآن ما تضيق منه الصدور، أو تشقى بمعرفته الأفهام.

«والقرآن شعبي، عام، دائم، وخالد. فما دام هناك أناس، فهم بحاجة إلى دليل، وقائد، في أي عصر ومصر كانوا؛ فلا اختصاص للقرآن بالعرب أو شعوب عصر الرسول فقط»[1].

المطلب الثالث: فضل القرآن على علم النفس الحديث[2]: ضمّ كتاب الإسلام المقدّس، بين دفتيه، رؤية ربانية للوجود والحياة والإنسان، صيغت بأسلوب الحكمة، والموعظة الحسنة؛ لتكون قريبة من أصحاب الأذواق المختلفة، والمشارب المتباينة من البشر، في كل زمان، وكل مكان.

ولقد جاء النص القرآني، ابتداءً، «لينشىء المقرّرات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصوّرات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم»[3].

ولقد كشفت أضواء العلم الحديث عن الحقائق، التي جاء بها القرآن الكريم. ولم تنجح، من أية ناحية، في الإساءة إليه، «بل إن جميع ما وصل إليه العلم الحديث، هو بمنزلة تصديق، لما أسماه الإسلام 'بالحقيقة الأخيرة' قبل أربعة عشر قرناً ويزيد»[4].

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت/ ٥٣].

وكذلك فإن الإسلام لم يجاف العلم في أي فترة من فتراته، بل كان، دائماً، يفتح صدره لمقرّراته.

---

(١) آملي، جوادي: معارف القرآن، ص٥.

(٢) إن علم النفس ليس علماً بالمعنى المتعارف عليه للعلم، بل لا تنطبق عليه شروط العلم الواجبة، وأهمها اليقين والموضوعية. ولا يتسنّى لأيّ كان من الناس أن يضع علماً للنفس الإنسانية التي يجهل حقيقتها. والكلمة الفصل في ذلك، إنما هي للقرآن الكريم. انظر: نايف معروف: الإنسان العقل، ص ٢٧٣ ـ ٢٩٥.

(٣) قطب، سيد: خصائص التصوّر الإسلامي، ص١٥.

(٤) خان، وحيد الدين: الإسلام يتحدّى، ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين، ص٢٢.

وفي ما يتعلّق بعلم النفس، فإن من يطّلع على مصادر العلم الحديثة، يخرج بانطباع عام مؤدّاه: أن كل ما في هذا العلم، هو غربيّ المنشأ والصياغة والفكر، سواءً نسبناه إلى فرويد، أو إلى غيره.

لكن، بعد الفحص والتدقيق، يتّضح أن كثيراً من أفكار علماء الغرب واكتشافاتهم، في الإطار العام لعلم النفس، قد تناولها القرآن الكريم. «فقد تناول القرآن مواضيع النفس، والسلوك، والعقاب، والثواب، والتعليم، والقدرات، والاتجاهات، والدوافع، وأنواع الاضطرابات، ومصادرها، وبعض أساليب العلاج النفسي، وغير ذلك»[1].

المطلب الرابع: الشخصية الإنسانية في نظر القرآن: لقد جاء في القرآن الكريم وصف للشخصية الإنسانية، وسماتها العامة، التي يتميّز بها الإنسان من غيره من المخلوقات.

«وجاء فيه أيضاً، وصف لبعض الأنماط، أو النماذج العامة للشخصية الإنسانية، التي تتميّز ببعض الخصائص الرئيسية، وهي أنماط عامّة وشائعة، في مجتمعنا وفي جميع المجتمعات الإنسانية عامّة»[2].

والإسلام، إذ يعرض للشخصية الإنسانية، فإن له نظرة مستقلّة، في النفس الإنسانية، تختلف عن غيرها اختلافاً أساسياً، وإن كانت في بعض الفروع والتفصيلات، «قد تلتقي، في بعض الأحيان، بغيرها من النظريات»[3].

فالإسلام يهتمّ بمجموعة الخصائص البشرية، التي أودعت الإنسان، بالفطرة. وينظر الإسلام إليه، وهو يلاحظ جميع قواه المحرّكة له، «مع حالة من المعرفة التامة بطاقاته، واستعداداته التي منحت له»[4].

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٥ ـ ٦.
(٢) مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، ص١٩.
(٣) قطب، محمد: الإنسان بين المادية والإسلام، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ط٣، ١٩٦٠. ص٨٠.
(٤) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٨٨.

ونظرة الإسلام، في تكاملها وتناسقها وشمولها لكل جوانب النفس وكل جوانب الحياة، «غير مسبوقة من الوجهة التاريخية. وما تزال حتى اليوم، بعد كل ما ظهر من النظريات، تنفرد وحدها بالشمول والعمق والاتزان»[1].

المطلب الخامس: الإنسان في نظر الإسلام: لدى النظر الفاحص لواقع الإنسان «ظاهراً وباطناً، نجد أنه يتكوّن من عناصر، بعضها مرئي محسوس، وبعضها مُدرك معلوم، وبعضها الآخر يُدرك وجوده من خلال أثره، ولا يُعرف ذاته.

وأوّل هذه العناصر، الذي لا خلاف بشأنه، هو: الجسد / البدن المحسوس. وأما العناصر الأخرى غير المحسوسة، فهي: الروح، والنفس، والعقل»[2].

وإن أهم ما يتميّز به الإسلام أنه يأخذ الكائن البشري، على ما هو عليه، لا يحاول أن يفسّره على ما ليس من طبيعته، كما تصنع النظم المثالية.

أ ـ **أما الروح**، فهي، في نظر الإسلام: سرّ لم يُطلع الله عليه أحداً من خلقه. قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وبالتالي، لا يعني الإنسان، وليس بمقدوره، أن يبحث في هذا الأمر، لا من قريب ولا من بعيد؛ فقد نُهينا عنه، وهو خارج دائرة المعرفة البشرية.

ولكن ما يمكن معرفته وملاحظته، بالحسّ والمشاهدة، هو مظهر الحياة في الإنسان. فنقول هذا الشخص على قيد الحياة. فإذا انعدمت هذه المظاهر فيه، حكمنا حكماً يقينياً أنه قد انتقل من عالم الحياة الدنيا، إلى عالم الآخرة[3].

ب ـ **وأما النفس**، فهي من الأسماء المشتركة بين معانٍ عدّة. وإذا كان

---

(١) قطب، محمد: الإنسان بين المادية والإسلام، ص٨٠.

(٢) معروف، نايف: الإنسان والعقل، بيروت، سبيل الرشاد، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص١٥٠ ـ ١٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٢.

العلماء والمفسّرون قد اختلفوا في تحديد جوهر ذاتها، فإنهم لا يختلفون في ما تتركه من أثر في سلوك الإنسان وتصرّفاته، كما أنهم لا يختلفون في أن النفس البشرية، من حيث النوع، واحدة.

والنفسيات المكتسبة كيفيات متعددة، بتعدّد الأمم والشعوب والقبائل والأفراد[١].

«أي أن ما فطره الله تعالى، في بني آدم، واحد عند الخلق، إن اختلفوا في الدرجة لا يختلفون في النوع؛ وأن هذا الاختلاف في الدرجة هو رحمة بالعباد، لكي يستخدم بعضهم بعضاً سخرياً. والذي بغيره لا تستقيم الحياة الإنسانية.

ثم إن العلماء والمفسّرين لا يختلفون في أن البدن هو وعاء هذه النفس، وهذا الاتفاق في ترابية الجسد، وفي نوع النفس البشرية، عند جميع الناس ـ رجلاً كان أم امرأة ـ هو أن كل فرد من أفراد بني آدم بحاجة حتمية إلى إشباع حاجاته الجسدية، لكي تستمر حياته إلى الأجل المحدّد له؛ كما أنه بحاجة إلى إشباع غرائزه النفسية»[٢].

وإذا كان من طبيعة الإنسان أن له حاجة إلى إشباع الحاجات الجسدية، والغرائز النفسية، فإن الإسلام ـ وفي الوقت الذي يقرّ له بذلك ـ «يعمد إلى تهذيب هذه الطبيعة، إلى آخر مدى مستطاع، دون أن يكبت النوازع الفطرية، أو يمزّق الفرد بين الضغط الواقع عليه، من هذا النوازع، وبين المثل العليا التي يرسمها له»[٣].

جـ ـ **أما العقل**[٤]، فإن أول ما يستوقف نظر الباحث، هو أن كلمة (العقل)

---

(١) معروف، نايف: الإنسان والعقل، ص١٣٦ ، ١٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥٣.
(٣) قطب، محمد: الإنسان بين المادية والإسلام، ص٨٠.
(٤) للاستزادة في موضوع العقل، يرجع إلى كتاب نايف معروف: الإنسان والعقل، الفصل الثامن والفصل التاسع.

هي مصدر لفعل (عقل). ونحن نعلم أن اسم المعنى (المصدر) لفظ يدل على (الحدث) مجرّداً عن الزمان والمكان، أي هو اسم لا وجود لذات له في الخارج.

فالحدث هو الأمر، الذي يقوم به الفاعل. إذاً ـ لغة ـ هو شيء اسمه (العقل) لأنه ليس له ذات، يقع في دائرة الحواس الخمس، ولا كيان له يعرف به، إنما يظهر أثره من خلال العناصر المكوّنة لهذا الحدث.

من هنا ندرك أنه ليس للعقل كيان ذاتيّ، يمكن أن تقع عليه حواسنا. ولكي نرى أثره، لا بد أن تتم عملية العقل (التفكير). وبالتالي، لا بدّ من توافر العناصر المكوّنة لهذه العملية. وهذه العناصر هي:

أ ـ (واقع) يكون موضوعاً للتفكير.

ب ـ انتقال هذا الواقع إلى الإنسان، وذلك من طريق حاسّة، أو أكثر، من الحواس الخمس، عبر قنوات الإحساس.

ج ـ دماغ يستقبل الواقع المحسوس.

د ـ معلومات سابقة مخزونة في الدماغ، لتفسير هذا الواقع الجديد، لكي يتمكّن الإنسان من إصدار حكم حول هذا الواقع (الموضوع).

وما لم يتحقّق وجود هذه العناصر الأربعة، فلن يتمكّن الإنسان من إتمام عملية التفكير، التي بانتهائها يتم (العقل) الذي تميّز به الإنسان عن سائر العجماوات.

ختام المبحث:

إن الإنسان، على ما هو عليه، فيه نفخة من روح الله. ولقد كرّمه الله على سائر مخلوقاته بهذه النفخة، فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص/ ٧٢]. وآثره بهذه الصورة، التي هو عليها، وهي أشرف الصور، وأوسعها

معنى، وأرفعها منزلة وقدراً؛ وهي التسوية، التي أشار إليها الوحي. وما بعد هذه الكلمة، من كلمة أخرى، تستعمل لتكريم الإنسان، وتقديره ثم لتعريفه.

فالقرآن الكريم «يرفع من مكانة الإنسان، ويعلي قدره، بما لم تصل إليه أية فلسفة، أو دين، أو مذهب اجتماعي»[1].

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٤١.

المبحث الثالث: الشخصية الكافرة

تمهيد:

مع أن للكفر تاريخاً قديماً في الأرض، كما للإيمان، كلاهما يرجع إلى الإنسان الأول، وكلاهما يرجع إلى الطبيعة البشرية ذاتها، في ازدواجها، وفي قابليتها للهدى والضلال، وللجاهلية والعرفان:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، ومع أن الناس يختلفون في دوافعهم، ولذا فهم يختلفون في مسالكهم، فمنهم المسلم والمشرك، والمؤمن والكافر. «ولو تشابهت الناس في دوافعها، واتجاهها، لأدى ذلك إلى تشابه سلوكهم بطبيعة الحال»[1]، فإن الكفر شيء من أعجب الأشياء، لا يكاد يتصوّره الوهم، أو يصدّقه العقل.

«إذ لا يمكن لأحدنا أن يتوهّم أن أناساً عقلاء صاحين، يعيشون عيشة كتلك، ويعتقدون عقائد كهاتيك، أعني يعبدون رجلاً منهم لا بل يعبدون الخُشُب المسندة، والأحجار، وما إليها من أصناف الحيوان والجماد؛ ويصوغون لأنفسهم خليطاً مشوّشاً من كل أضلولة وأبطولة، فيحسبونه فلسفة الكون»[2].

---

(١) القذّافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٥٢.

(٢) كارليل، توماس: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، بيروت، دار الرائد العربي، ط٣، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، ص٤ في المقدمة.
توماس كارليل: ١٧٩٥ ـ ١٨٨١، كاتب ومؤرّخ إنجليزي، درس اللاهوت في جامعة أدنبرة، ثم تحول إلى دراسة القانون في الجامعة نفسها؛ تفرّغ للبحث في الأدب والفلسفة اليونانية؛ كان من أبرز شخصيات عصره؛ آمن بالبطولات، وبالقيادة السياسية الفردية، الداعية لإصلاح المجتمع؛ وعرض آراءه في سلسلة محاضرات، نشرت بعنوان (في الأبطال): الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١٤٢٢.

ولكن، ومع ما أشير إليه من مستنكر المدهشات، فإن جولة من جولات البحث العلمي، حول أهل الضلال في الأرض، كافية لأن تضع أيدينا، والآن، على فرق كثيرة من الناس.

«ركبت رأسها، في الجهالة والغي، وتنكّبت سبيل الهداية، وتمادت في متاهات الضلال، ثم أمعنت في التعصّب، لما استمسكت به من باطل، وكشّرت عن أنيابها لافتراس الحق، حيثما وجدته، وللعدوان على أهله، بكل ما أوتيت من حيلة، وخبث، ومكر، وقوة»[1].

المطلب الأول: أسباب الخيبة: وليست هذه الخيبة، وهذا الاضطراب، إلّا لأنهم اختاروا الأوهام على الحقائق، ولم يستضيئوا بنور الحق، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، في صراط الحياة.

«بل استبدت بهم آثار التقاليد الموروثة، ومحنة المحاكاة، وبلاء الاستهواء، وشرّ الهوى، ونزعة الاستعلاء، وحمق العصبية القبلية، بما في ذلك، من تخلٍّ عن الذات، وتعطيل القوى المدركة فيهم، وفقدان الوعي لكيانهم الإنساني والحضاري»[2].

إن ألوان الخيال، التي ترتسم على أفكار الناس وآفاقهم، «تقذف بهم في بحر من الأمواج والاضطرابات؛ وإن أهدافهم الدنيئة، وآمالهم غير المحدودة، هي التي تخرجهم من النور إلى الظلمات، وتجعلهم في حيرة من أمرهم، في مأزق الحياة»[3].

والإنسان الذي هو أثمن البضائع، موجود مركّب من قوّتين متمايزتين، هما «القوة النفسية»، و«القوة الميكانيكية».

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٦٨٢.

(٢) الدريني، فتحي: مجلة الرصد الثقافي، تصدرها المستشارية الإيرانية ببيروت، العدد ٤٦ ـ ٤٧، آب/أغسطس ـ أيلول/سبتمبر ١٩٩٤، ص٢٦.

(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، تعريب محمد هادي اليوسفي الغروي، مطابع مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط٣، ١٤٠٥هـ، ص١٠.

بالإضافة إلى ما له من أوصاف، يشارك فيها الحيوان، من حيث المادّة، له حاجات معنوية كثيرة، إذا رأى متطلّباتها، بلغ بها كماله النهائي.

وكلما كان أحد هذين الجناحين، في الإنسان، أقوى من الآخر، كان الجناح الآخر، أقرب إلى الضعف والهزيمة أمامه[1].

المطلب الثاني: سمات الصنف الكافر الرئيسية: لقد صنّف القرآن الناس، من حيث تقبّلهم للوحي، أو رفضه «ودوافع التسليم له، أو التمرّد عليه، إلى عدّة أصناف، وأعطى لكل صنف حكمه الخاص»[2].

وبالنسبة للصنف الكافر، فقد أشار القرآن العزيز، في كثير من آياته إليه؛ ووصف الكافرين. وهناك سمات رئيسية، يتميّزون بها، تتلخّص في الآتي[3]:

أ ـ سمات تتعلّق بالعقيدة والعبادات: عدم الإيمان بالتوحيد، أو الرسل، أو اليوم الآخر، وعدم الإيمان بالبعث والحساب، والعبادة، من دون الله، لما لا ينفع ولا يضرّ.

٢ ـ سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية، والأسرية: الظلم، والعدوان على المؤمنين، في تصرّفاتهم، النهي عن المعروف، قطع صلة الرحم.

٣ ـ سمات خلقية: نقض العهد، الفجور، إيثار الشهوات، الغرور والتكبّر، الظلم، الكذب، عدم الوفاء بالعهود.

٤ ـ سمات انفعالية عاطفية: الكراهية للمؤمنين، والحقد عليهم، وحسدهم على ما أنعم الله به عليهم.

٥ ـ سمات عقلية ومعرفية: جمود التفكير، والعجز عن التفهّم والتعقّل، الختم والطبع على القلوب، التقليد الأعمى لمعتقدات الآباء وتقاليدهم، خداع النفس.

---

(١) اللاري: مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص١٠.
(٢) آملي، جوادي: معارف القرآن من خلال الحواميم السبع، ص٥.
(٣) محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص٢١٨ ـ ٢١٩؛ عن مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، ص٧٢.

ختام الفصل

فالإنسان، إذن، يراه الإسلام، مخلوقاً من قطبين متناقضين: الأول: الطين، والآخر: روح الله، وهذا هو سرّ عظمة الإنسان. «فهو كائن ذو بعدين، ومن ثَمّ، وبفضل إرادته، يتمكّن من أن يتّجه إلى بعده الأرضي، وينشدّ إلى قطب التراب والترسّب، أو ينطلق في بعده السماوي، ويصعد في قطب السمو الإلهي، والروح الإلهية. ويبدأ هذا الصراع والتجاذب، بين هذين القطبين، داخل الإنسان، حتى يختار أحدهما ويتقرّر مصيره»[1].

ويكون أسلوب الإنسان، في حلّ هذا الصراع، هو الاختيار الحقيقي، الذي وضعه الخالق سبحانه للإنسان في هذه الحياة. «فمن استطاع أن يوفّق بين الجانبين المادي والروحي، في شخصيته، وأن يحقّق بينهما أكبر قدر مستطاع من التناسق والتوازن، فقد نجح في هذا الاختيار، واستحقّ أن يثاب على ذلك بالسعادة في الدنيا والآخرة»[2].

وهكذا، فالإنسان، في نظر الإسلام، كائن، لا هو بالملاك، ولا بالشيطان، وإن كان قادراً، في بعض حالات الهبوط، أن يصل إلى درجة الشيطان من الشر؛ وفي بعض حالات الارتفاع، أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر.

«ولكنه في حالته الطبيعية، شيء بين هذا وذاك، مشتمل على الخير، كما هو مشتمل على الشر. وليس أي العنصرين غريباً عن طبيعته، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه»[3].

---

(١) شريعتي، علي: الإنسان والإسلام، ترجمة: عباس ترجمان، بيروت، دار الروضة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص١٥.

(٢) محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، ص٢١٨؛ عن مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، ص١٩.

(٣) قطب، محمد: الإنسان بين المادية والإسلام، ص٨٠.

الفصل الرابع

الجهل

المبحث الأول: النماذج البارزة للأحكام الجاهلة

تعريف:

الجهل ضد العلم[1]، والجهل على ثلاثة أضرب: الأول، هو خلوّ النفس من العلم. والثاني، اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، والثالث، فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يفعل[2].

أو، الجهل: ضعف العقل، وقبوله ما يلقى إليه من أفكار باطلة، إذ العقل نور في الروح الإنسانية، يعيّن لها مصيرها في الحياة، وهو بعدُ المعرّف للشخصية الواقعية، لكل إنسان.

إن العقل مصباح منير، يشعّ بأنواره على صفحات هذه الحياة المظلمة، فلا نتقدّم نحن في الدروب الملتوية، في هذه الحياة إلا بهدايته وإرشاده[3].

قال رسول الله: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»[4]. وقال: «أنا الشاهد على الله، أن لا يعثر عاقل إلا رفعه، ثم لا يعثر إلا رفعه، ثم لا

---

(١) الرازي: مختار الصحاح، ص١١٥.
(٢) الأصفهاني، الراغب الحسين بن أحمد: المفردات، ص١٠٢.
(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص١٣٥.
(٤) السيوطي: الجامع الصغير، ٢/ ٢٢٦٠، حديث رقم: ٦٢٢٩.

يعثر إلا رفعه، حتى يجعل مصيره إلى الجنة»[1]. وقال: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»[2].

وقد وصف الإسلام العقل بأنه: حجّة باطنة. فقد قال الإمام موسى الكاظم (رض): «إن لله على الناس حجّتين، حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة؛ فأما الظاهرة، فالرسل، والأنبياء، والأئمّة؛ وأما الباطنة، فالعقول»[3].

ويقول أمير المؤمنين علي (رض): «أفضل حظ الرجل عقله، إن ذلّ عزّه، وإن سقط رفعه، وإن ضلّ أرشده، وإن تكلّم سدّده»[4].

ولكن من الناس، من يتجاهل عقله، وأحاسيسه، وأفكاره، «فيقوده جهله إلى الفشل في اختياراته، وأحكامه»[5]!

ومن ليسَ يفتحُ للضياءِ عيونَهُ

هيهاتِ يوماً واحداً أن يُبصِرا

ومن النماذج البارزة للأحكام الجاهلة:

المطلب الأول: اتّباع الظن: تعريف: «الظن اسم لما يحصل عن أمارة. ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً، لم يتجاوز حد التوهّم... والظن، في كثير من الأمور، مذموم ولذلك: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾»[6].

كثيراً ما يقع الإنسان، أسيراً لظنونه وتخيّلاته وأوهامه، «إرضاء لدوافعه، واستجابة لضغوطها، وبخاصة في حالات الانفعالات الشديدة كالحزن،

---

(١) السيوطي: الجامع الصغير، ١/ ٣٦٥، حديث رقم: ٢٧٠٨.
(٢) المصدر نفسه، ٢/ ٢١٨، حديث رقم: ٦١٥٩.
(٣) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ١/ ١٦.
(٤) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، مجموعة من كلمات وحكم الإمام علي (رض)، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
(٥) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٣١٥.
(٦) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣١٧.

والغضب، أو اليأس، والخوف؛ ممّا يجعل قراراته غير صائبة وأفكاره غير حكيمة»[1].

وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء الكافرين، بأنهم من الجاهلين، يتّبعون الظن، ويتعاملون معه، كالتعامل مع العلم.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس].

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام].

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام].

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء/ ١٥٧].

«الخَرصُ: حِرزُ الثمرة... وكل قول مقول عن ظن وتخمين، يقال: خرص سواءً كان مطابقاً للشيء، أو مخالفاً له، من حيث إن صاحبه، لم يقله عن علم ولا غلبة ظن، ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين، كفعل الخارص في خَرصِه»[2].

إن ما يقرّره البشر، وما يرونه، إن هو إلا اتّباع الظن، الذي لا يقين فيه؛ واتّباعه لا ينتهي إلّا إلى الضلال، لأنهم يحدسون ويقدّرون، كالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به، إذ لا يقين منه. والظن والحدس لا ينتهيان إلّا إلى الضلال، فيما لا يقبل فيه الركون إلى الظن والتخمين، ويتوقّف عليه فوز الإنسان وفلاحه.

ويرتبط به هلاكه الأبدي، وخسرانه الدائم؛ ألا وهو النظر في العالم وصانعه، والغرض من إيجاده، وما ينتهي إليه الأمر، من البعث والنشور، وما يتعلّق به عن النبوة، والكتاب[3].

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٤٦.
(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص١٤٦.
(٣) انظر الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٧/ ٣٣١. الشوكاني: فتح القدير ٢/ ١٥٥. قطب، سيد: الظلال، ٨/ ٢٦.

وبصفة عامة، فإن الظن والهوى، هما عدوًا العلم. «فتوليد القطعيات من المقدّمات الظنية، ضعف في العلم. وسيطرة الأهواء على كيفية استخلاص النتائج والأحكام، ضعف في الإخلاص والنزاهة»[1].

والبناء على الظنّ بناء على أساس واهٍ، يجعل البناء القائم عليه في حكم المنهار، مهما كان شامخاً، بل إن كلفة إزالته ستكون باهظة، كلّما كان شامخاً أكثر.

والبعد عن الظن والتخمين، هو أهمّ خطوة على طريق الموضوعية، «وهي الخطوة، التي إن زلّت فيها القدم، لم يستقم ما بعدها من خطوات أبداً»[2].

ومن هنا جاءت النصوص الكثيرة، التي تحوط حسّ المسلم من كل جوانبه، بغية ترشيد الخطوة الأولى، وإحكام الأساس قبل اتخاذ المواقف، ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف].

نرى قوّة حجّة نبيّ الله هود عليه الصلاة والسلام، حين حوّل آلهتهم إلى مجرّد أسماء، لأن مسمّياتها لا حقيقة لها، فكأنها معدومة، لم توجد، بل الموجود أسماؤها فقط.

فهي لا تبلغ أن تكون ـ شيئاً ـ وراء الأسماء التي تطلق عيها. فما لها، إذن، من سلطان، ولا لكم عليها من برهان[3].

المطلب الثاني: النفي والإثبات دون دليل: إن المبدأ المهمّ في البحوث العلمية، هو أن لا نقبل شيئاً دون دليل، أو أن نرفض دون دليل.

والجاهلون يصدّقون أو ينكرون، من غير اعتماد على دليل أو برهان.

---

(١) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٣.
(٣) انظر: طبارة، عفيف: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص٨٩؛ الشوكاني: فتح القدير ١٨/٢؛ قطب، سيد: الظلال، ١٩٠/٨.

والقرآن الكريم يأخذ على كلّ هؤلاء الذين يخاصمون النبوّات، والرسالات السماوية، أنهم يدخلون معركة الحوار، دون سلاح، «لأنهم لا يملكون حجّة أو علماً، أو إحاطة بالموضوع، الذي يرفضونه، ممّا يجعل من جدالهم أو رفضهم، قضية مزاج، وعقدة نفسية تتحكّم بهم، فتدفعهم إلى اللف والدوران تارة، وإلى التكذيب بلا مبرّر تارة أخرى، الأمر الذي لا يؤدّي إلى أية نتيجة لحساب المعرفة، أو لمصلحة الحق»[1].

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام/١٤٨].

فالعلم يطرح الفكرة، ثم يناقشها ويحاكمها، ويتلمّس كل خطوطها وجوانبها، ليثبتها «بأدلّة منطقية مقنعة لأي عقل»[2].

أو ينفيها، إن كان هناك ما يوجب النفي، «من خلال ما يملكه الإنسان من وسائل المعرفة»[3].

والقرآن الكريم يرغّبنا في طلب البرهان، ويحذّرنا من أنماط التصديق والإنكار، غير المعتمدة على دليل. «والبرهان العلمي يقنع كل من يستطيع فهمه، في ضوء حالة العلم، في عصر معيّن؛ فالارتباط بين اليقين وبين البراهين ارتباط أبدي»[4].

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام/١١٩]. «فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم، بغير علم ولا اتباع»[5].

ويقول جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٣٧.
(٢) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٤٣.
(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٣٧.
(٤) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٤٣.
(٥) قطب، سيد: الظلال، ٢٨/٨.

فالآية تنهي عن اتّباع ما لا علم به[1]. «وفي ذلك إمضاء، لما تقتضي به الفطرة الإنسانية، وهي وجوب اتّباع العلم، والمنع عن اتّباع غيره. فإن الإنسان بفطرته الموهوبة لا يريد في مسير حياته، باعتقاده أو عمله، إلا إصابة الواقع، والحصول على ما في متن الخارج.

والمعلوم هو الذي يصحّ له أن يقول: إنه هو، وإن المظنون والمشكوك والموهوم، فلا يصحّ فيها إطلاق القول، بأنه هو»[2].

المطلب الثالث: السطحية: يشير علم النفس الحديث، إلى أن كثيراً من الناس، الذين يتّسمون بالسطحية، وبالتفكير العيني المحدود، «يسيرون في مثل هذا الاتجاه، لعدم قدرتهم على استخدام مستويات التفكير، المجرّد من عمليات التحليل، والمقارنة والاستنتاج، وغيرها من العمليات العقلية، للتوصّل إلى حقائق الكون، والتمييز بين مصادر الخير والشر»[3].

فامتلاك أدوات الحسّ، والفكر، لا يصلان بالإنسان، في كل الأحوال، إلى صنع القرار السليم، أو القيام بالاختيار المناسب.

والحواس الظاهرة، كالعين والأذن، وسائل للتعقّل. فإن لم يكمل التعقّل عملهما كانتا ناقصتين.

«إن العين ترى، ويقوم العقل بتفسير التأثيرات الحسّية، ومن ثَمّ يصدر الحكم، وإنما يمكننا أن ننتظر لعمل العين عملاً كاملاً، إذا ما صحبته بصيرة، أي إذا جاء التعقّل بعد عمل العين»[4].

وممّا ينسب إلى المسيح عليه الصلاة والسلام: «سراج الجسد هو العين، فإن

---

(١) الشوكاني؛ فتح القدير، ٣/٢٢٧؛ الطباطبائي: الميزان، ١٣/٩٢.
(٢) الطباطبائي: ١٣/٩٢.
(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٤٦.
(٤) مقالات المؤتمر الثاني للفكر الإسلامي في طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٣٦٥.

كانت عينك سليمة، كان جسدك كله منيراً، وإن كانت عينك مريضة، كان جسدك كله مظلماً. فإذا كان النور الذي فيك ظلاماً، فيا له من ظلام»[1].

المطلب الرابع: سطحية الكافر: في القرآن الكريم، آيات كثيرة، تؤكد أن العين، والأذن، لا تقومان، لدى بعض الأفراد، بالدور الحقيقي المتوقع منهما، وإن كثيراً من الناس يرون آيات الله في الطبيعة ويسمعونها؛ ولكن لا يعتبرون فيها.

أ ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس].

«لقد بلغ حال هؤلاء الخلائق، من الكفّار، في النفرة، والعداوة، إلى هذا الحدّ، يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا، وينظرون ولا يميّزون ما نظروا، لأن حواسّهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم، فلا يحصل أثر للسماع وهو حصول القبول والعمل بما يسمعونه.

لقد أعطاهم الله سبحانه الأسماع، والأبصار، والعقول، ليهتدوا بها، لكن كأنها معطّلة، لا تؤدي حقيقة وظيفتها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ قرينة على أن المراد بنفي السمع، نفي ما يقارنه من تعقّل، وما يدل عليه الكلام المسموع، وهو المسمّى بسمع القلب.

والمعنى: ومنهم الذين يستمعون إليك، وهم صمٌّ لا سمع لقلوبهم، ولست أنت قادراً على إسماعهم ولا سمع لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ﴾ الكلام فيها نظير الكلام في سابقتها»[2].

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، الترجمة العربية المشتركة من اللغة الأصلية، تصدرها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ببيروت، ط٤، ١٩٩٢، متى (٦: ٢٢ ـ ٢٣)، لوقا (١١: ٣٤ ـ ٣٦).

(٢) انظر: الطباطبائي: تفسير الميزان، ١٠/ ٦٨؛ الشوكاني: فتح القدير، ٢/ ٤٤٨؛ قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار العربية، ١١/ ١٥٠.

ب ـ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم].

إن الآيات إنّما تنفع، من له سمع واع، يسمع، فيتدبّر ما سمعه ويعقله، فإذا وجده حقّاً اتّبعه[1].

جـ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف/ ١٠١].

الغطاء: ما يجعل فوق الشيء، من طبق ونحوه.. وقد استعير للجهالة[2].

هذه استعارة، وليس المراد أن عيونهم على الحقيقة، كانت في غطاء يسترها، وحجاب يحجبها، إنما المعنى أنهم كانوا ينظرون، فلا يعتبرون، أو تعرض لهم العبر، فلا ينظرون.

إن عيونهم كانت تذهب صفحاً، عن مواقع العبر، فلا يفكّرون فيها، ولا يعتبرون لها، فيذكروا الله سبحانه، عند إجالة أفكارهم، وتصريف خواطرهم[3].

د ـ ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود/ ٢٤].

إن أوجه التشابه هي أن الله سبحانه، خلق الإنسان مركّباً من الجسد، ومن النفس، «وكما أن للجسد بصراً، وسمعاً، وكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر.

وكما أن الجسد، إذا كان أعمى وأصمّ، يبقى متحيّراً، لا يهتدي إلى شيء من الصالح، بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات، لا يبصر نوراً، ولا يهتدي به، ولا يسمع صوتاً، فكذلك الجاهل، الضالّ، المضلّ، يكون أعمى، وأصمّ القلب؛ فيبقى في ظلمات الضلالات تائهاً حائراً»[4].

وعلاجُ الأبدانِ أيسرُ خطباً حينَ تعتلُّ من علاجِ العقولِ

(١) قطب، سيد: الظلال، دار العربية، ١١/ ٦٥؛ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٦/ ١٦٧.
(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٦٢.
(٣) الرضي، الشريف محمد بن الحسين: تلخيص البيان، ص١١٢؛ الشوكاني: فتح القدير، ٣/ ٣١٥.
(٤) الرازي، الإمام الفخر: التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ٩/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

وهكذا، فالقرار السليم الصحيح، يستدعي توصّل الإنسان إلى حسن استخدام ما أنعم الله به عليه، من أجهزة حسّية وعقلية، بشكل واع «ذلك لأن الوعي الناضج، والاستبصار الحقّ، والإدراك السليم، تشكّل مجموع المحكمات التي تفرّق بين اكتمال الصحة النفسية، والاعتدال والاضطراب النفسيين.

فالملايين ممّن يعانون المشاكل النفسية، هم غالباً من الفئة التي حرمت من استخدام هذه النعم بشكل صحيح»[1]. فتظلّ «تنظر وكأنها لا ترى، وتبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة، ولكنها لا تدرك حكمتها، ولا تعيش بها ومعها»[2].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٣٣٢.
(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٧٥٩.

المبحث الثاني: الجدال

تعريف:

الجدل: الشدّة في الخصومة، أو اللدد فيها[1]. والجدال: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة. وأصله من جدلت الحبل، أي أحكمت فتله. وجدلت البناء، أي: أحكمته.

فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه[2].

وقيل: الأصل في الجدال: الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة[3]. ضربه فجدله: إذا ألقاه على الأرض.

ولم يرد لفظ الجدال أو الجدل، أو المجادلة، أو ما كان مشتقّاً منه في آي الذكر الحكيم، إلا في مطرح الذّم، ومعرض القدح والتعريض والتهجين، سوى أماكن متفرّقة، يغلب على أسلوبها اللين والهدوء والمحاورة، التي تمتلك وسيلة الإقناع، وقوة الحجّة والبيان[4].

كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/ ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت/ ٤٦]. وكقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة/ ١].

المطلب الأول: جدال المكابر: من المعروف أن الإنسان مخلوق اجتماعي، يحيا بعلاقاته الاجتماعية، وارتباطاته مع الآخرين؛ وأنه يتمتع بجانب خصوصي ذاتي، يجعله أنانيّاً إلى حدّ ما، «وذلك بنسب متفاوتة، بحسب عمليات التطبيع

---

(١) الرازي: مختار الصحاح، ص٩٦.

(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٨٩ ـ ٩٠.

(٣) المصدر نفسه؛ الموضع نفسه؛ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد: فقه اللغة وسر العربية، إيران قم، مطبعة إسماعيليان، ص١٩٧.

(٤) عضيمة، صالح: مجلة العالم، لندن، عدد ٢١١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٣٩. صالح عضيمة: أستاذ الفلسفة في جامعة السوربون، ونائب رئيس مركز الأبحاث العربية والإسلامية في فرنسا.

الاجتماعي التي يتعرّض لها الفرد، ومجموع الخبرات التي يمر بها، والتي يسخّرها الله لهداية من أراد، إلى سبيل الرشاد، وإرشاده إلى طريق الخير.

ويبدو هذا الجانب الذاتي، في مناقشات الإنسان وجدله، من أجل إثبات وجهة نظره، أو تأكيد رأيه، أو لبيان عدم رغبته في التحوّل عن اتجاهاته، حتى لو ثبت بطلانها»[1].

وفي هذا المعنى، تقول الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف]. والمناقشة الجدلية، لهذا النوع من الناس، لا تؤثر شيئاً، سوى أن تبدي جهل الطرفين، وخطأهم في البحث العلمي، وسوى اضطراب الفكر والخيال.

فصحيح أن العقل مصباح منير، «ضامن للصواب إن لم تتدخّل العناصر المعرقلة لعملية التفكير السليم، من هوىً مضلّ أو ظن بلا دليل، أو عقلية نمت في الخطأ فاستساغته»[2].

وصحيح أنه يهدي البشر في ظلم الجهل، ويرفع عنه أعباء مشاكله. وها نحن نفخر على سائر المخلوقات، بأنا ندرك الأمور وعللها، وأسبابها ونتائجها، وروابط بعضها مع البعض الآخر.

«ولكن الويل لنا وعلينا، لو أردنا أن نكشف عن حقيقته، بقوة البحث الجدل»[3]. وهذا هو الذي يحصل، من الجاهل المنقاد لكل دافع غريزي، ولكل هاجس، ولا يثبت على قرار، ولا يستقر على رأي.

إذ يرى علماء النفس أن الناس تختلف في مكوّناتها الشخصية، وطباعها المزاجية، «فالمتردّد، أو المعاند، أو المكابر، يعملون جميعاً على حماية شخصياتهم المضطربة، وآرائهم غير المتّزنة، وعلى تغطية ضعفهم، وعدم سداد رأيهم وتردّدهم، بستار من الحيل النفسية التي تأتي في شكل عناد ومكابرة، أو تسرّع وعدم تريّث، أو تشبّث بالخطأ، وعدم الاعتراف بغير رأيهم»[4].

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٦٣.
(٢) معروف، نايف: الإنسان والعقل، ص١٠١.
(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص١٩٠.
(٤) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٦٤.

ومن الملاحظ أنه كلّما سيقت إليهم أدلّة جديدة، وبراهين دامغة، ازدادوا عناداً، وصدّاً عن قبولها أو التصديق بها. وكأنّ الجدال عندهم عراك أو شجار، السلاح فيه هو الكلام والحجّة، غايته قهر الخصم، وإلزامه أوّلاً، ثم إظهار الحجّة ثانياً.

«وهو، بعبارة أخرى، نوع من الثأر والانتقام، عن طريق الكلام واستعمال الدليل والبرهان، وذلك حين لا يكون، عند أحد الطرفين، ميل إلى الاعتراف بالحقيقة، والنزول عندها. وقد يكون الحقّ بجانب أحدهما، فلا يعترف خصمه بذلك.

وكأن الاعتقاد السائد هو أن الجدال يصنع الحق، ويظهره كيف يشاء، وليس الحق هو الذي يفرض طبيعة الجدال»[1].

المطلب الثاني: جدال الكافر الجاهل في القرآن: يسوق لنا القرآن الكريم أمثلة متعددة لتأثير الدوافع على السلوك، عبر مختلف العصور.

وقد صوّر لنا القرآن الكريم ذلك، في غير آية، في نطاق حديثه عن الكافرين، الذين انطلقوا بالجدل، في طريق إضاعة الفكرة، وإنكار الحق، مما يجعلهم ينكرون الحق، وهم يرونه، ويهربون من الواقع، وهم يعيشون فيه.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر/ ٤].

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر/ ٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر/٥٦].

تأخذ المجادلة معنى المكابرة في وجه الحقّ، «لدفعه لا للدفاع عنه»[2]،

(١) عضيمة، صالح: مجلة العالم، عدد ٢١١، ص٣٩.
(٢) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٧/ ٣٠٥.

وللانصراف عنه إلى الباطل، تمرّداً واستكباراً، إذ حصر السبب الموجب لمجادلتهم «في الكبر»[1]. أي ليس عاملهم في ذلك طلب الحق أو الارتياب في آياتنا والشكّ فيها، حتى يريدوا بها ظهور الحق، «ولا حجّة ولا سلطان عندهم، حتى يريدوا إظهارها، بل الذي في صدورهم، وهو الداعي إلى الجدال، الكبر، يريدون به إدحاض (والدحض هو الإزالة)[2] الحق الصريح»[3].

ولا يكون إنكار الحق الصريح، وإغفال النور الظاهر المبين، «والتمويه بالباطل ليغلبوا به الحق»[4]، إلا من الانزلاق في هاوية الغفلة، «أو من اضطرام العمى، الذي لا تنفعه أمواج النور المنتشر حوله، من كل جهة وصوب»[5].

وفي هذه الآيات من المعنى ما يشير إلى أن هؤلاء المجادلين «يعرفون الحقّ حقّاً، ويصرّون على رفضه وإنكاره؛ ويعرفون الباطل باطلاً، ويغالون في قبوله، وحمايته والدفاع عنه»[6]؛ وذلك «من غير حجّة يحاولون بها، ولا برهان يصدعون به، إنما هو ذلك الكبر وحده»[7].

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام/ ١٢١].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام].

تلك إشارة بيّنة، ودلالة واضحة على أن المجادلة «هي فن من فنون الوسوسة التي يلقي بها الشياطين على أوليائهم ومقرّبيهم «من المشركين»[8]، لعلهم

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٧/ ٣٤١؛ قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٣٠٨٨.
(٢) الأصفهاني، الراغب الحسين بن أحمد: المفردات، ص١٦٥.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٧/ ٣٤٢.
(٤) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٣٠٧٠.
(٥) عضيمة: صالح: مجلة العالم، العدد ٢١١، ص٣٩.
(٦) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٧) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٣٠٨٩.
(٨) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٧/ ٣٣٣.

يخطفون بها من هم على جرف هارٍ، ويزلقون من يمشون على ديانتهم واعتقادهم، قلقين، مضطربين»[١].

ذلك بأن يصوّروا لهم أن هذا الوحي، الذي هو القرآن، «ليس إلا نسخة، تردِّد ما عند الكتب الأخرى من أوهام، وأباطيل، وخرافات»[٢].

فيقدمون على مجادلة الرسول، «وهم في صفة تتقزّز منها النفس البشرية»[٣]. معطّلي الإدراك، مطموسي الفطرة، معاندين مكابرين»[٤]. لذلك، «فالموقف من أيِّ آية معروف من قبل، ولا منطق إلا الجدال»[٥].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحجّ].

نرى في الآية السابقة صورة من سيطرت عليهم دوافعهم، فقادتهم إلى الدعوة إلى الانحراف، دون أن يعملوا عقولهم، أو أن يستخدموا ما بين أيديهم من حقائق وبراهين وأدلّة، للتوصّل إلى الحقيقة الدالّة على وحدانية الله، «وبغير حجّة يصح الركون إليها، بل عن تقليد»[٦] واكتفاء بالاعتماد على ردود أفعالهم الانفعالية، «التي تمثّلت في الآراء الشخصية، والاتّجاهات الخاطئة، التي قادتهم إلى المعارضة والمكابرة»[٧]، وذلك عناداً وتعنّتاً «بعد ظهور الحق، وقيام الدليل عليه»[٨].

---

(١) عضيمة: صالح: مجلة العالم، العدد ٢١١، ص٣٩.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٣٣١.
(٤) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ٧/ ١٥٥.
(٥) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٣٣١.
(٦) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن ١٦/ ٢٢٩.
(٧) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٤٦.
(٨) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٥/ ٢٤١.

ويبدو هذا الفريق من الناس، الذي يجادل في حقيقة الله، منحرف الفطرة، «ولا يستجيب لداعي الكون كلّه من حوله... ويزيد موقفه بشاعة، أنه لا يرتكن في هذا الجدال إلى علم، ولا يهتدي بهدي، ولا يستند إلى كتاب ينير له القضية ويقدم له الدليل»[1]، بل يؤسّس محاورته على الجهل، والإصرار على الضلال، ويبنيها على الكلام الخالي من الحجّة، ومن المحجّة.

وليس عند هؤلاء القوم، في جدالهم، إلا العناد «والإغراق في الباطل والأوهام، ولا يملكون إلا الاعتقادات المنحرفة المعلولة، التي تظهر بأساليب مثلها منحرفة معلولة»[2].

المطلب الثالث: المراء: المريّة: الشك[3].

المريّة: التردّد في الأمر، وهو أخصّ من الشك[4].

والمراء من أهم المعاني، التي يثيرها الجدل ويشغل بها، وهو يعني: المنازعة والخصومة في الكلام، أثناء المحاورة، «أو هو الجدال بعينه، حين ينتقل عن أصله، وفصله، اللذين هما اللين والإقناع، إلى الفظاظة والمكابرة»[5].

أخرج الترمذي عن رسول الله قال: «ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[6]. أي: كان الجدل سبب ضلالهم، ونقلهم من النور واليقين، إلى الظلمة والحيرة، والضلالة. «ويراد بهذا الجدل: الملاحاة التي تقع بين

---

(١) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٧٩٣.
(٢) عضيمة، صالح: مجلة العالم، العدد ٢١١، ص٣٩٠.
(٣) الرازي: مختار الصحاح، ص٦٢٢.
(٤) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٤٦٧.
(٥) عضيمة، صالح: مجلة العالم، العدد ٢١١، ص٣٩.
(٦) الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى: سنن الترمذي، سوريا، حمص، مطبعة الفجر، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م، ٦/٩، حديث رقم ٣٢٥٠.

الناس»[1]. أخرج الترمذي عن رسول الله قال: «... من ترك المراء، وهو محقّ بني له في وسطها (أي الجنة)»[2].

وقال: «لا تمارِ أخاك»[3].

وقد أورد صاحب الكافي، عن الإمام جعفر الصادق (رض): «لا تمارين حليماً، ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك، والسفيه يؤذيك»[4].

ويقول الإمام علي (رض) في ذلك: «إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلوب، على الإخوان، وينبت عليهما النفاق»[5].

المطلب الرابع: الغفلة[6]: إن آيات الله مثبوتة في الكون، وإن بعضاً من هذه الآيات، يُكشف للإنسان بمجرّد الفكر، وأخرى بمجرّد العقل. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد].

والذين يرون الآيات الكونية، فلا تحرّك فيهم قلباً يتدبّر، ولا عقلاً يتفكّر، «لن يسلكوا طريق الكمال البشري»[7]، بل «تتعلّق هممهم بالحياة الدنيا المحدودة»[8]، «وتسكن نفوسهم إليها وتفرح بها»[9]؛ «فلا يتفكرون بآيات الله الكونية»[10].

---

(١) عضيمة، صالح: مجلة العالم، العدد ٢١١.
(٢) الترمذي: سنن الترمذي، ٢٠٨/٦، حديث رقم ١٩٩٤.
(٣) المصدر نفسه، ٢٠٨/٦، حديث رقم ١٩٩٦.
(٤) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ٣٠٠/٢.
(٥) المصدر نفسه، ٣٠١/٢.
(٦) الغفلة: سهو يعتري الإنسان، من قلّة التحفّظ والتيقّظ. انظر: الراغب الأصفهاني: المفردات، ص٣٦٢.
(٧) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ١١١/١١.
(٨) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ١٤/١٠.
(٩) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ٤٢٦/٢.
(١٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤٠٧/٢.

وهذا الوقوف عند حدود الدنيا، وارتضائها، يظل يهبط بأصحابه، ثم يهبط لأنهم «لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة، ولا يتطلّعون بأبصارهم إلى أفق، إنّما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائماً، إلى هذه الأرض وما عليها، غافلين عن آيات الله الكونية، التي توقظ القلب وترفع الحس، وتحفز إلى التطلّع والكمال»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس].

فالغفلة، إذن، هي المانع والحائل دون رؤية هذه الآيات المبثوثة. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

لقد أزلنا عنك غطاءك أو حجابك، فأصبحت تبصر «بوضوح وعين حادّة كل الأشياء، والآية تقول: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ﴾. وهذا إنما يتصوّر أن هناك أمراً موجوداً مغفولاً عنه، لم ينتبه إليه، ولم يحسّ به، وإلّا لا يسمى ذو غفلة»[2].

والغطاء يستلزم أيضاً أمراً وراءه، وهو يغطّيه ويستره. ولما كان الإنسان في الدنيا، «متعلّقاً بذيل الأسباب، فقد غفل عن هذا الذي يراه الآن، إذ إن: «انتباه العيون، لا ينفع مع غفلة القلوب»[3]. وهذا الإنسان الغافل، «هو الكافر»[4].

قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون] وقال جل شأنه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾[5] [المؤمنون/ ٦٣].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ١١/ ١١٢.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٨/ ٣٥٠؛ آملي، جوادي: الثقافة الإسلامية، العدد ٤١، ص١١٠.

(٣) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم ١/ ١١٥.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٢٥؛ الشوكاني: فتح القدير، ٥/ ٧٦.

(٥) الغمرة: معظم الماء الساترة لمقرها، وجعل مثلاً للجهالة، التي تغمر صاحبها. وأصل الغمر: إزالة أثر الشيء. والمراد هنا، الغطاء والغفلة، أو الحيرة والعمى، انظر: الرضي، الشريف محمد بن الحسين: تلخيص البيان، ص٧٥؛ الأصفهاني، الراغب الحسين بن أحمد: المفردات، ص٣٦٥.

هذه استعارة، والمراد بها أن القوم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: «في حيرة، أو في غفلة شديدة، أو جهل شديد عن هذا القرآن الكريم، أو عن هذا الذي وصفنا به المؤمنين»[1].

وهكذا فإن من شأن الغفلة أن: «تكسب الاغترار، وتدني من البوار»[2].

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٩؛ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن ١٥/ ٤٤؛ الشوكاني: فتح القدير، ٣/ ٤٨٩.

(٢) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم، ١/ ١١٥.

ختام الفصل

إن الجهل مطيّة شموس، من ركبها زلّ، ومن صحبها ضلّ[1]، وإن الجاهل صخرة لا ينفجر ماؤها، وشجرة لا يخضرّ عودها، وأرض لا يظهر عشبها[2].

وإن الذهن المغلق يجهل ما يقال، ويعادي ما يجهل، وينفر من كل ما يشقّ عليه.

وأول ما يشقّ عليه أن يفهم شيئاً على وجهه السويّ، أو يتهيّأ للفهم بأية حال[3].

(١) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم ١٢/ ١٠٣.
(٢) المصدر نفسه ١٢/ ١١١.
(٣) العقاد: عباس محمود: العبقريات الإسلامية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧٤، ١/ ٢٦٤.

الفصل الخامس

الحسد والجبن

المبحث الأول: الحسد

إنه مظهر لإحدى الغرائز، التي تبدو كشهوة منحرفة عن سيرها المعتدل، فتأسر الوجدان، وتمنع الإنسان من الوصول إلى آماله الواقعية.

تعريف:

الحسد: أن تتمنّى زوال نعمة المحسود إليك[1]، أو هو: تمنّي زوال نعمة من مستحقّ لها، وربما كان ذلك مع سعي لإزالتها، ويروي: «المؤمن يغبط والكافر يحسدُ»[2].

والحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة، فيتمنّى أن تزول عنه، وتكون له دونه[3]، وهو مرض خبيث من أمراض النفوس، يغري صاحبه بغمط الحق وإنكاره والجحود به، مهما كان مؤيّداً بالحجج والبراهين[4].

والحسد: إعجاب اللئيم عند شعوره بالعظمة، أو هو التحية التي يؤدّيها اللئيم إلى العظمة، بحسب ما عنده من التواء أو ارتكاس[5]. وهو المرتبة الدنيا

---

(١) الرازي: مختار الصحاح، ص١٣٥.
(٢) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص١١٨.
(٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: تلبيس إبليس، ص٣٠.
(٤) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية، ص٦٩٢.
(٥) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية، ١/٢٢٢.

للنفوس، التي استباحت حرمات الله، واتّبعت أهواءها، وارتكبت المعاصي، ولم تستجب لداعي الحق[١].

والحسد: مصدر رهيب من مصادر تعاسة الكثيرين من الناس[٢].

المطلب الأول: الحسود: قد يصاب المغرور، بصفات من سوء الخلق، كالحسد، الذي يبسط رداءه عليه، من قرنه حتى قدمه، فنراه دائماً حاسداً مؤملاً خيبة الآخرين: «فالحسود لا يستطيع أن يرى أحداً في كنف الرفاهية»[٣]. فإذا رأى غيره أفضل منه، امتلأ قلبه بالغيرة، «وأحسّ بثقل وضغط شديدين، ناشئين من نظره المتشائم إلى نعم الآخرين»[٤]. فهو «معذّب النفس، متضاعف الهم»[٥].

ويشعر بهذا الإحساس، بصورة أليمة، لا تحتمل عادة، بحيث تبعث فيه ـ تسلّط عليه ـ روح العداء، وتجعل الهدف، من جميع مساعيه، الغلبة على خصمه. والخلاصة أن أهداف الحياة تخرج عن كونها أهدافاً، بل يصبح الهدف النهائي للحسود انتكاس الخصم وهزيمته. «وحين يغلب عامل التخريب على أعماله، فإن قواه الجسمية، والفكرية، تذهب هدراً»[٦].

يقول الإمام علي (رض): الحسود دائم السقم، وإن كان صحيح البدن[٧].

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص١١.

(٢) برتراند رسل يتحدث عن مشاكل العصر، ترجمة مروان الجابري، بيروت، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٢، ص٢١٢.
برتراند رسل: فيلسوف إنكليزي، أسهم خصوصاً في فلسفة الرياضيات، والمنطق الرياضي، ترجع شهرته إلى مواقفه، وكتاباته السياسية. أنظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ١/ ٥١٧؛ الموسوعة العربية الميسرة، ١/ ٧٦٧.

(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشكلات الأخلاقية والنفسية، ص٩٤.

(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٥) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم، ١/ ١٠٢.

(٦) اللاري: مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٢٧٠.

(٧) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم، ١/ ١٠٢.

ويقول: العجب لغفلة الحسّاد عن صحة الأجساد[١]. ونقل عن سقراط أنه قال: «إن الحسود يهزل ويضعف من سمن الآخرين»[٢].

المطلب الثاني: هدف الحسود: إن هدف الحسود، هو نعمة الآخرين؛ وهو يسعى لإزالتها عنهم بشتى العناوين والحيل، «وأينما حصل على فرصة مناسبة، أشبع في نفسه تلك الشعلة الحارقة، الموجودة في نيته، بأية وسيلة ممكنة»[٣]. وهو في هذا العمل فريسة «لإحساسه الدنيء، من دون أي التفاتة وتحقيق»[٤].

فالحسود لا يجد، في نفسه، أي وازع وجداني عن ارتكاب أية جريمة، مهما كانت، إذ اقتلع الحسد شجرة الفضائل من نفسه، من الجذور.

المطلب الثالث: وسائل الحسود: يكشف الحسود، أحياناً، عن نفسه الخبيثة، بإشاعة التهم والأكاذيب عن المحسودين. فإذا لم يرتوِ هواه، ورأى أن القدر يعاكس إرادته، فإنه يغضب حتى على القدر.

ولا يبعد، حينئذ، أن يتجاوز على حريات المحسودين، وحتى على أرواحهم، فيحطمها في سبيل ميوله غير المحدودة.

إن الحاسد لعلى استعداد أن يحرق السوق، نقمة لضياع منديله؛ وإنه، وإن كان في الظاهر مؤدّباً ومهذّباً، وذا طبع لين، فإن «بحراً موّاجاً، من نيران الحقد والانتقام، يعتمل في صدره.

وإن هذا البحر يفور فوران البركان، عند أول فرصة ممكنة، فيحرق الرطب واليابس، والعدوّ والصديق»[٥].

---

(١) نهج البلاغة، ضبط: صبحي الصالح، ص٥٠٨.
(٢) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص٩٤.
(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٢٧٠.
(٤) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص٩٤.
(٥) المصدر نفسه، ص١٣٠.

فالرجل: «قد يكون ناعماً، وهو منطوٍ على العنف والبغضاء؛ ويكون الرجل خشناً، وهو أعطف خلق الله على الضعفاء»[1].

المطلب الرابع: كلمة: وهكذا، فليس الحسود خارجاً عن نطاق الإنسانية فحسب، بل هو أذلّ من الحيوانات، وأدنى مرتبة، «فإن من لا يتفكّر في آلام الآخرين، لا يكون من المتّصفين بالصفات الواقعية للإنسان، فضلاً عمّا إذا استبشر بحرمان الآخرين، من نعمهم، وعدّ ذلك انتصاراً.

إن الحسد يعلن، بوجهه الكريه، فناء الصفات الخيّرة، والملكات الفاضلة[2]. ويقول أكثم بن صيفي، وقد عاش في الجاهلية، وأدرك الإسلام: «لن يعدم الحسود، أن يتعب قلبه، ويشغل فكره، يؤرّث غيظه، ولا تجاوز مضرّته إلا نفسه»[3].

المطلب الخامس: الحسد: الذنب الأول: لقد كان الحسد أول ذنب عصي الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض[4].

أما في السماء فحسد إبليس؛ يقول الإمام جعفر الصادق: «الكفر أصله الحسد»[5].

وأما في الأرض، فحسد قابيل هابيل؛ قال تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة/ ٢٧ ـ ٢٨].

---

(١) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية، المجلّد الأول/ عبقرية عمر.
(٢) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص٩٥.
(٣) موسى، محمد يوسف: فلسفة الأخلاق في الإسلام، القاهرة، مطبعة الرسالة، ط٢، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، ص١٧.
(٤) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص٥٥.
(٥) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المعين، بيروت، دار الجواد، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٥١٢.

الصراع لم يكن بين قابيل وهابيل، ولكن الصراع كان بين قابيل ونفسه الأمّارة بالسوء؛ وبينه وبين النوازع الشريرة، والإرادات الخبيثة. «وكان الواجب أن يعمد قابيل إلى هذه الأهواء، فيكبح جماحها، ويتخلّص من أسرها، ولكنه عجز أمام ضعفه، وطغيانه، وشهواته»[1].

وأنشب الحسد مخالبه في قلبه، فسلبه عاطفة الأخوّة الإنسانية، فحطّم بالصخرة رأس أخيه، وخضّب الجسد المقدّس بدمائه، لا لشيء «إلا لأنه أخلص في نيته، وكان طاهراً في عمله»[2]. وهذا «من أعنف ضروب الحسد»[3].

المطلب السادس: حسد أهل الكتاب: الحسد من الصفات الذميمة، التي تجرّ وراءها أنواع المفاسد؛ ومن أسوأ هذه المفاسد: الكفر.

ويذكر القرآن، في مواضع متعدّدة، أن السبب، الذي حال دون قبول كثير من المشركين، وأهل الكتاب للإسلام، هو: الحسد.

أ ـ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام].

مع «أن الرسل كلّهم، بشّروا بوجود محمد (ص)، ونعته وصفته ومهاجره، وصفة أمته؛ ومع أن هذه الأخبار والأنباء عن المرسلين، موجودة عند بني إسرائيل، حتى إن يهوداً يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم، إذ يرون انطباق صفات النبي الموعود عليه.

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح: الأنبياء ص٥٥.

(٢) اللاري، مجتبي الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص٩٦.

(٣) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٥٥.
قابيل: أكبر أولاد آدم وحواء، قدم لله قرباناً من ثمار زرعه ولم يقبل، في حين قدّم أخوه هابيل قرباناً من سمان غنمه فقبل، فحنق قابيل على أخيه وقتله، واستحق لعنة الله (تكوين ٤). وردت القصة أيضاً في القرآن أيضاً، سورة المائدة، الآيات ٢٧ ـ ٣١. انظر: الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/١٣٥٩.

أو يعرفون أن الإسلام هو النظام الحق، الذي ينبغي أن يطبّق؛ وأنه لا تقاوم نور الإسلام سخافاتهم المتبقية.

فالإسلام، بما فيه من سلطان وقوة، ومن خير وصلاح، ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها، وبالأخلاق التي تنبثق منها، وبالنظام الذي يقوم عليها، يجعلهم يحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله، ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم، وتسع أهل هذا الدين!

إن أهل الكتاب يعلمون جيداً هذه الحقيقة في هذا الدين، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. وإن الواقع التاريخي، من خلال أربعة عشر قرناً، ينطق بحقيقة واحدة... هي هذه الحقيقة، التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ «ولكنهم رغم ذلك، كفروا به، لأنه من العرب»[1].

وإن كثيراً من مفكّري وفلاسفة وعلماء أهل الكتاب، لينطقون بهذه الحقيقة، وسنعرض لشيء من ذلك، بإذن الله وعونه، في مؤلَّف آخر.

ب ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة/ ٨٩ ـ ٩٠].

البغي: التعدّي والتجاوز، وبغى الجرح: تجاوز الحدّ في فساده، وبغت المرأة بغاءً، إذا فجرت؛ وذلك لتجاوزها ما ليس لها[2].

لقد حسد جميع اليهود، إلا من دخل في الإسلام منهم، العرب، حين أرسل

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ٢/ ١٢٦. قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ٧/ ١٥٠ ـ ١٥١. التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٣٠.

(٢) انظر: الأصفهاني، الراغب الحسين بن أحمد: المفردات، ص ٥٥ ـ ٥٦. الشوكاني، محمد ابن علي: فتح القدير، ١/ ١١٢. الرازي: مختار الصحاح، ص٥٩٢.

الله منهم النبيّ المنتظر، المبشَّر به في التوراة، والذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، وهدّدوا أعداءهم من العرب بظهوره، وربما سألوا الله النصرة بحقّه، أو ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم.

فلما ظهر كفروا به بغياً وحسداً، لأنه كان من غيرهم، وأنكروا ما كانوا يذكرونه، فعادوا بالخسران المبين، والغضب الإلهي المضاعف، والعذاب المهين المذلّ[1].

جـ ـ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة/ ١٠٩].

لم يكن الحق خافياً على اليهود، فلقد أضاء لهم الحق، حتى لم يعودوا يجهلون منه شيئاً، «فالرسول الأميّ يخبرهم بما في أيديهم، من الكتب والرسل والآيات. ثم يصدّق بذلك كله مثل تصديقهم، كما يقول ابن عباس (رض)[2]».

ولكن ما اشتمل عليه اليهود من حسد للرسول وللمؤمنين «والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس، الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين»[3]، على الرغم من علمهم بأنه الحق المنطبق، مع بشارات كتبهم، تسبّب في هلاكهم أي هلاك.

إن حسدهم لم يدفعهم إلى الجحود والنكران فحسب، «ولم يعمهم عن اتّباع الخير فحسب»[4]، بل إنهم جهدوا أن يردّوا المؤمنين إلى الكفر، «وأن يسلبوهم عزّهم العقائدي بشتّى السبل من شبه وإغراءات مختلفة»[5]، «والتشكيك عليهم في دينهم»[6]، بعد أن غاظهم فضل الله على هؤلاء الأمّيين.

---

(١) انظر: حبنكة، عبد الرحمن: العقيدة الإسلامية، ص٦٩٢ ـ ٦٩٣. قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ١/ ١١٢. الشوكاني: فتح القدير، ١/ ١١٢. التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٤٣.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ١/ ١٥٣.

(٣) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ١/ ١٣٤.

(٤) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٥٠.

(٥) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٦) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ١/ ١٢٨.

وذلك ما يفعله «الحقد اللئيم بالنفوس.. الرغبة في سلب الخير، الذي يهتدي إليه الآخرون.. لماذا؟ لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم.. ولكنها لأنها تعلم»[1].

المطلب السابع: حسد القريب: لم يكن كفّار العرب أحسن حالاً من اليهود، فقد صرع الحسد كثيراً منهم، فكفروا بالله ورسوله.

وفي قصة استماع أبي جهل[2]، حين جاء يستمع قراءة النبي (ص)، هو وأبو سفيان بن حرب[3]، والأخنس بن شريق، يتبيّن أن ما أردى أبا جهل[4] في هاوية الضلال والخسران، إنما هو الحسد، حسده، كوجيه من بني مخزوم، للرسول، المنتسب إلى عبد مناف.

«جاء الأخنس، وسأل أبا جهل، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك في ما سمعته من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسَيْ رهان. قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه.

---

(١) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية ١/ ١٣٤.

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية، تقديم وتعليق وضبط: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٥، ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦. تفسير ابن كثير ٢/ ١٣٠؛ الصيمري، الشيخ مجيد: في ظلال السيرة المطهرة، لبنان، بيروت، دار الزهراء للطباعة، ط١ ١٤١٠هـ/ ١٩٩١م، ١/ ٧٥.

(٣) أبو سفيان: صخر بن حرب، تاجر واسع الثراء، وزعيم أشراف قريش الذين عارضوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ودعوته؛ عادى الإسلام والمسلمين، وكان على رأس غزوتي بدر وأحد، واشترك في حصار المدينة في غزوة الخندق، هادن المسلمين في صلح الحديبية، أسلم عند فتح مكة؛ انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ١/ ٣٤.

(٤) أبو جهل: عمرو بن هشام: ويكنّى أبا الحكم: من أشراف قريش وأغنيائها، كان ألدّ أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأكثرهم تحرّشاً به، همّ يوماً بقتله وهو يصلّي، أشار بأن تشترك قبائل قريش في قتله ليلة هجرته، كي يتوزّع دمه، اشتدّ في إيذاء المسلمين، وقتل يوم بدر. انظر: الموسوعة العربية الميسّرة، ١/ ٣٢.

فلا جرم أن بني مخزوم، يأخذون الأمر، مأخذ الأنفة، والخنزوانة[1]، بينهم وبين بني عبد مناف، حين تظهر النبوّة في هؤلاء، ولا تظهر فيهم»[2].

(١) الخنزوانة: بوزن الأسطوانة، التكبر، يقال: ذو خنزوانات؛ انظر: الرازي: مختار الصحاح، ص١٩١.

(٢) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية، ٣/ ٢٦٢.

المبحث الثاني: الجبن والذلّة والتبعية

ذمّت بعض الآيات الكريمة الجبن والفرق، وجعلت الجبن منافياً للإيمان، لأن الجبن يقف حجاباً، يحول بين الخائف والإقرار بالحقّ، حين يقتضي الحق جرأة أو تضحية.

ذلك لأن الجبن حذر مفرط، وتردّد وإحجام. ولذلك تجد الجبناء في الصفوف الأخيرة في المجتمع، سلبيين خاسرين. وقلّ أن تجد جباناً ربح معركة، أو بنى مجداً، أو عاد إلى مجتمعه بخير.

يقول عمر (رض): «إن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمّن لا يعرف، ويفرّ الجبان من أمه»[1].

تعريف:

الجبن: ضعف القلب عمّا يحقّ أن يقوى عليه[2]. وهو غير الخوف، إذ إن الخوف «يعدّ من الغرائز الأساسية، وهو جزء من الكيفيات البديهية، لأي موجود حيّ، تعرض له هذه الحالة، حينما يواجه خطراً، في كفاح الحياة»[3].

وهو على هذا النحو مفيد لاستمرار الحياة، إنما هو فيما إذا لم يخرج عن حدّ الاعتدال. «أما إذا أفرط فيه، فهو مضرّ قطعاً»[4].

المطلب الأول: منشأ الجبن:

أ ـ الأوهام: يأتي الجبن في مقابل الشجاعة، ويرجع إلى وضوح رؤية المخاوف المرتقبة، في التصوّر، ولو على سبيل التوهّم: توهّم التعاسة، والشقاء، والألم، قبل وقوعه، مع ضعف أو عدم وجود القناعة الخاصة، التي تهوّن المخاوف المرتقبة.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ١/ ٣١١.
(٢) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص٨٧.
(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٣٥٧.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٨.

فهو نوع من مرض نفسي، مؤلم ومعذّب يوهن الذهن، ويضعف الفكر، مع برود الانفعال الغضبي، وضعف انفعال التنافس والتحدي. وقد دلّت دراسات الأخصّائيين على أن كثيراً من الناس، يفتقدون سلامة أنفسهم بأثر من هذا العامل.

فكثيراً ما رأينا أن أزمات الخوف الشديد، أصبحت سبباً لموت الفجأة، إذ من الممكن لخوف فجائي أن يزلزل نظام دورة الحياة في الإنسان، فيوقف حياته.

وقد تزداد نسبة الجبن بعوامل فطرية، يكون بها القلب سريع التأثّر بالمخاوف، أو بتصوّراتها، ولو كانت أوهاماً غير واقعية[1].

ب ـ الحرص على الحياة: وبالإضافة إلى عوامل الأوهام والعقد النفسية، التي يمكن أن تعدّ فرعية، توجد عوامل للجبن، ترجع في معظمها إلى حرص الإنسان على الحياة.

وكلما كان الإنسان أشدّ حرصاً على الحياة، «كان أشد جبناً وضعفاً وخوراً؛ أو ترجع هذه العوامل إلى خوف الإنسان على نفسه، من العلل والجراحات والآلام، التي قد تصيبه إذا هو غامر في المواقف التي تتطلّب الشجاعة»[2]؛ أو ترجع إلى خوف الإنسان على أهله وأولاده من بعده؛ وفي ذلك حديث رسول الله: «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة، مبخلة، محزنة»[3]، لأن الإنسان: «يحب البقاء والمال لأجل ولده. وبسبب ذلك يدبّ الجبن إلى قلبه»[4].

وينتهي به إلى أن يستخذي، «أمام ذوي السلطة، أو أمام صاحب شخصية قوية لها تأثير عل نفوس الآخرين»[5]. وعندئذٍ، تتعطّل الملكات الفكرية والإرادية، فيكون الجبان إمّعة وتابعاً، لمن استطاع أن ينفذ تأثيره عليه.

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/ ٥٦٦. اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٣٥٨.
(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/ ٥٧٢.
(٣) السيوطي: الجامع الصغير، ٢/ ٦٢٤، حديث رقم: ٩٦٨٩.
(٤) الرازي: مختار الصحاح، ص٩٢.
(٥) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/ ٥٧٢.

جـ ـ الخوف من الاستلاب:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص].

الخطف والاختطاف: الاختلاس بالسرعة[1]. والخطف: الاستلاب[2]. وقيل: الخطف والتخطّف: الاستلاب من كل وجه[3].

لقد شهد مشركو مكّة أن دعوة محمد هدىً وحق «فهم لم يقولوا: إن نتّبع دينك، أو كتابك، أو ما يقرب من ذلك، بل قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾؛ وفي اعتراف بحقيقة أصل الدعوة، وأن الكتاب بما يشتمل عليه حق»[4]. ولكنهم، رغم هذا الإقرار، اعتذروا عن اتّباع الحق، بعذر كاذب باطل؛ إذ احتجّ بعض هؤلاء أن الأمن، الذي يعيشون في ظلاله، سينتهي إذا دخلوا الدين، واتّبعوا الرسول.

فالعرب، من حولهم، يأبون الدعوة، وينفرون منها، وسيقصدونهم بالأذى والمحاربة، والقتل والسبي، إن خالفوهم. «والآية الكريمة، تبيّن أن عذرهم هذا لا حجّة فيه، إذ الحرم المكي في أمن وأمان من الحرب والقتال، ومن الجوع والحصار؛ فالعرب جميعاً يحترمونه كما ويجبى إليه من سائر الثمار، من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة»[5].

والذي حفظهم في أمن وأمان، ورزقهم من كل الثمرات: هو الله سبحانه، ولكن أكثرهم جاهلون بذلك، فيحسبون أن الذي يحفظهم من تخطف العرب، هو شركهم، وعبادتهم للأصنام.

ولو أنهم عرفوا الحقيقة، لأدركوا أن الإيمان، واتّباع الحق سيزيد من

---

(١) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص١٥٠.
(٢) الرازي: مختار الصحاح، ص١٨١.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٥٩/١٦.
(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٩٥/٣.

أمنهم، ومن رخائهم. فكيف يجعلهم الله في أمن وأمان، وهم عباد الأصنام، ولا يهبهم ذلك وهم مؤمنون.

المطلب الثاني: ضعف الإرادة: لقد كان من أهداف الإسلام، في القرآن الكريم، تحرير إرادة الإنسان من الخضوع لتأثير القوة الظاهرة، التي يمتلكها المترفون والمتكبرون، كسبيل من سبل تحريره من الاستسلام، لأفكار هؤلاء ونزواتهم ومخططاتهم، التي لا تسير في اتجاه الخير غالباً، «بل تسير باتجاه الشر دائماً، من أجل أن يبقى الإنسان، مستقلّ الإرادة وسيّداً لنفسه، كي يمارس مسؤولياته في المجتمع، انطلاقاً من قناعاته الذاتية بما يعمل.

فلا يستسلم لفكرة أنه محكوم للغير، في تفكيره وحياته، وأن غيره مسؤول عنه، وهو مجرّد آلة تتحرك بإرادة الآخرين، وتقف بإرادتهم أيضاً»[1].

ولكنّا، إذا تأملنا في المجموعات الإنسانية، في مختلف أدوار التاريخ، رأينا أن نسبة عظمى منهم «تضعف إرادتها، وتستخذي أمام إرادة ذوي السلطة السياسية، أو الاجتماعية، أو الروحية، أو أمام إرادة صاحب شخصية قوية لها تأثير على نفوس الآخرين»[2].

وقد صوّر لنا القرآن الكريم، في كثير من الآيات، موقف هؤلاء الذين أخضعوا إرادتهم، لإرادة الآخرين ونزواتهم:

أ ـ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ الأحزاب].

ينتهي الأمر بالجبناء، الضعيفي العزيمة والإرادة، أن تتعطّل ملكاتهم الفكرية والإرادية، فيكونون إمّعات وأتباعاً، لمن استطاع أن يُنفِذَ تأثيره عليهم.

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٣٥٣ ـ ٣٥٤.
(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية، ص٧١٠.

«وحينئذ تتلاعب بعقائدهم، ومفاهيمهم، وسلوكهم، أهواء وشهوات هؤلاء القادة الذين بسطوا نفوذهم وتأثيرهم عليهم؛ إذ يستغلون فيهم صفة الانقياد التام والطاعة العمياء لهم، لبث الأفكار والعقائد، التي يستطيعون بها تمكين نفوذهم عليهم وتسخيرهم لتحقيق ما تشتهي نفوسهم الآثمة، المجرمة، الظالمة، من سلطان أو مال، أو مشتهيات أخرى»[1].

وبهذا نلاحظ الجمهور الكبير من الأتباع، الذين تعطّلت إرادتهم الشخصية؛ يعتقدون ما يمليه عليهم سادتهم، وقادتهم المتبعون؛ دون أن يعملوا أفكارهم ببحث حر، أو مناقشة منطقية سديدة، سواء أكان ذلك حقاً أم باطلاً، خيراً أم شراً.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء]، «ولم يقولوا نتبع الحق، سواءً أكان من السحرة، أو من موسى، بل الرعية على دين ملوكهم»[2]. وملوكهم، وحكامهم الطغاة، يلهون بهم ويعبثون، «ويشغلونها بهذه المباريات، والاحتفالات، والاجتماعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم، وكبت، وبؤس»[3].

ب ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

إن الظالمين أنفسهم، هم أولئك الذين توافرت لديهم سبل الهدى والإدراك، والتمييز بين ما يحدث، ومعرفة الحق، والباطل، الخير والشر، الحسن والقبيح.

وهم مع توفر ذلك لهم، فإنهم لا ينتفعون منه بشيء، «ولا يتبعون ما هداهم إليه الإدراك والفهم، بل تجدهم يرتضون حالة الاستتباع والاصطفاف خلف قوى

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية، ص٧١٠.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٣٤.
(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٥/ ٢٥٩٤.

البغي والسيطرة، الذين استضعفوهم فحالوا بينهم، وبين الأخذ بشرائع الدين، والعمل بها»[1].

وهم الذين يرتضون هذه الحالة لأنفسهم، وليس كما يتذرّعون بحجة كونهم مستضعفين من قبل الكفار المتسلّطين على الأرض التي ذكروها، إذ ليس لهؤلاء الكفّار سيطرة على غيرها من الأرض. «فلم يكونوا مستضعفين على أي حال، بل في حال لهم أن يغيّروه بالخروج والمهاجرة.

لذا، فقد كذبتهم الملائكة، في دعوى الاستضعاف، بأن الأرض ـ أرض الله كانت أوسع ممّا وقعوا فيه ولزموه، وكان يمكنهم أن يخرجوا من حومة الاستضعاف بالمهاجرة، وبالتالي يتخلّصون من ضغط الشرك»[2].

فهم لم يكونوا مستضعفين حقيقة، لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف، وإنما اختاروا هذه الحال، بسوء اختيارهم، بعد أن شدّهم الطمع، «للاحتفاظ بالأموال، أو الخوف من أهوال الهجرة، والكسل عن العمل التغييري، إلى البقاء، وتحمّل ضغط الكافر، وذلك لمصالح ولأهواء دنيوية محسوسة»[3].

جـ ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠﴾ [الصافات].

قال الضحاك عن ابن عباس (رض): «يقولون كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا»[4]، «لأنا كنا أذلّاء، وكنتم أعزّاء»[5]. «والذلّة حجاب بين الذليل ونفسه، يحجب وراءه من أذلّه، فلا تصل إليه الدعوة، إلا من تلك الطريق»[6].

---

(١) مجلة البلاد، بيروت، العدد ٧، ص١٤٦.
(٢) الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، ٥/ ٥٠. التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٢٤٠.
(٣) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٢٤٠. مجلة البلاد، العدد ٧، ص١٤٦.
(٤) الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، ١٧/ ١٣٣.
(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥.
(٦) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية، ١/ ٢٦٤.

ولكن القادة يقولون للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، فلم يكن لنا عليكم سلطان نرغمكم به على قبول ما نراه، «ونضطركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه ولم يكن لدينا حجّة على صحة ما دعوناكم إليه، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، فلم تكن وسوستنا أو سلطتنا، هي التي أغوتكم بعد إيمان، وأضلّتكم بعد هدى. وإن كان من سلطة، فإنما هي بكم أنتم، إذ تعطوننا السلطة على أنفسكم»[1].

المطلب الثالث: ليس كل من يخاف جباناً: ولكن الجبان هو من يزيد خوفه عن حاجة الموقف عند الشجعان الأسوياء. والذي يكشف صفة الجبن في الإنسان، هو وجوده في مواقف الخوف الحقيقي أو الوهمي.

فالخوف هو الكاشف لصفة الجبن. وقد لا يكون الخوف كافياً لإثارة الجبن؛ إلا أن الجبان، هو من يكون جبنه أكثر مما يتطلّبه الموقف المخيف.

فالجبان يخاف أكثر مما ينبغي، ويتمثّل الجبن بعدم الإقدام في المواقف التي تتطلّب الإقدام، أو بعدم ثبوت الأقدام، في المواقف التي يجمل فيها ثبوت الأقدام، أو بالفرار من الساحة.

«إذ تنقطع عزائمه، وتنهار قوته، فلا تثبت أقدامه. وعند ذلك يستسلم استسلام الشاة لجزّارها أو لمفترسها، جبناً، واستحذاءً، وعجزاً، عن تقديم أي قوّة من قوى المعارضة»[2].

أو يلجأ إلى التقاعس والهروب، لتفادي المواقف المحرجة، أو المهابة، أو التي تهدّد بالخطر، حيث تتجه نشاطاته، ذهنياً وجسمياً، إلى تحقيق الهرب من مواجهة الموقف.

---

(١) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥؛ الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، ١٧/ ١٣٣؛ قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٥/ ٢٩٨٦.

(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/ ٥٨٥.

«وكثيراً ما يلجأ الجبناء والمتقاعسون إلى البحث عن مبررات، لإضفاء الصفة الشرعية والمنطقية على سلوكهم، وتبريره للنجاة بجلودهم»[1].

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٣٣.

ختام الفصل

إن حجاب الشهوة هو الذي يغطّي أبصار بصائرنا، فيغشي على مرآة أفكارنا، ويوجد الخلل فيها. فينبغي للإنسان أن يصقل مرآة عقله، حتى يستطيع أن يرى فيها الواقع والحقائق.

ثم يمحو عن لوح قلبه آثار الحسد، وإرادة السوء بالآخرين، والشهوات الفاسدة، «وأن يقطع عن نفسه وروحه سلاسل الحقد والبغضاء، التي تضغط على الروح، كي يتخلّص الروح مما به من الآلام والأسقام، ثم يعوّض روحه عنها، بإرادة الخير للآخرين، بحكم الإنسانية»[1].

وإنه «الجبن الآفة»[2]، هو الذي يخيف صاحبه، أن يجهر بالحق، «فلا يدنو إلى الصوت، الذي يحس أنه يقوده إلى الإصغاء، فالإيمان، فالجهر بما يضير»[3].

لقد كان كفّار قريش لا ينكرون أن ما جاء به محمد (ص) هو الهدى، ولكنهم يخافون أن يتخطّفهم الناس. وبهذا العذر الموهوم، صاغ أولئك المكّيون الرّد، للإشارة إلى خطورة الإيمان.

ولقد تبيّن لهم، بعدئذ، أن ذلك من الأوهام، إذ «لما اتّبعت قريش الهدى سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها، في ربع قرن أو أقل من الزمن»[4].

أما مسلمو اليوم، فقد يتردّدون في قبول الإيمان، بسبب آثاره الدولية، أو المحلية من داخل بلادهم وخارجها، وبسبب معاداة الأعداء.

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية، والنفسية، ص١٠٢.
(٢) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم، ١/ ١٥.
(٣) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية، ١/ ٢٦٤.
(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٧٠٤.

أو للتخوّف مما ستكتبه عنهم وسائل الإعلام، وما ستنعتهم به من أقسى النعوت.

«ويشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تأليب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية، وغير الاقتصادية، وإن هي إلا الأوهام، كأوهام قريش»[1].

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٧٠٤.

الفصل السادس

الكبر

إن حب الذات مظهر لإحدى الغرائز الأساسية، في طبيعة الإنسان، وهو ضروري لاستمرار الحياة، إذ إن علاقة الإنسان بالوجود، وسعيه في الحياة، إنما ينبعان من حب الذات، وهذا المنبع الطبيعي، «وإن كان قوة مثمرة، يمكن أن ينمّي كثيراً من الصفات الحميدة، في وجود الإنسان.

لكنه إن أفرط فيها، أصبحت المنشأ لكثير من السيّئات والانحرافات الأخلاقية المختلفة»[1].

المبحث الأول: الكبر، والتكبّر، والاستكبار:

المطلب الأول: الكبر: هو احتقار المرء لغيره، وازدراؤه له[2]: «قال رسول الله: 'لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر'. فقال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً، وفعله حسناً؟

قال: 'إن الله جميل يحب الجمال'. الكبر: بطر[3] الحق، وغمط[4] الناس»[5].

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص ١٠٥.

(٢) الإمام النووي، يحيى بن شرف: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، حقّقه وعلّق عليه مجتبى محيي الدين الجراح، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٣٣٣.

(٣) بطر الحق: دفعه وردّه على قائله؛ المصدر نفسه، ص٤٣٤.

(٤) غمط الناس: ازدراؤهم، وانتقاص أقدارهم. انظر الرازي: مختار الصحاح، ص٤٨٢.

(٥) صحيح مسلم، ١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥، الحديث رقم: ٢٦١.

والكبر: العظمة[1].

والكبر: الحالة التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره.

وأعظم الكبر، التكبّر على الله، بالامتناع عن قبول الحق، والإذعان له بالعبادة[2].

فالكبر، على هذا التحديد، هو الأنانية بعينها، التي يريد صاحبها أن يكون أشبه بإله في الأرض، لا يخضع لحق، ولا ينتصح من أحد، لأنه، بزعمه، لا يريد أن يكون تابعاً للغير، فهو طاغية جبار، على من تحت يده، لا يخصّهم بكرامة، أو خير، إذ يرى نفسه أولى بكل ذلك.

المطلب الثاني: الكبرياء: الترفّع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه غير الله[3]. قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية/ ٣٧].

وقد ورد في حديث قدسي: «العز إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني بشيء منهما عذبته»[4].

وعن أبي عبد الله (رض): «العز رداء الله، والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منهما، أكبّه الله في جهنم»[5].

وقال: «ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل جوّاظ مستكبر»[6].

المطلب الثالث: الاستكبار: يقال له على وجهين، أحدهما: أن يتحرّى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً، وذلك متى كان ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، فمحمود.

---

(١) الرازي: مختار الصحاح، ٥٦١.
(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٤٢١.
(٣) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٤) البخاري، محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد، المطبعة التازية، ط١، من دون سنة طبع، ص٨١، باب الكبر.
(٥) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ٢/ ٣٠٩.
(٦) صحيح البخاري، ضبط البغا، ٤/ ١٨٧٠، الحديث رقم ٤٦٣٤.

والثاني: أن يتشبّع، فيظن من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم، وعلى هذا ما ورد في القرآن[1].

قال رسول الله: «المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[2].

والاستكبار: هو صراع من أجل الاستعلاء على الآخرين، والظهور بمظهر القوة، والحصول على المركز الاجتماعي، وبحيث يظهر الآخرون في موقف الضعيف العاجز، القليل الحيلة[3].

المطلب الرابع: المتكبّر: «يؤدّي الكبر إلى ابتعاد الشخص عن اختيار الواقع»[4]، فالمتكبّر، يحاول أن يجعل نفسه في معرض الجلال والشهرة، وأن يحمل كبره الموهوم على رقاب الناس.

«وإن هذا الإصرار، على توقّع الاحترام له من الناس، في غير محلّه، ممّا يسبّب ظهور تضادّ شديد، بين ما يريد، وبين ما يعامله به الناس»[5].

فالفرد المغرور يصنع في ذهنه قالباً كاملاً، ونموذجاً تاماً، لكل سلوك ولكل مقال له؛ ويصطنع نموذجاً عالياً، لا نقص فيه، لإشباع شعوره بالتفوّق.

ويحاول أن يجعل كل أحاسيسه، وفعالياته، وفاقاً لذلك القالب المصطنع، «فهو يحسب أن صفاته ومزاياه عالية، بحيث لن يصدّق أبداً أن يجد النقص مصداقاً في وجوده»[6].

---

(١) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص٤٢١.
(٢) البخاري، ضبط البغا ٥/٢٠١، الحديث رقم ٤٩٢١؛ السيوطي: الجامع الصغير، ٢/٥٧٢، الحديث رقم: ٩١٦٨.
(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٢٧٥.
(٤) جورارد، سدني م: الشخصية بين الصحة والمرض، ترجمة حسن الفقي، سيد خير الله، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، من دون سنة طبع.
(٥) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص١١٠.
(٦) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٢٦٥.

بل هو منخدع بقوته، فلا يرى غير نفسه، «ولا يتصوّر من هو أقوى منها، ممّا يجعله يتمادى في الشعور بالعظمة والتكبّر»[1]، ولا سيما على الذين يمثّلون طبقة اجتماعية سفلى بالنسبة إليه، فيحتقرهم، ويرى أنهم ليسوا في المستوى الذي يتيح لهم النقد، أو الدخول في حوار.

لأن دورهم هو دور التابع، لا دور المساوي، ممّا يفرض عليهم أن يتبعوا ويطيعوا، لا أن يجادلوا، ويناقشوا.

المطلب الخامس: منشأ الكبر: إن شيطان الكبر يتطرّق إلى ضمير الإنسان من طريقين:

الأول: حينما يصاب بمرض الإحساس بالدونية والصغار؛ وهذا الإحساس «هو الذي ينتهي إلى إيجاد عقدة الحقارة في المريض، وهي عقدة مؤلمة مدمّرة، من الممكن أن ينتج عنها أخطار كثيرة، وجرائم مختلفة، وهي التي تجرّ المستكبر إلى مزيد من الشقاء»[2].

يقول عمر (رض): «ما وجد أحد في نفسه كبراً، إلا لمهانة يجدها في نفسه»[3].

والقول نفسه للإمام جعفر الصادق (رض)، والذي يبيّن المنشأ النفسي للتكبّر، في عبارة قصيرة واضحة: «ما من أحد يتيه، إلا من ذلّة يجدها في نفسه»[4].

يقول ماك برايد: «إن اتّخاذ فكر التكبّر لهو نوع من محاولة سدّ الفراغ، الذي يحسّ المتكبّر في باطنه، من عقدة الحقارة، وإلا فلا يتصوّر أي إنسان شريف طاهر الضمير، أو أية أمة أو طبقة، أو عنصر، أو قوم، أو دم، أية ميزة، أو اختلاف بينهم، وبين الآخرين»[5].

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص١٤.
(٢) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص١٠٧.
(٣) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية، المجلّد الأول، ص٥٧٤.
(٤) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ٣.
(٥) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص١٠٩.

الثاني: يقول الفيلسوف الغربي اسبينوزا[1]: إن الغرور سرور، ينشأ من الإفراط، في حسن اعتقاد الشخص بنفسه، والمغرور يسعى جاهداً، مهما أمكن، في تنمية هذه الفكرة، فهو لذلك يحب حضور الطفيليين والمتملقين، ويبرأ من حضور، أصحاب السلوك السوي، والسيرة الحسنة الصالحة، الذي يرونه كما هو، وعلى ما هو عليه.

إن تعداد شرور الغرور، يستلزم صرف وقت كثير، ذلك أن المغرور يتأثر بكل عاطفة وإحساس، إلا أن أقل عاطفة تسيطر عليه هي الحب والرحمة.

وبإدراك هذه النقطة، بالإمكان الإدراك جيداً، أن المغرور حسود بالضرورة، وأبغض الناس إليه، من يُحمدون كثيراً لفضلهم.

وأيضاً يستنبط من ذلك، أن انزعاجه منهم، لا يزول بالودّ والحب بيسر وسهولة، وإنما يتحقق سروره بحضور من يضحكون على ضعفه، فيجرّونه من ورطة الحماقة، إلى وادي الجنون[2].

فالكبر ينمّ عن الحماقة، وخفة العقل.

«وقد صور ذلك الإمام جعفر الصادق، أصدق تصوير، إذ قال: 'ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر، إلا خرج من عقله مثل ذلك'»[3].

ويقول الإمام علي (رض): «إعجاب المرء بنفسه، فساد عقله»[4].

ويقول: «التواضع رأس العقل، والتكبر رأس الجهل»[5].

---

(١) باروخ اسبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧)، فيلسوف هولندي، سليل أسرة يهودية، فرّت مع من فرّ من إسبانيا والبرتغال، بسبب محاكم التفتيش. وكان مستقل الرأي، ممّا أدى إلى طرده من الجماعة اليهودية، وحرمانه من حقوقه الدينية، عام ١٩٥٦، فلبث حيناً في مسقط رأسه أمستردام، ثم غادرها حتى استقر بلاهاي. وأهم كتبه: الأخلاق، وفيه يبسط فلسفته. انظر: بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ١/ ١٣٦٠ ـ ١٣٨٠.

(٢) غربال، أشرف، وآخرون: الموسوعة العربية الميسّرة ١/ ١٣٨.

(٣) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٤٤.

(٤) الحراني، أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ط٥، ص١٥٢.

(٥) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم، ١/ ١١٨.

المبحث الثاني: الكافر متكبّر ومستكبر

تمهيد:

ربما كان الكبر عاملاً، ذا أهمية، من العوامل الصارفة عن الاستجابة للحق، والباعث على التمرّد عليه، والخروج عن دائرة الطاعة للخالق جلّ جلاله، وتكوين معتقدات باطلة، لا حجّة لها ولا برهان.

«ومتى نفخ الكبر في أنف صاحبه، واستوى على عقله، وإرادته، ساقه بعنف إلى غمط الحق، وطمس معالمه، وانتحال صور من الباطل، يعمل على تزيينها وتحسينها بالحجج التافهة، التي لا تقوى على النهوض، أمام قوّة الحق لدى ذوي العقول السليمة»[1].

ويتّضح من مطالعة تاريخ العالم أن المتكبّرين هم الذين كانوا يخالفون نهضة الأنبياء والرسل.

«وأن المجازر العامّة والوحشية، التي حدثت في الحروب الدولية العالمية، والتي كادت أن تجر البشرية إلى جهنم الفناء والدمار، إنما كانت نابعة، من كبر وغرور عدد من القادة، قساة القلوب»[2].

المطلب الأول: الافتخار بالمنازل والنوادي: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم].

يخبر الله تعالى عن الكفّار، حين تتلى عليهم آيات الله، «ظاهرة الدلالة، بيّنة الحجّة، واضحة البرهان»[3]، «لا تلتبس معانيها»[4]، «ولا تدع ريباً لمرتاب»[5]، أنهم يصدّون، ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية، ص٦٩٦.
(٢) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص١٠٧.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٣٤.
(٤) الشوكاني: فتح القدير، ٣/ ٢٤٧.
(٥) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٤/ ١٠٠.

مفتخرين عليهم ومحتجّين على صحّة ما هم عليه من الدين الباطل، بأنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم]، «أحسن منازلاً، وأرفع دوراً، وأحسن نديا ـ وهو مجتمع الرجال للحديث ـ أي ناديهم أعمر، وأكثر وارداً وطارقاً»[١].

«يعنون: كيف تكون، وبهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون بدار الأرقم بن أبي الأرقم، على حق»[٢].

المطلب الثاني: انتقاص أتباع الأنبياء: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود/ ٢٧].

الرذل: المرغوب عنه لرداءته[٣].

بادي الرأي: ما يبدأ من الرأي، وهو الرأي الفطير، أي الذي يظهر من الرأي، ولم يروَّ فيه[٤].

«إن فقه التحقير والانتقاص، الذي وضعه الشيطان، ورعاه كفّار نوح في بداية الطريق، كان، بجميع المقاييس، كارثة على المسيرة البشرية فيما بعد»[٥].

وما يقوله كفّار قوم نوح لنبيّهم نوح عليه الصلاة والسلام، امتداد لما سلف، من الشيطان.

فهذا القول: «يصف نسق تفكيرهم، الذي امتزج بالكبرياء والبطر»[٦]. فهؤلاء يعتقدون أن المستوى الاجتماعي للمؤمنين هو الذي يحدّد سلامة أو فساد هذه العقيدة.

وحيث إن الذين اتّبعوا نوحاً، لم يكونوا إلا الأرذال «كالباعة والحاكة

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٣٤.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص١٩٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٠.
(٥) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٤٠.
(٦) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص٧٩.

وأشباههم»[1]، ولم يتبعه الأشراف والسادة، فإن ذلك دليل على فساد هذه العقيدة؛ «ثم إن هؤلاء، الذين اتّبعوك، لم يكن على تروٍّ منهم، ولا تعمّق، ولا نظرة، بل بمجرّد ما دعوتهم بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك»[2].

المطلب الثالث: انتقاص الرسل: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون/ ٤٧].

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [ابراهيم/ ١٠].

إن الخضوع للحقّ يحتاج إلى نفسية طيّبة، منصاعة للنداء الإلهي. والتكبّر والغرور، يصمّان الإنسان عن استماع الرسالات الإلهية، ويمنعانه من الذوبان في خطها. ولذلك كان التكبر من أهم أسباب امتناع الاستجابة لنداء الأنبياء.

والقرآن الكريم يعبّر عن هذه الحقيقة، في حديثه عن الذين عرضوا الخضوع لنداء الأنبياء، متذرّعين بأتفه الذرائع التي تنمّ عن غرورهم كقول فرعون وملئه عن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، كما ورد في التنزيل: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون/ ٤٧]. «أي كيف نصدّق من كان مثلنا في البشرية»[3].

وهذا أيضاً منطق قوم نوح، وعاد، وثمود، في مواجهتهم أنبياء الله ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾ [ابراهيم/ ١٠].

«فبدلاً من أن يعتزّ البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين، ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم. ولا يسألون أنفسهم: لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟ وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول: لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم: ما قيمته، ما حقيقته، ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير»[4].

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٠/٢٠٣؛ الشوكاني: فتح القدير ٢/٤٩٣.
(٢) الحاشية نفسها.
(٣) الشوكاني: فتح القدير، ٣/٤٨٥.
(٤) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ١٣/١٢٨.

المطلب الرابع: العتوّ والنفور: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ [ص].

العزّة هنا: الحمية والأنفة المذمومة[١].

شقاق: مخالفة، ومعاندة، ومفارقة[٢]، وأصله أن يصير كل من الفريقين في شق، أي في جانب[٣].

إن هذا القرآن، لَذِكْرٌ لمن يتذكّر، وعبرة لمن يعتبر؛ وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم في استكبار عنه، ومشاقة فيه.

«فالغطرسة خلّة تأبى على صاحبها أن يستمع إلى قول، أو يصيخ إلى دعوة، أو ينزل إلى متابعة إنسان، ترفّعاً عن الإصغاء، قبل أن يهديه الإصغاء إلى موافقة أو إنكار»[٤].

قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك/ ٢١]، «أي استمرار في طغيانهم، وإفكهم وضلالهم، 'فالعتو: النبوّ عن الطاعة'[٥]. استكباراً، ونفوراً على أدبارهم، لا يسمعون للحق، ولا يتّبعونه»[٦].

المطلب الخامس: طلب غريب، ودعاء عجيب: ونلتقي في هذا النموذج مع الناس، الذين يكابرون، ولا يريدون أن يقتنعوا أو يؤمنوا ببعض الأشخاص الذين يصوّرهم لنا القرآن الكريم، بصورة رائعة، في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة].

«إنها الأساليب الساذجة، التي تحاول أن تتلمّس الإيمان، من خلال مواجهة

---

(١) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص٣٣٣.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٦؛ الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٢٦٤.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٧/ ١٨١.
(٤) العقاد، عباس محمود: العبقريات، المجلد الأول، ص٢٦٣.
(٥) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٢١.
(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٥٩.

بالرؤية، أو سماع علامة مباشرة، وتخضعه ـ أي الإيمان ـ للاستفزاز أو للتحدّي»[1].

فيتحدّون رسول الله، «أن يكلّمهم الله، أو تأتيهم خارقة من الخوارق المادية»[2]، «علامة على نبوّة محمد (ص)»[3].

وهم، في تحدّيهم وتعنّتهم هذا، قد أشبهوا من قبلهم من المشركين، حيث طلبوا وتعنّتوا في طلب الخوارق المعجزة.

هكذا، «فبين هؤلاء وهؤلاء شبه في الطبيعة، وشبه في التصوّر، وشبه في الضلال»[4]؛ «والكفر ملّة واحدة»[5].

لقد راحوا يطلبون أن يكلّمهم الله، أو تأتيهم آية إلهية، مع «أن الآيات، التي يطالبون بها مأتّية مبيّنة، ولكن لا ينتفع بها إلا قوم يوقنون بآيات الله»[6]. أي: «يعترفون بالحق، وينصفون بالقول»[7].

أما هؤلاء، «فقلوبهم محجوبة بحجاب الجهل، مؤفّة بآفات العصبية والعناد»[8] فما تغني الآيات شيئاً.

إذ «الآيات لا تنشىء اليقين، إنما اليقين هو الذي يدرك دلالتها، ويطمئن إلى حقيقتها، ويهيّىء القلوب للتلقّي الواصل الصحيح»[9].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٧١.
(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ١/ ١٤١.
(٣) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ١/ ١٣٤.
(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ١/ ١٤١.
(٥) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٥٣.
(٦) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١/ ٢٦٤.
(٧) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، ١/ ١٣٤.
(٨) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١/ ٢٦٤.
(٩) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ١/ ٢٦٤.

إنهم من كثرة جهلهم، وشدّة تكذيبهم، وعنادهم، وعتوّهم[1]، يدعون هذا الدعاء الغريب، «فيتلمّسون العذاب ويطلبونه»[2]، بدلاً من أن يطلبوا من ربّهم ويدعوه، «لهدايتهم للحق، ولتوفيقهم لاتّباعه»[3]؛ «وهذا مما عيّبوا فيه»[4]. فالفطرة السليمة حين تشكّ، تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن يهديها إليه، دون أن تجد في هذا غضاضة، «ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة، تأخذها العزّة بالإثم، حتى لتؤثر العذاب والهلاك، على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحاً لا ريب فيه»[5]؛ وتلجأ إلى المواقف الاستعراضية، تريد خداع البسطاء الساذجين، من الناس كهؤلاء الذين يرفعون أيديهم، «ويقولون لمن حولهم: إن كان الله موجوداً، فليكسر أيدينا. أو يطلبون إلى الأطفال، في بعض المواقف، أن يتقدّموا إلى الله بطلب إنزال الماء، أو الملابس، أو الأغذية، إن كان موجوداً، لتكون النتيجة في عدم تلبيته لتلك المطالب، دليلاً على نفي وجوده»[6].

وقد صوّر لنا القرآن نزعة الكبر المتأصّلة في صدور هؤلاء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر].

«فالذين يدفعون الحق بالباطل، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجّة من الله، ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ﴾، ما في صدورهم إلا كبر عن اتّباع الحق، واحتقار لمن جاء به.

وليس ما يرومونه من إخماد الحق، وإعلاء الباطل بحاصل، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع»[7].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٠٤.
(٢) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٧٢.
(٣) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٤٦١.
ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٠٤.
(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٠٤.
(٥) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ١/ ٢٦١.
(٦) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٧٢.
(٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٨٤.

وهذا المخلوق الإنساني ينسى نفسه في أحيان كثيرة، «ينسى أنه كائن صغير ضعيف... ثم يروح ينتفخ، ويتشامخ، ويتعالى، يحيك في صدره الكبر؛ يستمدّه من الشيطان، الذي هلك بهذا الكبر، ثم سُلّط على الإنسان فأتاه من قبله.

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر، وهي ظاهرة، ناطقة، معبّرة للفطرة بلسان الفطرة. وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش، لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستيقن.

والله العليم بعباده، السميع البصير، المطّلع على السرائر، يقرّر أنه الكبر، والكبر وحده، هو الذي يحيك في الصدر، وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال، فيما لا جدال فيه.

الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته، ومحاولة أخذ مكان ليس له، ولا تؤهّله له حقيقته، وليست له حجة يجادل بها، ولا برهان يصدع به، إنما هو ذلك الكبر وحده»[1].

المطلب السادس: جحود بعد استيقان: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

ليس من اليسير أن تتوافر للمكابر شخصية إنسانية، ما دام قد تخلّى عن منطق اليقين الذي جاء به الحق من عند الله تعالى، أنه ممّا تستيقن به النفس الإنسانية.

لقد جاءت الآيات، «بيّنة، ظاهرة، واضحة»[2]، كأنها، لفرط وضوحها، «تبصر نفسها»[3]، أو «تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى»[4].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٣٠٨٩.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٥٧.
(٣) الشوكاني: فتح القدير، ٣/ ١٢٨.
(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٦٣٠.

ومع ذلك، فقد جحدوها، «والجحود: إنكار ما يثبت في القلب»[١]. وقالوا عنها: إنها سحر مبين! قالوا ذلك لا عن اقتناع، ولا عن شبهة، بل قالوه، «في ظاهر أمرهم»[٢]؛ «وقد استيقنت نفوسهم؛ أنها الحق الذي لا شبهة فيه»[٣].

قالوا ذلك؛ «جحوداً ومكابرة وعناداً»[٤]، واستكباراً عن اتّباع الحق، فهم «لا يريدون الإيمان، ولا يطلبون البرهان، استعلاء على الحق، وظلماً له ولأنفسهم»[٥].

وهكذا، فالحق «لا يجحده الجاحدون، لأنهم لا يعرفونه، بل لأنهم يعرفونه! يجحدونه، وقد استيقنته نفوسهم، لأنهم يحسّون الخطر فيه على وجودهم، أو الخطر على أوضاعهم، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم.

فيقفون في وجهه مكابرين، وهو واضح مبين»[٦].

(١) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص٨٨.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٥٧.
(٣) المصدر نفسه، الموضع نفسه؛ قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٦٣٠؛ الشوكاني: فتح القدير، ٣/ ١٢٨.
(٤) الشوكاني: فتح القدير ٣/ ١٢٨.
(٥) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٦) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٦٣٠.

ختام الفصل

إن الحق واضح المعالم، بيِّن الدلالة، ولكنه لم يوافق أهواء المستكبرين، الذين ألفوا العيش في ظلام الجاهلية، «فلم يرفعوا له رأساً، بل نكسوا على رؤوسهم، ولم يفتحوا له عيناً، بل خرّوا عليه صمّاً وعمياناً»[1].

إذ التكبّر، والشعور بالعظمة، والاستخفاف بالمتحدّث ممّا يحول دون الالتفات إليه، أو الإنصات له.

ومع «تمتّع السامع، في مثل هذا الموقف بالسمع وغيره، من أدوات الحسّ والتفكير، إلا أن ذلك، لا يفيده في شيء، لأنه يصبح في حكم الأصمّ، في هذه الحالة، فلا يعي، ولا يدرك شيئاً»[2].

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود].

إنهم يسدرون في غيّهم، وتأبى عليهم كبرياؤهم أن يستمعوا إلى نصيحة، أو أن يرجعوا عن الخطيئة، مبالغة للدوران حول الذات، واستغراقاً في الأثرة، وتجاهلاً للفضل حيثما ظهر.

قال رسول الله: «بينما موسى عليه السلام، جالساً في بعض مجالسه، إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان، فلما دنا من موسى خلع البرنس، وقام إلى موسى عليه السلام؛ فسلم عليه.

فقال له موسى: من أنت؟ قال: أنا إبليس، قال: أنت، فلا قرّب الله دارك.

---

(١) دراز، محمد عبد الله: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، الكويت، دار القلم، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١١٧.

(٢) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص١٥٥.

قال: إني جئت لأسلّم عليك، لمكانك من الله. قال: فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس؟: قال: به أختطف قلوب بني آدم. فقال موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم، استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه»[1].

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج: تلبيس إبليس، ص٣١؛ الكليني: أصول الكافي ٢/ ٣١٤.

الفصل السابع

العناد

المبحث الأول: الحزم والعند

تعريف:

العنيد: المعجب بما عنده، المعاند: المباهي بما عنده. والعنود: قيل مثله، قال: لكن بينهما فرق، لأن العنيد الذي يعاند ويخالف، والعنود الذي يعند عن القصد... ويقال: بعير عنود، ولا يقال: عنيد[1].

والعنيد: هو الذي يخالف ويردّ الحق وهو يعرفه[2].

المعاندة والعناد: أن يعرف الرجل الشيء، فيأباه ويميل عنه.

والعنيد: الجائر عن القصد، الباغي الذي يردُّ الحق مع العلم به[3].

عنيد: خالف الحق وردّه، عارفاً به، فهو عنيد وعاند[4].

المطلب الأول: الفرق بين الحزم والعند: قد يحدث التباس وصعوبة في التمييز بين الحزم والعند، وبين الحازم والعنيد.

---

(١) الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، ص٣٤٩.
(٢) الرازي: مختار الصحاح، ص٤٥٧.
(٣) ابن منظور: لسان العرب ٩/ ٤١٩.
(٤) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص٣٨٦.

إذ قد ينسب العناد إلى قوة الشخصية، وصلابة الإرادة، ولكن الأمر ليس هكذا.

فإذا جرّنا الحديث عن قوة الشخصية إلى أن نتحدّث عن شكل معيّن من أشكال هذه القوة، وهو العناد، فإنه «يصعب علينا، في الحالات الملموسة، تحديد بداية قوة الشخصية، أو نهاية العناد؛ إلا أن إيجاد الفرق المجرّد النظري، بين هذين الصنفين، ممكن بدون صعوبة.

ليس العناد عيباً من عيوب الذكاء، ولكنه تعبير يستخدم لتحديد رفض الخضوع لفهم أعلى، رفضاً لا يمكن أن يعزى إلى الذكاء، والذي هو قدرة كبيرة على التفهّم، بدون أن يكون هناك تناقض.

إن العناد عيب من عيوب الطبع، وصلابة الإرادة هذه، وهذا التشدّد حيال كل تناقض، لا ينجمان إلا عن أنانية خاصة، تريد قبل كل شيء، أن تحمل الآخرين على الخضوع إلى نشاطها الفكري فحسب.

والعناد، في الحقيقة، نوع من الصلف، لو لم يكن أفضل من الصلف بقليل، لأن الصلف يكتفي في المظهر، على حين يقوم العناد على التمتّع بشيء.

ويمكننا القول: إن قوة الشخصية تغدو عناداً، عندما لا تعتمد المقاومة المعارضة لوجهات نظر ملموسة، على قناعة ثابتة، أو إيمان بمبدأ سامٍ، بل تستند إلى مبدأ المعارضة نفسه»[1].

وهذا العناد، الذي هو عيب من عيوب الطبع، والذي هو نوع من الصلف، والذي يؤدّي بصاحبه إلى المعارضة، من أجل المعارضة فقط، إذا استحكم بالنفس، جعلها تصل إلى مستوى حقير، في الحكم على الأشياء.

---

(١) كلاوزفيتز، كارل فون: الوجيز في الحرب، ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي، دمشق، ١٩٧٣، ص١١٨ ـ ١٢٠.

المطلب الثاني: أسرى العناد: إن الوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار الله، والعقل الإنساني أثر أيضاً من آثار الله، في الوجود.

وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض، ولا يعارض بعضها بعضاً. ولذا فقد «تآخى العقل والدين... في كتاب مقدس، على لسان نبيٍّ مرسل»[١].

«مع الإقرار بأن الوحي والعقل ليسا ندّين، فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل، وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخر»[٢].

ولكن، ومع ذلك، ومع أن الأنبياء أقاموا الحجّة الكاملة على البشرية، ومع أن آيات الله مكشوفة، لمن يريدها ويستقيم إلى مغزاها، فإن المعاندين خاصموا الحق، ورفضوه، وعارضوه؛ فالآيات الباهرة الساطعة لم تقنعهم، فهي لا تقنع من لا يريد، ولا يستقيم ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

«فحتى العيان، لا يكفي لإقناع من صرف عقله، عن سبيل الإقناع، لأنه يتّهم بصره وسمعه، فيما رأى بعينه، وسمع بأذنيه؛ وكلّ ما في السماء والأرض كاف لمن جرّد عقله من أسباب الإنكار والإصرار»[٣].

ولكنه لن يغني شيئاً أولئك، الذين أضحى التكذيب منهم «سجية وهيئة نفسانية، خبيثة، لازمة. فلا تزال آيات الله تتكرّر على حواسّهم، ويتكرّر التكذيب بهم منهم»[٤].

فهم مصرّون على ذلك إصراراً «لا ينفع معه إنذار. والسبب عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم. فلهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها»[٥].

---

(١) عبده، الإمام محمد: رسالة التوحيد، القاهرة، مطبعة نهضة مصر بالفجالة، ط١٤، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، ص١٠.
(٢) قطب، سيد: خصائص التصور الإسلامي، ص٢٠.
(٣) العقاد، عباس محمود: كتاب الله، ص١٤٨.
(٤) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٢٧٩.
(٥) دراز، محمد عبد الله: النبأ العظيم، ص١٦٧.

المبحث الثاني: صور قرآنية

المطلب الأول: قوم إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء].

للبرهان العملي، «وقع كبير في النفس، أشد أثراً من الوعظ والإرشاد»[1].

وها هو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قد قام، في حواره مع قومه، بتحطيم الأصنام وتكسيرها، «ليقيم دليلاً حسّياً لقومه على بطلان عبادة الأصنام»[2].

وعندما سأله قومه عن الفاعل، اتّهم كبير الأصنام بذلك، وطلب من قومه أن يسألوا الأصنام إن كانوا ينطقون؛ «فدفعهم بذلك إلى أحد الموقفين، إما موقف الاعتراف بالحقيقة، من خلال اكتشاف الخطأ، أو موقف الظهور بمظهر العناد والمكابرة»[3].

وهكذا، فقد حطّم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام، وجعلها قِطَعاً متلاشية، وترك أكبرها عن قصد، ليسأله القوم عن الجاني، ولا يجيب.

فلما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام «لم تدافع الآلهة عن نفسها»[4]. ولو كانت آلهة حقيقة «لدافعت عن نفسها، وأصابت بالضرر من أرادها بسوء»[5].

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء، ص١١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص١١١.
(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: خطوات على طريق الإسلام، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط٥، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٤٤٣.
(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٥) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص١١١.

ولفعلت بالجاني، قبل أن يفعل بها؛ فإن عبدة الأصنام لم يتساءلوا عن سبب العجز هذا، ولم يسخروا منها، كما سخر الأعرابي من صنمه، حيث يقول:

أربٌ يبول الثعلبان بوجهه ... لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالبُ

بل إنهم أرادوا أن يحاكموا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، محاكمة علنية ويستجوبوه، ويعاقبوه على جريمته، ليتّعظ به من يحاول النيل من مقام الآلهة!!

أ ـ المحاكمة العلنية: شيّد الأمبراطور هيديوشي أمبراطور اليابان، في القرن السادس عشر، تمثالاً ضخماً لبوذا؛ ولم يكد يتم بناؤه، حتى زلزلت الأرض زلزالها سنة ١٥٩٦، فألقت به على الأرض هشيماً.

ويروى في اليابان أن هيديوشي رمى الصنم المحطّم بسهم قائلاً له في ازدراء: لقد أقمتك ههنا بباهظ النفقات، فلم تستطع حتى حماية معبدك[(١)].

لقد فطن الأمبراطور إلى هذه الحقيقة التي لم يفطن لها قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وها هم قد أتوا به على أعين الناس ـ وكانت هذه أمنيته ـ ليقيم عليهم الحجّة بأنهم في ضلال مبين.

وحين وجّهوا إليه السؤال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء].

كأنه يقول موبّخاً لهم، ومقيماً عليهم الحجّة: ما هذا؟ آلهة ولا تشعر؟؟

ولكنه العقل الخرافي يقبل التناقض والأساطير، وينأى عن التعليل والتحليل. وهو، وإن رجع إلى الصواب في لحظة طارئة، فإنه يرتدّ عنه إلى الانحراف والجهالة، كما حدث لهؤلاء القوم.

هم تساءلوا، في لحظة من لحظات تحكيم العقل والخروج من إسار الجهل

(١) ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، اختارته وأنفقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٦٨، الجزء الخامس من المجلد الأوّل، ص١٣٣.

والعناد: كيف نعبد أصناماً لا تدفع عن نفسها السوء؟

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1] [الأنبياء] وليس إبراهيم. ولكن ما لبثوا أن عادوا «إلى المكابرة، دونما تعقُّل، لتغلغل العادات والتقاليد الموروثة في سلوكهم»[2]. ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾[3] [الأنبياء].

والمراد هنا الرجوع عن الاعتراف بالحق، إلى الباطل، وإصرارهم عليه في قولهم، كما ورد في التنزيل: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء].

«وهذه استعارة، والمراد بها وصف ما لحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق، عند لزوم الحجّة، فكأنهم شبهوا ما بالمتردي على رأسه تدويخاً، بنصوع البيان وإبلاساً عند وضوح البرهان»[4].

فقد انتزع ابراهيم عليه الصلاة والسلام، إذن، الاعتراف من هؤلاء القوم، بأن هذه الآلهة لا تحسّ، ولا تشعر.

«وانزلق القوم، بلا وعي ولا تفكير، في هذا المنزلق الذي دفعهم إليه إبراهيم، وقال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق، فأنتم الظالمون باتّهام إبراهيم.

ولكن الحقيقة تصدمهم بعد ذلك، فإذا بهم يطرقون برؤوسهم من الخجل، ثم يعودون إلى مجادلة إبراهيم قائلين: إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تقدر أن تنطق، فكيف تطلب منّا أن نسألها؟

حينئذ برزت حجة إبراهيم داوية مجلجلة، تقرع آذانهم، وتفحم ألسنتهم بهذا

---

(١) الرجوع: العود، فهؤلاء راجعوا عقولهم. انظر: الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص١٨٨. مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٣٢٧.

(٢) الصيمري، الشيخ مجيد: في ظلال السيرة المطهرة ١٢/ ١٣١.

(٣) النكس: قلب الشيء على رأسه، ومنه نكس الولد،إذا خرج رجله قبل رأسه؛ انظر: الرازي: مختار الصحاح، ٦٧٩؛ الأصفهاني: المفردات، ص٥٠٥.

(٤) الرضي، الشريف محمد بن الحسين: تلخيص البيان، ص١٠٥.

الجواب البليغ»[1] ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

ب ـ حكم المعاندين: لقد أقام إبراهيم عليه السلام، الحجة على القوم الكافرين، ولكن الذين كفروا «لم يكن عندهم استعداد، للوقوف في مجرى الرحمة الإلهية، وفي مهبّ النفحات الربانية»[2].

فلم يكن منهم مع قيام هذه الحجّة، إلا أن قالوا، كما ورد في التنزيل: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء/٦٨]. «وهذا لا شكّ سلاح المعاند، المكابر، الظالم، الذي فقد كل حجّة ودليل، وخسر أمام الحق الواضح الجلي»[3].

لقد خاف القوم من افتضاح حالهم، «فعدلوا عن الحجّة والمناظرة، وعمدوا إلى القوة، يسترون بها فضيحتهم، فأصدروا حكماً بالموت حرقاً»[4].

وهذا هو شأن الجماهير، التي لا تمتلك عقيدة تعتمدها في وضع «مقياس عملي، لسلوكها الاجتماعي، وإنما يتحكّم فيها العقلية الجمعية كما يقول علماء الاجتماع»[5].

والآن ماذا بعد أمر التحريق، الذي تصايح به الجمع، من كل جانب؟؟

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء].

وكانت النار برداً وسلاماً، ولكن ذلك كله، لم يغنِ شيئاً، «فلقد نظر القوم بعيون العناد، وفكّروا بعقول الاستكبار، فلم ينفعهم ما يشاهدون من آيات الله،

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص١١٢.
(٢) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٤٥.
(٣) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٤٢٦.
(٤) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص١١٣.
(٥) الصيمري، الشيخ مجيد: في ظلال السيرة المطهرة، ٧٨/١.

وما يسمعون من مواعظ نبيّ الله، وما تلقّنه لهم فطرتهم من الحجّة والبيّنة»[1].

وستبقى هذه الآيات القرآنية، «تعرض على الأسماع، في كل عصر، تفاهة الذين يقدّسون الأصنام، ويعبدونها من دون الله»[2].

المطلب الثاني: قوم فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف].

إنها حالة أخرى من حالات العناد، والإصرار حتى النهاية على الكفر والضلال. فلقد راحت أنماط العذاب الإلهي، كالقحط المتوالي سنة تلو سنة أخرى، ونقص الثمرات، «تصيب فرعون وآله لعلهم يرعوون، ويعودون إلى الحقيقة»[3].

وكلّما كان البلاء يعمّهم، ويلقي عليهم بكاهله، كانوا «يفزعون إلى موسى، عليه الصلاة والسلام، وينسون فرعون وآلهته، لأنهم يعلمون أن لا قبل لتلك الآلهة المدعاة، بذبابة مرسلة للعذاب، ويقولون له ليرحنا ربك ونعدك بالتوبة وعدم العودة»[4].

«ولكي تتم الحجة، يستجيب الله دعاء موسى عليه الصلاة والسلام، ويكشف

---

(١) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٥٤.
(٢) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص١١٣.
(٣) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٤٢١.
(٤) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٢١٢.

عنه العذاب إلى أمد معلوم»[1]، كي «يمهّد لهم سبيل التوبة، ويقيم عليهم الحجّة»[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»[3]، وقال: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنّة»[4].

«لكنهم ينكثون ذلك العهد القاطع الذي منحوه لموسى»[5]، ويواجهون كل هذه الآيات «بالعناد والمراوغة، والإصرار في النهاية على ما هم فيه»[6].

فهم يعلنون أنهم سيبقون «على خطّهم المنحرف، مهما تكثر الآيات والدلائل، التي يزعمون أن موسى يريد أن يسحرهم بها»[7].

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف].

«وكلمة 'لك'، توحي أن العناد لدافع شخصي لا مبدئي»[8]، وما كان العناد يوماً لدافع مبدئي بل «إنه مرض من يتّخذ موقفه من قبل، دونما رويّة أو تفكير»[9]. فهو «يتلقّى التجارب المتنوّعة وكأنها واحدة؛ لا يفيد منها شيئاً، ولا يجد فيها عبرة»[10].

---

(١) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٤٢٣. مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٢١٢.
(٢) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٢١٢.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٤/٣٩٧.
(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٥) الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، ٨/٢٢٨؛ التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٤٢٣.
(٦) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ٩/٩.
(٧) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٤٢٢.
(٨) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٢١٢.
(٩) التسخيري، محمد علي، والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٤٢٢.
(١٠) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ٩/٤٨.

وجميع الذين عاندوا واستكبروا، «أوقفهم الله في دائرة الحاجة، قبل أن يضربهم عذاب الاستئصال كي يستغفروا؛ لكنهم خرجوا من الدائرة، وهم يشهرون مخالبهم، في وجه كل طاهر»[1].

المطلب الثالث: كفّار قريش: إن الآيات البيّنات مبثوثة في أرجاء الكون الفسيح، وإن الأدلّة والبراهين العلمية، مشاهدة كل يوم.

ولكن ذلك كلّه، لم يغن شيئاً، ولن يغني شيئاً، إذ إن العلم بالشيء غير الاعتبار به؛ والاعتماد على العلم وحده، دون عنصر الاعتبار، لا يمكن أن يؤدّي إلى المعرفة المطلوبة والمغنية.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس].

«إن ما في السموات والأرض حافل بالآيات والنذر، ولكن الآيات لا تفيد الذين لا يؤمنون، لأنهم، من قبل، لم يلقوا لها بالاً، ولم يتدبّروها»[2].

وهؤلاء الذين لا يعتبرون يغدو سؤالهم، لآيات أخر، «سؤالاً جزافاً لا يصدر إلا ممّن لا يخضع للحق، ولا ينقاد للحقيقة، إنما يلغو، ويهذي بما قدّمت له أيدي الأهواء، من غير أن يتقيّد بقيد، أو يثبت على أساس»[3].

ولقد سأل كفار قريش، كما سأل من قبلهم، السؤال الجزاف، وبعد كل ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن.

المطلب الرابع: السؤال الجزاف: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا

(١) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٧٧.
(٢) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٣/ ١٨٢٢.
(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٥/ ١٣٠.

﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء].

إن هؤلاء لا يريدون الإيمان بالله، ويطالبون بآيات خارقة للعادة، يقترحونها على النبي محمد (ص)، كشرط من شروط الإيمان، «لعلمهم بأن ذلك غير وارد في رسالته، فإن الآيات ليست لعباً ولهواً لكل من يريد أن يلهو ويلعب، بل هي خاضعة للحكمة الإلهية، التي لا تنزل أي شيء إلا بمقدار الاستجابة للضرورة، التي يدعو إليها موقف النبوات في بعض حالات التحدّي التي تواجهها بقوة»[1].

ثم إن قضية الإيمان، في واقعها الأصيل بالنسبة لمن يريد الوصول إلى الحقيقة، ليست مرتبطة بالآيات، «بل هي مطروحة في كل مكان، وفي كل موقف من مواقف الإسلام في الحياة.

فلم يبق إلا المكابرة، ومحاولات التبرير الواهية، التي لا تستند إلى أساس»[2]، من أولئك الذين سيطرت عليهم دوافعهم، فانقادوا لها، انقياد من غاب وعيه، بعد تعاطيه مخدر من المخدرات؛ «فالدوافع تعمل على تعطيل العقل، عندما تكون هي المسيطرة، وتمنع الإنسان من استخدام حواسّه، ومداركه بشكل سليم، ممّا يعرضه للهلاوس، والأباطيل المضلّلة، والأوهام الخادعة، فلا يرتدع، ولا يتراجع؛ ولا يملك القدرة على الإفلات من قبضة الاعتماد النفسي على تلك الدوافع»[3].

ومن هنا كان «لا بد من السيطرة على الدوافع الجسدية والغرائز البشرية، وتنظيم إشباعها، بما يعود بالخير على الإنسان نفسه، في دنياه وأخراه، وهذا ما جاء به الإسلام»[4].

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٧٧.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٧١.
(٤) معروف، نايف: الإنسان والعقل، بيروت، سبيل الرشاد، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص١٤١.

المبحث الثالث: صور صفيقة منكرة

إن الله سبحانه، الذي يعلم طبيعة الكفّار، ويعلم إصرارهم على باطلهم، يقرّر أن لو تم لهم ما سألوه، لم ولن يؤمنوا. وتوجد بعض الآيات، التي تجسّد هذا الموقف تجسيداً حيّاً، «يظهر بوضوح فظاعة المكابرة، التي يلجأ إليها هؤلاء، في موقف الإنكار والجحود الأعمى»[1].

المطلب الأول: لو عرجوا في السماء، فلن يؤمنوا: قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[2] [الحجر].

لقد كان يعظم في أعين كفّار قريش، العروج والترقّي في السماء، ولذا فقد سألوه رسول الله. ولقد اختار الله سبحانه هذه الخارقة، التي يُظنّ أنها ترفع الشبهة، وتزيل الريب عن النفوس: فتح باب السماء، والعروج[3] فيه.

«وعروج الإنسان في السماء، يعني نفوذه في العالم العلوي، مأوى الملائكة الكرام، ومحل صدور الأحكام والأوامر الإلهية، وفيها ألواح التقادير، ومنها مجاري الأمور، ومنبع الوحي، وإليها صعود كتاب الأعمال.

ويعني اطّلاعه على مجاري الأمور، وأسباب الخوارق، وحقائق الوحي، والنبوّة والسعادة والشقاوة.

وبالجملة يوجب إشرافه على كل حقيقة، وخاصة إذا كان عروجاً مستمراً لا مرة ودفعة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾، حيث عبّر بقوله: ﴿فَظَلُّوا۟﴾، ولم يقل: فعرجوا»[4].

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٧٠.

(٢) السَّكرُ: اسم لما يكون منه السُّكر، والسُّكر حالة تعرض بين المرء وعقله. والسَّكرُ: حبس الماء، وذلك باعتبار ما يعرض من السد بين المرء وعقله. ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ قيل هو من السُّكُر، وقيل هو من السَّكر. و﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾، أي حبست عن النظر وحيرت، وقيل: غطيت وغشيت، انظر: الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٢٣٦؛ الرازي: مختار الصحاح، ص٣٠٦؛ ابن منظور: لسان العرب ٣٠٦/٦؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص٥٢٤.

(٣) العروج: ذهاب مع صعود. انظر: الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٣٢٩.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٣٦/١٢.

فالفتح والعروج بهذا النعت، يطلعهم على أصول هذه الدعوة الحق، «ولكنهم لقوة كفرهم، وعنادهم، ومكابرتهم للحق»[1]، «ولما في قلوبهم من الفساد، وفي نفوسهم من قذارة الريبة، والشبهة المستحكمة»[2]،

«يخطئون أبصارهم فيما يشاهدون، بل يتّهمون النبي أنه يسحرهم، فهم مسحورون من قِبلِه»[3].

إنهم، وكما وصف السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، أشباههم، فيما نسب إليه من قول:

«مهما سمعتم لا تفهمون

ومهما نظرتم لا تبصرون،

لأن هذا الشعب تحجّر قلبه

فسدّوا آذانهم وأغمضوا عيونهم،

لئلّا يبصروا بعيونهم،

ويسمعوا بآذانهم،

ويفهموا بقلوبهم،

ويتوبوا فأشفيهم»[4].

المطلب الثاني: لو نزل كتاب في قرطاس، فلن يؤمنوا: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام].

صورة أخرى للعناد، «تتمثّل في إنكار الواضحات، والتمحّل ببعض

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/٥٤٧.
(٢) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ١٢/١٣٦.
(٣) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٤) (متى ١٣: ١٤ ـ ١٥)، (لوقا ٨: ٩ ـ ١٠)، (مرقص ٤: ١٠ ـ ١٢).

الطلبات»[1] كإنزال الكتاب.. الذي سألوا رسول الله أن ينزله عليهم يقرؤونه: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء/ ٩٣].

والصورة تشير إلى شدّة عناد الكفّار، وإلى نموذج «النفس المكابرة للحق، التي يخرق الحق عينها ولا تراه، والتي تنكر ما لا ينكر، لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره، على الأقل من باب الحياء.

إنه ليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات الله، أن البرهان على صدقها ضعيف، أو غامض، أو تختلف فيه العقول»[2].

بل إن الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف هو «الغطرسة التي تلقي بالتُّهم هكذا جزافاً بلا تدبّر ولا دليل»[3]؛ وهو «المكابرة الغليظة، والعناد الصفيق؛ وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار، وعدم اعتبارهم البرهان أو النظر إليه أصلاً»[4].

فقد «عطّلت الاتجاهات الباطلة، أو الخاطئة، العقل، وجمّدت الحسّ، ونفت المشاعر، ودفعت إلى الانقياد الأعمى»[5]، «بل لو أن الله سبحانه نزّل على رسوله كتاباً حسّياً»[6]، «فلمسوه بأيديهم، فناله حسّهم بالسمع والبصر، وتأيّد بعض حسّهم ببعض»[7] ـ إذ إنهم «لمسوا هذه الورقة بأيديهم، لا سماعاً من غيرهم، ولا مجرد رؤية بعيونهم»[8] ـ «فإنهم قائلون حينئذ لا محالة، جازمين مؤكّدين: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام] ولم يسلّموا بهذا الذي يرونه ويلمسونه»[9].

---

(١) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٢٦.
(٢) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٢/ ١٠٣٩.
(٣) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٧٨.
(٤) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٢/ ١٠٣٩.
(٥) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٧١.
(٦) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٢٦.
(٧) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٧/ ١٨.
(٨) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ٢/ ١٠٣٩.
(٩) المرجع نفسه، الموضع نفسه؛ الطباطبائي، الميزان، ٧/ ١٨.

وهذه صورة صفيقة منكرة، تثير الاشمئزاز «وتستعدي من يراها عليها، صورة تثير النفس لتقدم فتصفعها، حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجّة، أو دليل أو جدل»[1]، «فلا ينبغي أن يعبأ باللغو من قولهم، كما ورد في التنزيل: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء/ ٩٣]»[2].

«فليس القضية آيات تقترح، ليستجاب لها أو لا يستجاب، بل القضية فقدان الاستعداد للإيمان، مهما كانت الآيات والبراهين»[3].

وعلى هذا، فليس للمؤمنين أن يصدّقوهم، مهما بالغوا في القسم وأكّدوا وغلظوا. فالله سبحانه يعلم «طبيعة التكذيب في هؤلاء المكذّبين»[4].

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام].

إنه لمن علامات النفاق، أن يدرك هؤلاء «عظمة القسم بالله سبحانه، بل ويغلظون الأيمان بكل طاقتهم، معلنين كذباً أنهم إذا واجهوا آية مقنعة آمنوا بها»[5].

ولكن القرآن يكشف نيّاتهم معلناً «أن الآيات عند الله، في ملكه وتحت سلطته لا ينالها أحد إلا بإذنه، وليس إلى الرسول من أمرها شيء حتى يجيبهم من تلقاء نفسه»[6].

ولكن ما يدريكم أيها المؤمنون أن الآيات، مهما تكان واضحة، لن تؤدي إلى أي فهم.

«فالقلب الذي لا يؤمن بآيات الله المبثوثة في هذا الوجود ـ بعد توجيهه

---

(١) قطب، سيد: الظلال، ٢/ ١٠٣٩.
(٢) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٧/ ١٨.
(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٧١.
(٤) قطب، سيد: الظلال، ٧/ ٣٠٧.
(٥) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٥٨.
(٦) الطباطبائي، محمد حسين: تفسير الميزان، ٧/ ٣١٩.

إليها على هذا النحو العجيب، الذي تكفّل به هذا الكتاب العجيب - ولا توحي آيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق إليه، أن يبادر إلى ربه، ويثوب إلى كنفه،

إن هذا القلب، هو قلب مقلوب، والذي عاق هؤلاء عن الإيمان في أول الأمر، ما الذي يدري المسلمين الذين يقترحون إجابة طلبهم، أن يعوقهم عن الإيمان بعد ظهور الخارقة»[1].

المطلب الثالث: الدعاء الغريب والعناد الجامح: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

«هذه صورة أخرى من العناد الجاهلي، المبالغ في الجحود والإنكار. فبدلاً من أن يدعوا ربهم لهدايتهم للحق؛ فإذا الكبرياء تصدّهم عن الاستسلام له والإذعان لسلطانه؛ وإذا بهم يتمنّون على الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء، أو أن يأتيهم بعذاب أليم فيهلكهم إن كان ما يقوله الرسول حقاً.

وهو دعاء غريب، يصوّر حالة من العناد الجامح، الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى لو كان حقاً.

إن الفطرة السليمة، حين تشكّ، تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن يهديها إليه، دون أن تجد في هذا غضاضة.

ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة، تأخذها العزة بالإثم، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب، على أن تخضع للحق، عندما يكشف لها واضحاً لا ريب فيه»[2].

---

(١) قطب، سيد: الظلال، ٣٠٧/٧.

(٢) انظر: قطب، سيد: الظلال، ٢٦١/٩؛ الشوكاني: فتح القدير، ٣٠٣/٢؛ التسخيري، محمد علي، والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٤٦١.

المطلب الرابع: الاستعادة التلقائية للسلوك: «لقد سبق القرآن الكريم النظريات السلوكية الحديثة، التي تناولت موضوع الاستعادة التلقائية للسلوك.

ويشير في ذلك إلى أن السلوك، الذي سبق انطفاؤه، قد يضعف مؤقتاً، ولكن يعود قوياً، كما كان، في حالة وجود المنبّه، الذي اقترن به سابقاً، وكان السبب في حدوثه»[1].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

«ونرى في هذه الآية مشهداً للاستخذاء والخزي والندامة والحسرة، منعبثاً من نفوس المشركين، حينما يقفون على النار يوم القيامة، ليقولوا بكل ألم: يا ليتنا نرجع إلى الدنيا مؤمنين مطيعين، ولات حين رجوع.

ليتَ وهل ينفع شيئاً ليتْ ... ليتَ الشبابَ بوع فاشتريتْ

إنهم الآن لا يملكون الإعراض والتولّي ولا يملكون الجدل والمغالطة. فليس إلا أن تظهر ملكاتهم النفسانية يوم القيامة، إذ قد اعتادوا التمنّي في ما لا سبيل لهم إلى حيازته.

ولكن الآية الشريفة، توضح أنه لم يتغيّر شيء في الموقف «سوى أنهم كانوا يخفون استيقان نفوسهم بالله في حياتهم الدنيا»[2].

وها هم اليوم يعلنون ذلك خوفاً، بعد أن تكشّف لهم من سوء عملهم، وسوء مغبّتهم، ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم، ليوهموهم أنهم محقّون، وأنهم ناجحون، وأنهم مفلحون.

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٣٧.

(٢) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٣٢. الطباطبائي: الميزان، ٥٣/٧. وذلك نقلاً عن تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

ولكن الله سبحانه، يعلم طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار، هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني، وهذه الوعود.

فإذا عادوا إلى حياتهم الدنيا، عادت مطامعهم، واستهوتهم الحياة الدنيا وزينتها، وزخرفها ولهوها ـ وهذا منبّه ـ واستهواهم العناد، وعادوا للعصيان، وأدّى وجود المنبّه إلى عودة الاستجابة السابقة، وهي الشرك بالله، والكفر به[1].

(١) انظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٧/ ٥٢ ـ ٥٤؛ وقطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠؛ القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٣٧؛ التسخيري والنعمان: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٣١ ـ ٣٣٢.

ختام الفصل

ليس ينقص الذين يلجون في الضلالة، «أنه لا توجد أمامهم، دلائل وبراهين، إنما الذي ينقصهم آفة في القلب، وعطل في الفطرة»[1].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت/ ١٧]. «هذه استعارة، والمراد بالعمى هنا، ظلام البصيرة، والمتاه في الغواية، فإن ذلك أخفق على الإنسان وأشد ملاءمة للطباع، من تحمّل مشاق النظر، والتلجّج في غمار الفكر»[2].

وهكذا فإن المعاندين لا يستجيبون لدعوة الحق، لو نزل إليهم الملائكة! ولو بعث لهم الموتى يكلّمونهم. «ولو حشد الله عليهم كل شيء، في هذا الوجود، يواجههم ويدعوهم إلى الإيمان»[3].

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت/ ٥].

هذه استعارة، والأكنّة جمع كنانة، وهو الستر والغطاء، مثل عنان وأعنّة، وسنان وأسنّة، وليس هناك على الحقيقة شيء ممّا أشاروا إليه، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة، على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، ونواصع البيان، فكأنهم من قوة الزهادة فيه، وشدّة الكراهة له، قد وقرت أسماعهم من فهمه.

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ٣٠٨/٧.
(٢) الرضي، الشريف محمد بن الحسين: تلخيص البيان، ص١٩٥.
(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ٣٠٧/٧.

«وذلك معروف في عادة الناس، أن يقول القائل منهم، لمن يشنأ كلامه، ويستثقل خطابه: ما أسمع قولك، ولا أعي لفظك. وإن كان صحيح حاسة السمع، إلا أنه حمل الكلام على الاستثقال والمقت»[1].

وكــلام ســيّــىء قــد وقــرَتْ أذنــي عــنــه ومــا بــي صَــمَــمُ

ولكن ذلك التعنّت وتلك الكراهية، لن يغنيهما شيئاً، فإن ما يحدث من الإنسان الواعي، «الذي يملك كل وسائل الإدراك، لا ينفع فيه الإنكار، ولا يزيله الاعتذار، ولا ينفع فيه الجدل، لأن لكل مسؤولية جزاءً مناسباً لطبيعة السلوك، أو النشاط الذي قام به الفاعل»[2].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

---

(١) الرضي، الشريف محمد بن الحسين: تلخيص البيان، ص١٩٤.
(٢) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٣١.

الفصل الثامن

اتّباع الهوى والشهوات

المبحث الأول: أسرى الهوى والشهوة

تمهيد:

إن من أول أهداف الأنبياء تحرير الإنسان من القيود، التي تحدّ من مسيرته التكاملية، وتكبّل إنسانيته المتسامية. لذا فمن الطبيعي أن تتّجه الرسالات الإلهية إلى ضغط الشهوات الحيوانية في الإنسان، وتحديدها وتهذيبها، وذلك بتقوية إرادة الإنسان، وتحويله إلى موجود يتحكّم في أهوائه وشهواته.

إذ إن كل رغبة نحو الارتكاس في الشهوات، وكل عمل يدفع بالإنسان إلى الانحدار في البهيمة، يدفع به، في الوقت نفسه، إلى الابتعاد عن خط الرسالات الإلهية. «وقد نص الكتاب العزيز في مواضع غير قليلة منه، على أن المعرضين عن الإسلام، ما أعرضوا عن علم ولا عن قناعات، لكن اتّباعاً للهوى، وخضوعاً للشهوات والميول الذاتية، التي لا تقوم على منطق أو برهان»[1].

وفي كلّ تاريخ الأمم والشعوب، نجد الشهوات، واتّباع الهوى، من أكبر العقبات التي وقفت في وجه الرسالات الإلهية. «والدوافع الحيوانية، هي التي دفعت المعارضين لأن يعارضوا الأنبياء، ويصدّوا عن سبيل الله. وكذلك كانت

---

(١) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٦٧.

الأهواء دوماً، هي الدافع لحكّام الظلم والجور، أن ينزلوا نقمتهم بالفئة المؤمنة، ولأن يعاملوا الصالحين بأنواع القسوة والشدّة، وذلك لأنهم يرون، في هؤلاء المؤمنين والصالحين، خطراً على انغماسهم في شهواتهم الهابطة»[1].

تعريف:

«الهوى: ميل النفس إلى الشهوة. ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة. وقيل: سمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية، وفي الآخرة إلى الهاوية. والهوى سقوط من علو إلى أسفل»[2] الهوى: هوى النفس[3]؛ «الشهوة: أصل الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده وذلك في الدنيا، وهي ضربان صادقة وكاذبة:

فالصادقة: ما يختلّ البدن من دونه كشهوة الطعان عند الجوع.

والكاذبة: ما لا يختل البدن من دونه: ففي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم/٥٩]؛ فهذا من الشهوات الكاذبة»[4].

المطلب الأول: أعدى الأعداء: ليس أصعب على الإنسان من حرمان النفس، ما تشتهيه، وهذا ما لا يستطيع أن يجهله أحد، ولا يستطيع أن ينكره أحد.

وليس ما تسعى إليه النفس وتشتهيه، محصوراً في المتع واللذات الحسية فقط، بل تتمادى في تطلّعها، فتشمل اللّذات والمتع العقلية، كحب المديح، والتكريم، والمبالغات في التعظيم.

---

(١) المحلاتي، هاشم الرسول: عقاب الذنوب، ترجمة: محمد علي آذرشب، بيروت، دار البلاغة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص١٦٨.

(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص ٥٤٨؛ ابن منظور: لسان العرب، ١٦٧/١٥؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص ١٧٣٥.

(٣) الرازي: مختار الصحاح، ص ٧٠٢؛ ابن منظور: لسان العرب، ١٦٨/١٥.

(٤) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص ٢٧٠.

«فالإسلام يذكّر الإنسان بأن إشباع النفس بشهواتها، يجعل الروح في غطاء من الغيوم السوداء، وستختفي بذلك نورانيّتها ـ وهي ما يقوده فيها إلى الكمال الإنساني ـ في خضمّ هذه الغيوم المظلمة»[1].

وبمقدار ما تنطوي تلك النفس «على شوائبها ورعونتها، يغدو صاحبها مجرّد أداة للإفساد في الأرض، ولإهلاك الحرث والنسل، ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية، مهما تحلّى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة»[2].

وقد تخفى هذه المتع وتدقّ، إلا على الخبير البصر، فيقع البشر فرائس «لنفوسهم وهم لا يعلمون. وما أكثر ما يروي لنا التاريخ عن جبابرة، وقادة فتحوا الآفاق، ونشروا سلطانهم في كل مكان، لكنهم سقطوا أمام إغراء الجمال أو إغراء التوسّع في المال والجاه والسلطان.

أو أمام شهوة حارّة من الشهوات الخفية أو الجليّة، فسقطوا في المهلكة، وخسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة»[3].

وما أصدق محكم التنزيل عندما قال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

«فلا يصير السعي إلى ضلال، إلا إذا أعطى الإنسان نفسه القياد، وأصبح عبداً أسيراً لهواها»[4].

وما أصدق قول رسول الله: «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك». رواه البيهقي في الزهد[5].

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٩٠.

(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دمشق، دار العلم، تصوير عن ط٢/ ١٩٨٧، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص١٦١.

(٣) عضيمة، صالح: مجلة العالم، العدد ٢٠١، السبت ١٩ كانون الأول ١٩٨٧م، ٢٨ ربيع الآخر ١٤١٨هـ، ص ٣٩.

(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٥) الجراحي، الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢ ن ١٣٥١هـ، ١/ ١٤٣.

قال أبو أشهب العطاردي: أوحى الله تعالى إلى داوود عليه الصلاة والسلام: «يا داوود حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلّقة بشهوات الدنيا، عقولها عني محجوبة.

وإن أهون ما أصنع بالعبد، إذا آثر شهوة من شهواته، أن أحرمه من طاعتي»[1].

ويقول الإمام علي (رض): «غالب الشهوة، قبل قوة ضراوتها، فإنها إن قويت ملكتك، واستقادتك، ولم تقدر على مقاومتها»[2].

وعنه: «عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق»[3].

المطلب الثاني: حديث القرآن: يحدّثنا القرآن الكريم عن رضوخ المشركين لأهوائهم، حين يصوّر لنا أنهم في اتّباع أهوائهم، أشبه بالعباد.

«فآلهتهم أهواؤهم، وهم إذ يفعلون ذلك ليسوا جهلة، لكنهم يفعلون ذلك عن علم؛ وهذا أوغل في الشناعة والانحراف»[4].

قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية].

وفي هذا تقرير قاعدة ثابتة، هي أن العلم لا يؤدّي إلى الهداية، ولا سيما «إذا سيطر الهوى عليه»[5].

إذ الهوى يحول بين الحق والفطرة، تلك الفطرة المصطلحة مع الحق الذي

---

(١) تفسير ابن كثير، ١٢٨/٣.
(٢) التميمي، عبد الواحد: غرر الحكم.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ٦٨.
(٥) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

فطرت عليه، والذي خلقت به السماوات والأرض، ولكنه الهوى، هو الذي ينشر الغبش، ويحجب الرؤية، ويعمي المسالك، «فالهوى شريك العمى»[١]، ويخفي الدروب، و«الهوى لا تدفعه الحمية، إنما تدفعه التقوى»[٢].

إذ الهوى يدفع بالمرء إلى «توليد القطعيات من المقدمات الظنية؛ وهذا ضعف في العلم. وسيطرة الأهواء على كيفية استخلاص النتائج والأحكام ضعف في الإخلاص والنزاهة»[٣].

والأسرى في قيد الشهوات يرجّحون آمالهم وأمانيهم، ومنافعهم الشخصية على العمل بالوظائف والتكاليف، وهذا هو منشأ سقوطهم وانحطاطهم، وتردّيهم «فالهوى يردي»[٤]؛ فلن يبلغ هؤلاء صعيد التكامل الإنساني أبداً[٥]، «فالشهوات آفات»[٦]، «ومصائد للشيطان»[٧].

يقول كارل: «إن إنساناً يحسب نفسه مطلق العنان، لا يشبه البازي المتجوّل في الفضاء اللا محدود، بل هو أشبه بكلب هرب من سكنه، وصادف أن جرّه حظه إلى شارع مزدحم، ليتجوّل فيه بين السيارات من هنا وهناك.

إن ذلك الإنسان، أيضاً، يستطيع أن يكون كهذا الكلب يعمل بهواه، فيذهب حيث يشاء، ولكنه أضلّ من هذا الكلب، إذ إنه لا يدري، أين يذهب، وكيف يتخلّص من المخاطر المحيقة به»[٨].

---

(١) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم، ١/ ٣٢.
(٢) قطب، سيد: الظلال، الدار العربية، ٩/ ٢٥٢.
(٣) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٤٤.
(٤) التميمي، عبد الواحد: غرر الحكم، ١/ ١٢.
(٥) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص ١٤٦.
(٦) التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم، ١/ ١٢.
(٧) المصدر نفسه، ١/ ١١٥.
(٨) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص ١٤٦.

أ ـ الكلب اللاهث:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

إن فريقاً من ذوي الضلالات الاعتقادية، لم يضلّوا لجهلهم بالحقيقة، بسبب عامل من عوامل الانحراف الفكري، عن منهج التفكير السليم، «وإنما ضلّوا، وأجرموا بسبب هروبهم من وجه الحقيقة، إرضاءً لشهوة من شهوات النفس، ورغبة من رغائبها»[1].

وكمثل لهذا الهروب من وجه الحقيقة، وللانحراف عن سواء الفطرة، الذي يصاب به الأفراد، فيقعدهم عن السير في طريق التكامل: ذلك الذي أتاه الله آياته، فكانت في متناول نظره وفكره، وأطلعه على الحقيقة بكل وضوح، وأعطاه من الآيات النفسية، والكرامات الخاصة الباطنية، بما يتنوّر به طريق معرفة الله، وينكشف له ما يبقى له معه ريب في الحق.

إلا أنه، وتبعاً لأهوائه وميوله الوضيعة، سحب نفسه من إطار الحقيقة الصافية، وتجرّد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي؛ وانحرف عن الهدى ليتبع الهوى.

وانسلخ من هذه الآيات «والسلخ نزع جلد الحيوان»[2]؛ وهذه استعارة «والمراد: أن الآيات كانت لزمته لزوم الجلد، ولكنّه رفضها بعد لزومها، ونزع ما ألبسناه من فخرها، وطوّقناه من ذكرها، وكان كالمنسلخ من ثيابه والمتعرّي من جلبابه.

لأن تلك الآيات، لما كانت بمنزلة الكرامات المفاضة عليه، فأغفل شكرها،

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٦٩١.
(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص٢٣١.

ولم يعرف قدرها، حتى ابتز ملابسها، وحرم نفائسها، جاز لهذه العلة أن يقال: انسلخ منها»[1].

وإذ ذاك، أصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واقٍ، ولا يحميه منه حامٍ، فيتبعه ويستحوذ عليه، ويصبح قريناً له، ولا يقوى على إنجاء نفسه منه.

ولو شاء الله سبحانه لرفعه بتلك الآيات، وقرّبه إليه لأن في القرب إلى الله ارتفاعاً عن حضيض الدنيا وقاذوراتها.

والإنسان، لما يتمتع به بفطرته، من طاقات، مؤهّل للارتفاع والتكامل.

ولكنه مال إلى الدنيا وزينتها، وأقبل على لذّاتها ونعيمها، وأخلد إلى الأرض: «وأصل الإخلاد اللزوم، يقال أخلد فلان بالمكان: إذا أقام به ولزمه، وأخلد إلى الأرض: أي: ركن إليها ظانّاً أنه يخلد فيها»[2].

وانساق إلى أهواء ضيّقة، وميول أرضية وضيعة، فعاد حيواناً لاهثاً لا ينفع معه إرشاد.

إذ مسخ في هيئة الكلب يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد؛ وهذه حال الكلب دائماً، في الحر والبرد، والتعب والراحة، والمرض والصحة، والري والعطش.

«وكذلك من ينقاد إلى أهوائه، وينطلق معها، ويتأصّل في نفسه حب الدنيا، فإنه لا يرعوي عن المعصية، في جميع أحواله، سواء وعظه الواعظ وذكره المذكّر، وزجرة الزاجر، أو لم يقع شيء من ذلك»[3].

---

(١) الرضي، الشريف محمد بن الحسين: تلخيص البيان، ص ٤١. الطباطبائي: الميزان، ٨/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٢) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص ١٥٤؛ الشوكاني: فتح القدير، ٢/ ٢٦٥؛ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان، ٨/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٣) انظر: قطب، سيد: الظلال، ٩/ ١٠٣ ـ ١٠٤؛ الشوكاني: فتح القدير، ٢/ ٢٦٥؛ الطباطبائي: الميزان، ٨/ ٣٢ ـ ٣٣؛ التسخيري، والنعماني: تفسير الأجزاء العشرة، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١؛ مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص ٢٢١؛ أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص ٢٧٩.

بل سجيته، التي لا يتركها، التكذيب بآيات الله «والسعي من أجل المتعة، والهرب من الألم تلك العبارة، التي حدّد فيها مبدأ الحياة الأساس اثنان من كبار فلاسفة الفكر المادي، هما أبيقور EPICURUS[1] في الماضي وهولباخ HOLBACH في الحاضر، في العصر الحديث»[2].

وقد أضحى مبدأ المادة، واللذة: «الإله الذي تعنو جباههم جميعاً بالخضوع لسلطانه، أي الغرب»[3].

ب ـ عبيد الهوى:

قد ينمو سلطان الهوى، فيهيمن على إرادة الإنسان، «وتتّخذه بمثابة الإله،

---

(١) أبيقور: (٣٤٠ ـ ٢٧٠ ق.م): فيلسوف يوناني، عرف الفلسفة بأنها إسعاد الذات بالمتعة العقلية، وهي الخير الأوحد. استقر بأثينا حيث اشترى الحديقة، التي ارتبطت في تاريخ الفلسفة، بأكاديمية أفلاطون ولوقيون، وأرسطو، وظل يدرّس بها حوالى ست وثلاثين سنة.
والأصل الحقيقي، في الأخلاق الأبيقورية، أن تقوم على اللذات، وهذه اللذات الإيجابية هي الأساس، وهي التي يجب على الإنسان أن يحرص كل الحرص في تحصيلها في أخلاقه... فالأصل، إذاً، في كل فعل أخلاقي، أن يتّجه إلى تحصيل اللذة، أو تجنّب الألم... وأبيقور يسخر سخرية شديدة من هؤلاء، الذين يندفعون وراء أوهام زائفة، هي أوهام اتّباع الخير للخير، أو الفضيلة للفضيلة، بصرف النظر عن كل لذّة أو تجنّب الألم.
وهناك من يقول إن فلسفته أخلاقية، أساسها لذة التكامل التي لا يعقبها ألم. وقد أسيء فهمه، فقيل إنه يدعو إلى الملاذ، على نقيض مذهبه. انظر، لترجمة أبيقور: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ١/ ٨١، ٨٧؛ الموسوعة العربية الميسّرة، ١/ ٤٣.

(٢) بيجوفيتش، علي عزت (رئيس البوسنة والهرسك): الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، قسم الترجمة، مؤسسة بافاريا في ألمانيا، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
الناشران: مجلة النور الكويتية، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ألمانيا، ميونيخ.
علي عزت: نشأ في قلب نظام شيوعي، ولكنه لم يستسلم له، بل ظل معتزّاً بإسلامه، مناضلاً صلباً، لا ينحني أمام موجات الإلحاد الطاغية. ولد عام ١٩٢٥، من أسرة مسلمة بوسنية عريقة بمدينة "كروبا" في جمهورية البوسنة والهرسك، التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفييتي. ألّف كتاب: الإسلام بين الشرق والغرب في أوائل الثمانينات. وكان هدفه، كما ذكر في مقدمة الكتاب: «محاولة ترجمة الإسلام إلى اللغة التي يتحدّث بها الجيل الجديد ويفهمها». قال المفكر الأوروبي، وود وورث كارلسن، وهو محايد لا ينتمي إلى دين المؤلف، ولا إلى عشيرته، معلّقاً على كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب»:
«إن تحليله للأوضاع الإنسانية مذهل، التحليلية الكاسحة تعطي شعوراً متعاظماً بجمال الإسلام وعالميته». المصدر نفسه، مقدمة الترجمة، ص ١٣ ـ ٢٠.

(٣) البوطي، محمد سعيد رمضان: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص ٦١.

ومتى وصل إلى هذا المستوى من التسلّط، أعمى، وأصمّ، وأبكم، وحجب العقل السليم، الذي يعقل صاحبه عن مزالق الشر»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والهوى، فإن الهوى يعمي ويصمّ»[2].

ويقول الإمام علي (رض): «إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل، واتّباع الهوى. أما طول الأمل فينسي الآخرة. وأما اتّباع الهوى، فإنه يصدّ عن الحق»[3].

إذ «العواطف القوية، والرغبات، من العوامل الشخصية التي تنمّي المعتقدات غير الصحيحة»[4].

فالمرء ليس عقلاً فقط، بل له مع هذا «شهوات يدعوه هواه إلى إجابتها»[5].

وحيث إن العقل السليم، يصعب عليه أن يعتقد الأمور الباطلة، ويسلّم بصحتها، «مهما اعترت هذه الأمور الباطلة، الشهوات بزخرفتها»[6]، فإن الإنسان غير السويّ، إذا أراد إرضاء شهواته العارمة، وغرائزه المنحرفة الشاذة، الناتجة في داخله بإلحاح متتابع، «حاول أن يتخلّص من التناقض الداخلي فيه، بين ما يعتقد وما يشتهي، أن يهرب من الحقيقة التي تقوم براهينها الجلية، في فكره، وفي فطرته، وذلك بأن يزيّن لنفسه شبهات حولها ويتصيّدها من الأوهام البعيدة، ثم يصطنع لنفسه قناعات خاصة، دون حجّة مقبولة»[7].

أي أنه يميل «إلى الاعتقاد بما يريد الاعتقاد فيه، أو احتاج إلى الاعتقاد

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/١٣٣.
(٢) السيوطي: الجامع الصغير، ١/ ٣٩٥، الحديث رقم ٢٩١٣.
(٣) الحراني، أبو محمد الحسن بن شعبة: تحف العقول، ص ١٤٤.
(٤) جورارد، سدني م: الشخصية بين الصحة والمرض (مترجم) ص ٩١.
(٥) موسى، محمد يوسف: فلسفة الأخلاق في الإسلام، ص ٣١.
(٦) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٩١.
(٧) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

به»[1]، بغية أن يمارس الشر، والضر، والرذيلة، دون أن يكون في حالة قلق داخلي «يتجلّى بالصراع الدائم في نفسه، بين الحقيقة، وبين الرغبة المنحرفة الشاذة. فإذا بلغ الإنسان هذه المنزلة الوضعية، فقد وصل إلى الدرك الأسفل من سوء الخلق، المنحرف عن كل فضيلة»[2]. وأضحى مطيعاً لغرائزه، أسيراً لها؛ «وبالتالي، سيفقد استقلاليته، وستضعف شخصيته، وينهزم في جميع المجالات»[3].

حيث إن مؤثّراً كبيراً، «يظل بالمرصاد، عند التعامل، مع كل حقيقة من الحقائق، وهو الهوى والمصلحة الشخصية»[4].

أ ـ قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان]، ومعنى ذلك: أنه جعل هواه آمراً يطيعه، «وقائداً يتبعه، فكأنه قد عبده، لفرط تعظيمه له»[5].

فالذي يتّخذ إلهه هواه، يعميه ويصمّه، فهو لا يسمع ما يلقي إليه، من خير وهداية. والقرآن الكريم، يقرن، في آيات عديدة، بين اتّباع الهوى، والسقوط في الضلالة. يقول سبحانه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]. إذ إن هؤلاء الناس، تنطمس بصيرتهم باتّباعهم لأهوائهم، «حتى يزيّن لهم سوء عملهم، فهم غير مستعدين نفسياً لرؤية الحق، ومعرفة جماله وجلاله»[6]، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [الحجر].

---

(١) جوراد، سدني. م: الشخصية بين الصحة والمرض، ص ٤٥.
(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٤٥.
(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص ١٣٦.
(٤) بكار، د. عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ١٨٣.
(٥) الرضي، الشريف: تلخيص البيان، ص ١١٤.
(٦) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٢/ ١٣٣.

٢ ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ [القيامة].

يقول الفخر الرازي في تفسير: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾: «إن إنكار يوم القيامة إما أن يكون عن شبهة، أو عن شهوة.

فإن كان عن شبهة، فقد أجاب الله تبارك وتعالى في الآية الأولى، عن هذه الشبهة، حيث قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة].

وأما إنكار المعاد، عن شهوة وهوى نفسه، فقد بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾.

أي أن الإنسان يريد أن لا يحدّ من شهواته، ولا يمنع لذائذه مانع. ومن هنا ينكر المعاد، ويوم القيامة، والحشر، والنشر؛ لأنه يرى في ذلك ما يحدّ شهواته، ويمسك عنانه، فينكر، ويقول مستهزئاً: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة]»[1].

وما أكثر الذين يقيمون حياتهم «حول محور الأهواء والشهوات، فما انسجم معها يقبلونه، وما خالفها يرفضونه، أو يؤوّلونه، بشكل يتّسم مع تلك الأهواء والشهوات»[2].

جـ ـ النفس الأمّارة بالسوء:

الإنسان كائن بشري خلقه الله وزوّده بالقدرات العقلية، حتى يتبيّن الحق من الباطل، ويتّخذ قراراته، ويصدر أحكامه، لأسباب عقلية منطقية «دون أن يترك لهواه واتجاهاته، أو معتقداته الفرصة، أن تدفع به إلى التمسّك بما هو باطل»[3].

وبالإضافة إلى هذه القدرة التي تحكم فتأمر وتنهي، هناك «قوة أخرى اندفاعية ذات أهواء، تتّجه نحوها بعوامل نفسية، فإذا أهملت هذه القوة

(١) الرازي، الإمام الفخر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ١٥/١٩٢.
(٢) المحلاتي، هاشم الرسول: عقاب الذنوب، ص ١٦٩.
(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٦٩.

الرعناء، وتركت تندفع وفق الأهواء، طغت وسيطرت على كيان الإنسان، مؤثرة الحياة الدنيا على الآخرة. وعندئذ يهوي الإنسان إلى الحضيض»[1].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

ويتولّد في نفسه الخبث، وتحدّثه نفسه بالشرّ والرذيلة «فإذا هو لم يقبل على الله»[2]، بل دسَّ نفسه« «والدس: إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإكراه»[3]، «وغَمَسَها في الرذيلة، وأوقعها في الأفعال المنحطّة»[4]، ودَفَعها «في وحل الطبيعة، وأسدل ستائر الشهوة والغضب على فؤاده، وأخفاه وراء حجب الأهواء والنزعات، فإنه قد أضاع رأس ماله»[5]، «وعاقبته الخيبة وعدم الظفر بالخير»[6]، وفقدانه الإرادة، منساقاً لدوافعه وغرائزه.

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ١٢٩/٢.
(٢) شيخو، العلامة محمد أمين: تأويل جزء عم، دمشق، دار ابن هاني، ط١، ١٩٩١، ص ١٦٣.
(٣) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص ١٦٩.
(٤) شيخو، العلامة محمد أمين: تأويل جزء عم، ص ١٧٣.
(٥) آملي، جوادي: معارف القرآن من خلال الحواميم السبع، ص ١١.
(٦) شيخو، العلامة محمد أمين: تأويل جزء عم، ص ١٦٣.

المبحث الثاني: الإنسان المنقاد

المطلب الأول: سيطرة الدوافع: تعمل الدوافع عادة كمحرّك داخلي للسلوك، «سواءً كان ذلك بشكل شعوري، أو غير شعوري. وعندما يبدأ الدافع في العمل بقوة، فإنه يسيطر على الإنسان ويجعله مندفعاً في سلوكه، بشكل لا يترك للفرد الحرية، في توجيه سلوكه أو السيطرة عليه.

ويكون الدافع، في هذه الحالة، شديد الإلحاح في طلب تحقيق هدفه، بلا أدنى إبطاء، وغير مكترث للعواقب، أو مفكّر في ما ينتج عن السلوك المصاحب له»[1].

وقد تناول القرآن الكريم مجال الدوافع، ناقش كثيراً من جوانبها، وبيّن مستوياتها وطرق عملها، ومواطن للصواب والخلل فيها.

فهذه امرأة العزيز، انقادت لنفسها ذات النزوع الجنسي المجرم، واستجابت لها بطرق غير مشروعة، فأنزلتها هذه النفس إلى مرتبة الحيوان الخاضع لسلوكه الغريزي:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف/ ٢٣].

وهؤلاء إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام، يتواطؤون على أخذه، استجابة لدوافعهم العدوانية.

وهؤلاء قوم لوط، تصبح الفاحشة ـ وأية فاحشة ـ لديهم «سنّة قومية ودستوراً للحياة»[2].

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٤٠.
(٢) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص ١٣٣.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف].

وما حدث قديماً، ما زال يحدث ويتكرّر، لأن طبيعة النفس البشرية، والدوافع الإنسانية، واحدة. هذه الدوافع التي حدت سارتر[1] على تكوين هذه الصورة المشوّهة «عن الله. وحالت التصورات، التي نكوّنها عن الله على ضوء رغباتنا وميولنا، بيننا وبين الله الحقيقي، فتعبّدنا لها معتقدين أننا نتعبّد لله، فيما لا نعبد في الحقيقة سوى أنفسنا»[2].

المطلب الثاني: الانتصار الأعظم: إن الكمال الحقيقي للإنسان، إنما يحصل حينما ينقذ نفسه من مضائق الشهوات واللذائذ الجسمانية، ويخطو خطوات جادة في سبيل الإنسانية، والارتقاء بمستوى شعوره وتهذيبه لنفسه، «ويحاول التعرف

---

(١) جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، فيلسوف وأديب فرنسي، ينتسب إلى المذهب الوجودي، وأهم مؤلفاته الفلسفية: الوجود والعدم؛ ترجمت أكثر كتبه إلى العربية. وخلاصة فلسفته أن الوجود يسبق الماهية. وقد كان السائد في الفلسفة المبدأ المضاد لهذا القول، وهو أن الماهية تسبق الوجود. أي أنه قبل أن يوجد العالم، كانت صورته وفكرته عند الله. أما الوجودية، فترفض ذلك وتقول: إن الوجود يسبق الماهية، أي أن الإنسان، مثلاً، يوجد أولاً، ويصادف، وينبثق في العالم، ثم يتحدّد من بعد.
فالإنسان في أول وجوده ليس شيئاً، ولا يمكن أن نحدّه بحد. وعلى ذلك، فليس ثم طبيعة إنسانية، بل إن الإنسان هو الذي يصنع نفسه، بما يختار لنفسه من أفعال.
وهذا يؤدي إلى أن الإنسان حر. فما دام الإنسان، في بدء وجوده، ليس شيئاً، وما دام هو الذي سيصمّم نفسه، فهو لا بد حر، بل هو الحرية نفسها. لترجمة سارتر. انظر: بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ١/ ٥٦٣ ـ ٥٦٦. غربال أشرف، وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ١/ ٩٤٢.

(٢) أكوستلي بندلي: إله الإلحاد، بيروت، منشورات النور، ص ١٥٥؛ عن كلاوي، رامي، روجيه غارودي: من الإلحاد إلى الإيمان، دمشق، دار قتيبة، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ١١.

على الفكر الأسمى، والأفق الأوسع، من منافعه ومصالحه الشخصية»[1].

وإن أعظم انتصار، تنتصره الإرادة الإنسانية، «هو انتصارها على أهواء النفس، وشهواتها، ووساوس الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم»[2].

ويشير القرآن الكريم إلى أن من يملك القدرة على كبح جماح نفسه يستطيع السيطرة عليها، «وأن يوجّهها إلى فعل الخير، وينهاها عن الشر، وحتى إن فعل ذلك فهو من الفائزين»[3].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]. وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

وقد نطق كثير من العقلاء والحكماء بما يفيد شيئاً من هذه المعاني، معاني ضبط النفس وكبح الهوى، ولجم الشهوات، «إذ للنفس انفعالات فيجب الاحتراس من سيّئها وعلاجها. وغرائز السوء من طبائع الإنسان، كامنة فيه كمون النار في العود»[4].

يقول ابن المقفع في أدبه الكبير: «إلا أن الرجل القوي، إذ كابرها ـ أي نفسه ـ بالقمع لها، كلّما تطلّعت، لم يلبث أن يميتها، حتى كأنها ليست منه»[5].

ويقول في أدبه الصغير: «على العاقل مخاصمة نفسه، ومحاسبتها، والقضاء

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الاخلاق، ص ١٨.
(٢) حبنكة: عبد الرحمن حسن الأخلاق الإسلامية، ١٢٨/٢.
(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ١٢.
(٤) موسى، محمد يوسف: فلسفة الأخلاق في الإسلام، ص ٣٣.
(٥) ابن المقفع، عبد الله: آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة، الأدب الكبير، الأدب الصغير، الدورة التيمية، رسالة في الصحابة، وآثار أخرى) بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦، ص ٣٠٢.

عليها، والتنكيل بها»[1]. فالمرء ليس عقلاً فقط، بل له مع هذا شهوات، «يدعوه هواه إلى إجابتها لسؤالها»[2].

فليتذكّر إذن ـ تذكّر أدب ـ قول حاتم الطائي:

وإنَّكَ إن أعطيتَ بطنَك سؤلَه وفرجَكَ نالا منتهى الذمّ أجمعا

ولينتفع بقول (بزر جمهر) من حكماء الفرس: «إذا اشتبه عليك أمران، فلم تدرِ في أيهما الصواب، فانظر إلى أقربهما إلى هواك فاجتنبه»[3].

والذي يجتنب أهواءه، وشهواته الدنيئة، والذي يتغذّى من أصول الإسلام، يُهدى إلى الحقيقة، «ويتّصل بجلال الله سبحانه وجماله، ويطرد كل ثناء باطل عليه، يؤدّي إلى اضلاله. وفي هذا، النمو الواقعي للشخصية في نظر الإسلام»[4].

عن أبي جعفر (رض) قال: قال رسول الله: «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي، وعظمتي وكبريائي، ونوري وعلوي، وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي، إلا شتّت عليه[5] أمره، ولبست[6] عليه أمور دنياه، وشغلت قلبه بها، ولم أوته إلا ما قدرت له.

وعزتي، وجلالي، وعظمتي، ونوري، وعلوي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبد هواي على هواه، إلا استحفظته ملائكتي، وكلّفت السموات والأرض برزقه وكنت له، وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة»[7].

وقال: «من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم

---

(١) ابن المقفع، عبدالله: آثار ابن المقفع، ص ٣٢٢.
(٢) موسى، محمد يوسف: فلسفة الأخلاق في الإسلام، ص ٣٣.
(٣) عيون الأخبار، ص ٣٧؛ عن موسى، محمد يوسف: فلسفة الأخلاق في الإسلام، ص ٣١.
(٤) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٨٩.
(٥) تشتّت أمره: إما كناية عن تحيّره في أمر دينه، أو عدم انتظام أمور دنياه.
(٦) لبست عليه أمور دنياه: أي: خلطتها وأشكلتها، وضيّقت عليه المخرج منها.
(٧) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي ٢٢/ ٣٣٥.

يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله: «من جعل الهموم هماً واحداً ـ همّ العاد ـ كفاه الله هم دنياه. ومن تشعّبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديته هلك»[2].

وإن لم يسيطر الإنسان على شهواته، ويكبح جماح نفسه، بل ينساق خلف غرائزه وميوله المنحرفة، ويستعبده بطنه وفرجه، كما يرى فرويد «الذي أحدث أضراراً، أكثر من التي أحدثها، أكثر علماء الميكانيكا تطرّفاً»[3]، فإنه يتحوّل إلى وحش مفترس، ومخلوق ممسوخ.

(١) ابن ماجة: سنن ابن ماجة، شرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، المتوفى سنة ١١٣٨؛ حقّق أصوله الشيخ خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ٤/٤٢٤، الحديث رقم ١/٤١٠٥، باب الهم، بالدنيا.

(٢) المصدر نفسه، ٤/٤٢٥، الحديث رقم: ٢/٤١٠٦.

(٣) كاريل، الكسيس: الإنسان ذلك المجهول، ص ٣١٩.

المبحث الثالث: عبيد الدنيا

المطلب الأول: الكمال الباطل: «كل إنسان باحث، بفطرته، عن كماله وتقدّمه، ورقيّه وتعاليه، وحريص عليها.

وهو، حسب نظامه القيمي، يرى كماله في شيء معيّن، كالحسن والجمال والملاحة، والتناسب الجسمي مثلاً، أو الثروة والمال، أو القدرة السياسية، أو العلم والصناعة، أو المعنويات، أو . . .

ويقتفي أثر الأشخاص، الذين يتمتّعون بتلك الميزات»[1]، ويهدف من وراء تقليدهم إلى: التشبّه بالناس الكاملين، ويحقّق له هذا التشبّه طيب خاطر من ناحية، ويظهره في أعين الناس، أنه إنسان ذو كمال من ناحية أخرى.

وعلى كل حال، فإن كثيراً ما يحدث الخطأ في تعيين مصداق الكمال والنقص، والقيمة، وضدّها.

فقد يظن شخص، مثلاً، أن كمال الإنسان في الثروة، وجمع الأموال. ومثل هذا الشخص يظن أن الأثرياء والمتموّلين، هم الأسوة والقدوة «فيميل إليهم، ويحاول، بأقصى جهده، أن يتشبّه بهم، متتبّعاً لأرجاسهم»[2]، منحازاً تماماً إلى جانب، «ما هو من الثروة، وكثرة الأرزاق، مخدوعاً في ذلك بإغراءات الكسب، مهما كان شكله ومصدره، وبمظاهر النفع في أمور معاشهم الدنيوي، مؤثراً الدنيا على الآخرة، والفانية على الباقية، ومفضلاً العاجل على الآجل»[3].

---

(١) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، تعريب: محمد عبد المنعم الخاقاني، بيروت، دار الروضة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٢٦١. اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٩٨.

(٢) الحاشية نفسها.

(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٣٢٣.

مثل هذا الشخص المتتبّع لأرجاس المترفين، «لا يمكن أن يبقى طاهراً نزيهاً عملياً»[1].

إذ إن الرفاهية وما يصاحبها، من حالات عقلية، تقلّل، بل تقضي على الارتباط بأي نظام قيمي»[2].

قالى تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان].

المطلب الثاني: الترف والمترفون: الترف: التوسّع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف[3]. والمترف «مشتق من الترف، وهو يعني المنعم الذي أسكره وفور النعمة، وأصابه البطر، وذلك لأن «أترفه» يعني أعطاه كل ما أراد، ووفّر وسائل الراحة والرفاه. «وأترفته النعمة» يعني أن نعمة الدنيا أسكرته وأبطرته. و«المترف: اسم مفعول لهذين الفعلين، ويستعمل عادة بمعنى: المتنعّم المفرط في التمتّع باللذائذ والشهوات الدنيوية»[4].

وهؤلاء المترفون هم أوّل البادئين بالمعارضة لدعوة الأنبياء، ويتشدّدون في هذا المجال «فهم أكثر الناس كفراً وعناداً»[5]، ولا «يتقبّلون أي دعوة للإصلاح، ولا يستجيبون لأيّ من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولا إلى الدعاة»[6].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

فهي قصة معادة، وموقف مكرور، على مدار الدهور، «وهو: الترف، يغلظ

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٩٨.
(٢) بيجوفيتش، علي عزب: الإسلام بين الشرق والغرب، ص ١٢٥.
(٣) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص ٧٢.
(٤) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٣٥٥.
(٥) عمر، عمر أحمد: السنن الإلهية في النفس البشرية، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ص ٤١.
(٦) المصدر نفسه، ص ٤٢.

القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة، ويغشيها؛ فلا ترى دلائل الهداية، فتستكبر على الهدى، وتصرّ على الباطل، ولا تتفتّح للنور»[1]، بل تعمى عن رؤية الحقائق والأدلّة والبراهين «التي تساعد على صياغة القرارات الحق.. ولا ترى سوى انعكاسات الأفكار المريضة، والصور الأنانية»[2].

وتنشغل بالتكاثر في الأموال والأولاد ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر]، «ويلهيها ما في الدنيا من المناصب، والسلطان، واللذائذ المادية، عن التمتّع بذلك الكنز الثمين، وهو معرفة الله»[3].

«واعتاضت عن اتّباع آيات الله، بما التهت به من أمور الدنيا الخسيسة»[4] ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة/ ٩].

وأمور الدنيا هذه، وما هم فيه من متع زائلة زائفة، قد تطول، يجعلانهم يعتقدون أنهم على شيء، ويحسبون أن ذلك آية الرضى عنهم، فيغرّهم ذلك ويحملهم على ما هو فيه من ضلال[5].

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [الأنبياء/ ٤٤].

المطلب الثالث: محبوبة الكافر: إن الدنيا هي محبوبة الكافر وهدفه، فلا يريد سواها، فهو يطلبها حتى يأتيه الموت[6]. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [ابراهيم/ ٢ ـ ٣].

«وما أحقر هذا الإنسان، إذا ما تعلّق بزينة الحياة الدنيا الفانية، وترك الحقيقة الخالدة، التي هي سبب وجوده، ومصدر استمرار حياته»[7].

---

(١) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٩١٠.
(٢) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٣٢٤.
(٣) شيخو، محمد أمين: تأويل جزء عم، ص ٧١.
(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٣٨.
(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٣٨. قطب، سيد: الظلال، دار الشروق ٥/ ٢٩١٠.
(٦) آملي، جوادي: تفسير سورة إبراهيم، ص ١٨.
(٧) طبارة، عفيف طبارة: مع الأنبياء في القرآن، ص ١٣٩.

إذ استحبابه لهذه الحياة، «يصطدم مع تكاليف الإيمان، ويتعارض مع الاستقامة على الصراط»[1]، «فلا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض أحدهما ويحبّ الآخر، وإما أن يتبع أحدهما وينبذ الآخر، فأنتم لا تقدرون أن تخدموا الله والمال»[2]، كما ينسب للسيد المسيح عليه الصلاة والسلام. فالإسراف، والإغراق في التمتّع بالمتع الحسّية، والتفاخر والمباهاة بكثر الأموال والأولاد، واكتناز الثروات، تؤدّي، في كل الأحوال، إلى وقوف أصحاب المصالح المادية «موقف المعارضة، داخل الجماعة، ومحاربتهم للقوانين الإصلاحية»[3].

كذلك تؤدّي إلى استسلامهم أمام اللذائذ المادية الفانية، وذلك إنما يعني جعل «المادة أصلاً في الحياة، فتخيّم على القلوب، وتحول دون إشعاع الأنوار الإلهية منها. وبذلك تبقى محرومة عن الأفكار من حيث لا تشعر»[4].

المطلب الرابع السعادة والشقاء: «ترجع السعاة إلى أحوال النفس البشرية، أكثر مما ترجع إلى الأحوال الخارجية عنها، فلربما كانت الضحايا فوق مراقدها، أسعد من قاتليها. وكم من فالح أرض بيديه، يقضم الكسرة، أسعد بكثير من موسر متدفّق الثروة، تكاثفت حوله الهموم»[5].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ١٣/ ١٢٢.

(٢) انظر: متى (٦: ٢٤)، لوقا (١٦: ١٣).

(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٢٩٩.

(٤) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٩٣.

(٥) لوبون، غوستاف: سرّ تطور الأمم، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، ضبط نصوص ووضع حواشيه أسعد السحمراني وعدنان حسين، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٣٠. غوستاف لوبون: (١٨٤١ ـ ١٩٣١) عالم نفس واجتماع فرنسي، كان متعصّباً للعنصرية، معروفاً بنزعاته المضادّة للديموقراطية، ألّف عدداً من الكتب في علم النفس الاجتماعي، منها: روح الجماعات، السنن النفسية لتطور الأمم، فلسفة التاريخ، وقد ترجمت إلى العربية. اشتهر بكتابه: الحشد، أو دراسة العقل الجمعي؛ ولوبون من كتّاب الغرب، الذين أنصفوا الحضارة العربية، وأشادوا بفضلها على الحضارة الأوروبية، عندما نقلت تراث اليونان، وعندما وضعت تراثها الخاص، وذلك في كتابه: حضارة العرب، والذي ترجم إلى العربية. انظر الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/ ١٥٦٨ ـ ١٥٦٩.

قال رسول الله : «إن الله، بحكمته وجلاله، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط»[1].

وقال: «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن»[2].

(١) الحرّاني، أبو محمد الحسن بن شعبة: تحف العقول، ص ١٣؛ السيوطي: الجامع الصغير ١/ ٣٣٦.

(٢) السيوطي: الجامع الصغير ٢/ ٨، الحديث رقم: ٤٥٩٦.

ختام الفصل

يقول رسول الله: «إن أحساب أهل الدنيا الذي يذهبون إليه هذا المال»[1].

وقد قامت فئة الكافرين والمنافقين، بغرس هذه الثقافة عن الحسب، في عقول القوم.

وكان من قبلهم، من الكافرين، قد تورّطوا في مثل هذا الخيال الباطل، فقوم نوح، عليه الصلاة والسلام، كانوا يعدّون الفقراء والمساكين من جملة ناقصي العقول والمنحطين.

«ومن ناحية أخرى، يعتبرون اتّباعهم لنوح، عليه الصلاة والسلام، دليلاً على بطلان شريعته، وعلّة لعدم إيمانهم به»[2]: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود/ ٢٧]. ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء].

فالكافرون يعتبرون فقر المؤمنين، وتأخّرهم الاقتصادي والمالي، دليلاً على نقص عقولهم، وضحالة ثقافتهم. ويستدلّون بأن إيمان هؤلاء، وهم ناقصو العقول وسذّج في التفكير، «هو نفسه دليل على بطلان هذا الدين الجديد، وعدم اتّصافه بالحق»[3].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف].

ولذا فإنهم كثيراً ما كانوا يقترحون على نبيّ الإسلام الأكرم أن يبعد عنه الحفاة، أصحاب الثياب الرثّة، حتى يبدأوا معه حواراً، ولعلّهم يعتنقون دعوته.

---

(١) السيوطي. الجامع الصغير ١/ ٢٩٣، الحديث رقم ٢١٨٢.
(٢) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٢٦١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٢. أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص ٣٠.

وهم، بهذا، ليسوا طالبي حق. ولا يصغي لمنطق الحق، إلّا من كان ضالّته التي يطلبها، وحاجته التي يسأل عنها.

«أما الانتهازيون، فهم طلاب ربح وصيد، وما لهم في الحق، وفي الداعي له، مطمع. والكلام معهم ـ تماماً ـ كلام مع الأموات، ويستحيل أن ينتفعوا بشيء من الهدى والعلم»[1].

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل].

(١) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص ٥٠٤.

الفصل التاسع

الطغيان

المبحث الأول: الفرعون

تعريف:

الطغيان: تجاوز الحد في العصيان[1].

ويقال: طغى فلان: أي أسرف في المعاصي والظلم. والطاغية: الجبّار، والأحمق، والمستكبر. والمراد به هنا: من تولّى حكماً فاستبدّ وطغى، وتجاوز حدود الاستقامة والعدل، تنفيذاً لمآربه، فيمن تناوله حكمه، أو بلغت سلطته إليه.

وفي كتب اللغة، أن الطاغية لقب ملك الروم. وقد وردت بهذا المعنى في تواريخ العرب. ولعلّهم أرادوا بها، معنًى يفيد معنى اللفظ اليوناني: تيرانوس.

وأصل معناها، عندهم، ملك أو أمير. ووردت بهذا المعنى في بعض كتبهم وكتب الرومان[2].

والطاغية: من مارس سلطة مطلقة دون حقّ شرعي[3].

وكل شيء جاوز الحد فقد طغى[4].

---

(١) الأصفهاني: المفردات، ص ٣٠٤.
(٢) البستاني، بطرس: دائرة المعارف، مطبعة الهلال بمصر، ١٩٠٠م، ١١/١٦٥.
(٣) الموسوعة العربية الميسرة، ٢/١٤٧.
(٤) الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، ص٨.

المطلب الأول: أسوأ بني الإنسان: إن أسوأ أنواع الإنسان، هو الذي يسلك في يقظته «على النحو الذي قلنا إن الناس يسلكونه في منامهم»[1].

لأن الجانب العاقل يحدّ من الجانب الحيواني في الإنسان، ويكبته. فإذا نام هذا الجانب العاقل، وهو الجانب الإنساني، «انطلق الجانب الحيواني من عقاله يعربد كما يحلو له، وكأن الشخص، في هذه الحالة، هو مجرّد حيوان. فماذا نقول إذا أمسك هذا الحيوان الأكبر زمام السلطة في الأمّة؟»[2].

إنه يسعى لأن يتحكّم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم «بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب والمعتدي، فيضع كعب رجله في أفواه الملايين من الناس لسدّها عن النطق بالحق، والتداعي لمطالبته»[3].

فالطغيان لا يخشى شيئاً، كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ «ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى اليقظة والوعي؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزّون الضمائر الغافية»[4].

ومن ثم، فهو يحارب الحق بالبطش، ولا يسالمه أبداً. فمعنى المسالمة أن يزهق الحق، ويستولي في كل يوم، على النفوس والقلوب، ومن ثمّ يتّجه الطغاة أعداء الله «إلى استخدام جاههم وقوتهم وسلطانهم، لحماية معتقداتهم الباطلة، إذا ما غلبوا على أمرهم، وانقطعت حجّتهم، ولم يستطيعوا الاستمرار في النقاش، لقيام الحجّة على سوء اتجاهاتهم»[5].

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

وهكذا، يهيج فرعون على موسى، عليه الصلاة والسلام؛ ويثور، عندما يمسّ

---

(١) إمام، عبد الفتاح: الطاغية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ١١٦.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، بيروت، دار الشروق، ط٣، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٢٧.
(٤) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٥٩٢.
(٥) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٧٢.

موسى بقوله هذا أوتار القلوب، «فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ، بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة»[١]، عندما يفشلون ويسقط في أيديهم وتخذلهم البراهين على أنهم على شيء من الحق؛ فعندئذ، «يجعلون من القوة حقاً»[٢]. ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء].

وعادة ما تصادفنا مثل هذا المواقف في الحياة، ونرى فيها كيف يتّجه صاحب المنطق الأضعف إلى تعويض زيف رأيه، وضعف حججه، «باستعراض قواه الجسمانية، أو سلطانه، أو مركزه، واستخدامهم كأدوات للتهديد والتسلّط»[٣].

وعلى هذا «فالطاغية، لا يخلو من الحمق قَطّ، لنفوره من البحث عن الحقائق»[٤]، ولمحاولة طمس أفكار الآخرين، ومعارضة آرائهم، حتى لو كانت صائبة «بسبب مخالفتها لما هو قائم، رغم فساده وضلاله»[٥]، ولأن الثورة الوحيدة، التي يخشى منها، «هي الثورة في الأفكار»[٦].

إذ لا يخفى على المستبدّ، مهما يكن غبيّاً، أن لا استعباد ولا اعتساف «إلا ما دامت الرعية حمقاء، وتخبط في ظلامه جهل، وتيه عماء»[٧].

«فلو كان الطاغية طيراً لكان خفّاشاً، يصطاد الهوام في الليل، ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقّف دواجن الحواضر في غشاء الليل، ولكنه هو الإنسان، يصيد عالمه جاهله»[٨].

---

(١) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٥٩٢.
(٢) غارودي، روجيه: ملف إسرائيل، نقله إلى العربية فئة من المتخصّصين، بإشراف محمد ياسر شرف، دمشق، دار الوثبة، ص ٤٩، وهذا القول لباسكال.
(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٧٢.
(٤) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص ٥٠.
(٥) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٩٩.
(٦) لوبون، غوستاف: سر تطور الأمم، ص ١٢٥.
(٧) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص ٤٧.
(٨) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

«ولو لم يكن من نوع سافل منحطّ، لما طمع في بسط نفوذه وسلطانه على بلاده»[1].

المطلب الثاني: الطاغية... الإله: وقد يستغلّ المنحرفون بجنون العظمة، في تضليلهم، بعض القوى الفطرية التي منحهم الله إياها، كقوّة التأثير على الأفراد والجماعات، وكقوّة الفصاحة اللسانية، ونحو ذلك. «وبها يضلّون كثيراً من السذّج أو البسطاء، أو المنتفعين الشهوانيين. ومن هؤلاء المصابين بهذا الجنون، أفراد في التاريخ، ادّعوا الربوبية[2].

إذ لم يكتف هؤلاء بتنصيب أنفسهم حكّاماً مطلقين، لا يحقّ لأحد من الرعية أن يرى غير ما يرون، أو يعتقد بغير ما يأذنون، بل يبلغ بهم التجبّر والتسلّط والطغيان حدّاً، يعلنون به عن ألوهيتهم، كما فعل فرعون موسى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص/٣٨].

وهؤلاء الفراعنة، حين يحتلّون مراكزهم، ويستمتعون بمزاولة سلطانهم. وتنمو لذّة الاستمتاع هذه بمرور كل يوم، يشعرون كأن الدنيا، قد دانت لهم، وأن كل شيء أضحى طوع بنانهم. ويجدون عند ذلك أن أي تطلّع للمستقبل، أو أي محاولة للتغيير، وأي دعوة لتجاوز الواقع الذي سيطروا عليه، وأمسكوا بعنقه، زعزعة لوجودهم، وهزّاً لعروشهم وتهديداً لتسلّطهم.

«والسيادة المهدَّدة توحي إلى صاحبها كراهة التجديد، لأنه يحسّ بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة، إن شاع ما جدّده بين الناس، فتبطل سيادته ببطلان القديم، الذي قامت عليه، وقيام الجديد الذي نسخه وعفاه»[3].

---

(١) ديورانت، ول: قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله شعشع، بيروت، مكتبة وهبة، ط٥، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١١٠، وهذا القول ليكون.

(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٩٥.

(٣) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية، ١/ ٢٦٣.

ولذا فإن مصلحة الفرعون، وعلى مرّ التاريخ، أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع؛ وأن يحوّل الواقع الذي يعيشه الناس، في ظل فرعونيّته، «إلى مطلق بل إلى إله»[1]، وإلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه.

إن الطاغية الفرعون يحاول أن يحبس كل الأمة في إطار نظرته هو، وفي إطار وجوده هو، لكي لا يمكن للأمة أن تفتّش عن مثل أعلى، ينقلها من الحاضر إلى المستقبل.

وإن ذلك دأب كل طاغية وكل فرعون، كما كان دأب فرعون موسى. وليست حالة هذا الفرعون إلا نموذجاً لحالة أضرابه من الفراعنة.

«بل هي حالة الزعماء، والقيادات، والوجهاء، وأصحاب النفوذ الذين يشعرون أن دعوة الحق تشكّل خطراً على الامتيازات والمصالح، التي يوفّرها الموقع الذي يحتلونه، والمنزلة التي يتبوّؤونها»[2].

(١) مطهري، مرتضى: المجتمع والتاريخ، تعريب محمد علي آذرشب، إيران، طهران، مؤسسة البعثة، ط١، ص١١٤.

(٢) مجلة الوحدة الإسلامية، مجلة أسبوعية تصدر عن المكتب الإعلامي لتجمّع علماء المسلمين، بيروت، العدد ١٢٢، ص ٤٠.

المبحث الثاني: الأساليب الفرعونية

«إن طبيعة النظام الفرعوني تؤدّي إلى أن ينقسم المجتمع إلى طوائف تخضع كلها، إن أمكن، لرغائب الطاغية ونزواته»[1].

وإننا نلجأ إلى الآيات القرآنية، الواردة في فرعون، لنعرف كيف كان هذا النموذج الكامل، والفرد الشاخص، للحاكم الظالم الكافر، «يستخدم الخطط والأساليب الشيطانية، للظفر بأهدافه الشريرة»[2].

وإن من أهم هذه الخطط والأساليب، التي لم يتخلَّ عنها مختلف الفراعنة أيضاً:

المطلب الأول: تقسيم المجتمع: وهو من أهم وسائل التمكين للفرعونية، ولكفرها، وهو سمة من السمات البارزة على مدار التاريخ.

ويشير القرآن الكريم إلى أن فرعون يعبث بوحدة الناس، ويبعثرها، لكي يحتفظ لنفسه بمكانة رفيعة بينهم، ويتسلّط عليهم، ويحملهم على طاعته والتبعية له. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص/ ٤].

وغالباً ما ينقسم المجتمع إلى طوائف ثلاث:

الطائفة الأولى: أعوان الفرعون:

وهم فئة ظالمة للآخرين، ضعيفة مستضعفة أمام فرعون، وهي التي تشكّل حماية للفرعونية، «وسنداً في المجتمع لبقائها، واستمرار وجودها وإطارها»[3].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سبأ].

وهذه الطائفة من أعوان الظلمة، هي الأقلّية، التي يسلّطها فرعون على

---

(١) مطهري، مرتضى: المجتمع والتاريخ، ص ١٤٦.
(٢) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٢٩٢.
(٣) مطهري، مرتضى: المجتمع والتاريخ، ص ١٤٦.

الأكثرية. وهي التي تبادر، دائماً، إلى ما تراه منسجماً مع رغائب فرعون، في الظلم والكفر والانحراف.

ويشير أفلاطون إشارة نافذة إلى أن هؤلاء الأعوان يمكن أن يخلقوا الطاغية، فيقول: «متى كثر هؤلاء الأشخاص في المدينة، وكثر غيرهم من أمثالهم، وأدركوا وفرة عددهم، فهم هم، تذرّعاً بحماقة الغوغاء، يبرهنون على أنهم والدو الطاغية، الذي هو أحدهم، وفي نفسه أكبر وأشرس مستبدّ»[1].

أي أنهم ينتقونه لأنه هو الشخص، الذي تنطوي نفسه على أكبر قدر من الطغيان، إن هؤلاء هم الذين يخلقون الطاغية.

وعلى أية حال، فإن فرعون، الذي يحاول إخضاع الناس لسلطته، «لا بد له من أن يتفاهم مع مجموعة من الناس، ولو كانت صغيرة، ويجعلهم موافقين له ومرافقين، ولو بالإغراء والتطميع، ثم يسلّحهم، ويسلّطهم على الناس»[2].

---

(١) أفلاطون: جمهورية أفلاطون، نقلها إلى العربية عن الترجمات الإنكليزية حنا خباز، مطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٢٩، ص ٢٤٢، الكتاب التاسع: المستبدّ. أفلاطون: فيلسوف يوناني عظيم، يعدّ، هو وتلميذه أرسطو وأمانويل كنت، أعظم فلاسفة العالم على طول التاريخ. وقد تلمذ أفلاطون لسقراط؛ ولد في أثينا على الأرجح عام ٤٢٧ ق.م. وتوفي عام ٣٤٧ ق. م. أسّس الأكاديمية، حيث علّم الرياضيات والفلسفة طول حياته، باستثناء رحلتين إلى سرقصة، حيث حاول تطبيق جمهوريته.
ومؤلفات أفلاطون عبارة عن محاورات، تقسم في مجموعات ثلاث، حسب زمان تأليفها، أوّلها المجموعة المعروفة باسم المحاورات السقراطية، والمجموعة الثانية وتتألف من عدة كتب في البلدان، وصعوبة تحصيل المعرفة، وفي الصواب والخطأ بمعناهما المطلق، وغير ذلك؛ وأهم كتب المجموعة الثالثة: الجمهورية، وهو في الدولة المثلى القائمة على العدل.
وقد وصف روسو كتاب الجمهورية، بأنه أجمل ما كتب في التربية. وقد رسم فيه أفلاطون صورة للمدينة الفاضلة كما تخيّلها وتمنّاها؛ فهو يقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات: ١ ـ الحاكم ٢ ـ المحاربين ٣ ـ الفلاحين والصنّاع.
ونظام التربية هو الذي يكشف عن استعدادات الأفراد الطبيعية، ويحدّد طبقة كل واحد منهم. والفلاسفة هم الحكّام في جمهورية أفلاطون.
ولقد ظلت نظرية أفلاطون التربوية تشغل الأفكار، حتى العصر الحاضر، واختلفت الآراء في تأويلها والحكم عليها. لترجمة أفلاطون: انظر، الموسوعة العربية الميسّرة ١٢/١٨١.
بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ١/١٥٤، ١٥٥، ١٨٣.

(٢) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٢٩١.

يرتكبون «كل جريمة فظيعة لحساب المستبدّ الذي يجعلهم يمسون ويصبحون مخبولين مصروعين، يجهدون الفكر في استطلاع ما يريد فعله بدون أن يطلب أو يصرّح. ولكم ينقم عليهم ويهينهم، لمجرّد أنهم لا يعلمون الغيب»[1]، أو لأنهم لم يحقّقوا استسلام الناس الآخرين له، وانقيادهم التام لسلطانه: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص/ ٤].

الطائفة الثانية: المتملّقون:

إنها الملأ الذي يحيط بفرعون، «وهؤلاء على مستوى نزوات فرعون دائماً، وأبداً؛ ولكنهم لا يباشرون الظلم مباشرة، بل إنّهم يشكّلون عامل إثارة لفرعون، ولكنها الإثارة التي يعلمون أن فرعون يرتضيها، وينشرح لها، ويتلقّاها بالسرور والارتياح»[2].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف/ ١٢٧].

الطائفة الثالثة: الرعاع:

وهي الطائفة الأدنى في السلسلة، التي يفرزها النظام الفرعوني، أو في سلسلة التجزئة الفرعونية للمجتمع.

إن الغاية النهائية للطاغية، الفرعون، لكي يحتفظ بعرشه، هي تدمير روح المواطنين، وزرع الشكّ وانعدام الثقة فيما بينهم، «وجعلهم عاجزين عن عمل أي شيء، أو فعل أي شيء؛ وكذلك تعويد الناس الخسّة والضعة، والعيش بلا كرامة، بحيث يسهل عليهم أن يعتادوا الذل والهوان»[3].

وذلك هو مآل المجتمع، الذي لم يظلّه اليقين بوجود الله عزّ وجلّ، «أن يتيه أفراده عن التعرّف إلى أنفسهم، ثم أن ينتهي بهم ذلك التيه، إلى أن ينقسموا

(١) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص ٥٠.
(٢) مطهري، مرتضى: المجتمع والتاريخ، ص ١٤٧.
(٣) إمام، عبد الفتاح: الطاغية، ص ١٤٤.

إلى قلّة عاتية باغية، تطفو على سطح المجتمع، وتنادي لنفسها بالربوبية، من دون الله عزّ وجلّ، وكثرة مستضعفة، مهينة، تدين ـ شاءت أم أبت ـ لسلطات تلك الربوبية، وأحكامها الجائرة الظالمة»[1].

بل إن في التاريخ ما يشير إلى أن الرعية قد «تبكم، أو لا تبالغ في الشكوى إذا تسلّط طاغية عليها، كأن الجبن يأخذ منها كل مأخذ»[2]، أو تعتاد «عن طريق الاستبداد المستمر، الخسّة والضعة والهوان»[3]، «فتخمد أنفاسها، وترضخ صاغرة، كأنها تتّقي شرّ نقمة الطاغية، وهي الصفة التي سوف يلصقها أرسطو بالشرقيين؛ ويرى أنهم يحملون طبيعة العبيد، ولهذا السبب لا يتذمّرون من حكم الطاغية»[4].

والأمر ليس كما بدا لأرسطو، بل، وكما بيّن القرآن الكريم، إن هو إلا: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].

المطلب الثاني: الاستخفاف: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾: أي حملهم أن يخفّوا معه، أو وجدهم خفافاً في أبدانهم وعزائمهم، وقيل: معناه وجدهم طائشين[5].

لقد أبان القرآن الكريم أن ضعف إرادة الجماهير هو السبب في تخاذلها واستخذائها، وطاعتها لذوي السلطان والأكابر المجرمين.

«ففي قصة فرعون وقومه، بيّن الله سبحانه لنا أن سبب طاعتهم له هو تسلّطه على إرادتهم باستخفافه لهم، أي: لم يجد لهم وزناً من إرادتهم العاقلة يثقل كيانهم، فتسلّط بقوّته الآثمة المنحرفة عن سبيل الهدى، فأطاعوه واتّبعوه في ضلالاته»[6].

---

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص ٥٨.
(٢) البستاني، بطرس: دائرة المعارف، ١٦٦/١١.
(٣) إمام، عبد الفتاح: الطاغية، ص ١٤٥.
(٤) البستاني، بطرس: دائرة المعارف، ١٦٦/١١.
(٥) الأصفهاني، الراغب: المفردات، ص ١٥٢.
(٦) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ص ١٦٩.

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، «فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثّرات، حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثّرات المصطنعة؛ ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك»[١].

ويلين قيادهم، ويصبحون أجهزة مسخّرة لأهوائهم وشهواتهم، بل قوة لهم، يصولون بهم ويجولون.

«والحاصل أن هؤلاء العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم، بسبب الخوف الناشىء عن الجهل والغباوة، يأسرهم الطاغية فيتهلّلون لشوكته، ويغصب أموالهم فيمجّدونه على إبقاء حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته... ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ»[٢]. وإذا نقم عليه منهم بعضُ الأباة، الذين ضاقت نفوسهم الطيّبة بالظلم، أنكر الناس عليهم ذلك، ودهشوا، وسمّوا هؤلاء الأباة سفّاكين أو جبّارين، وصبّوا عليهم لومهم.

«لأنه حين يشتدّ الظلم، ويفسد المجتمع، وتختلّ الموازين، ويخيّم الظلام، تفسد الفطرة العامة، حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه، ويرون البغي فلا تجيش نفوسهم لدفعه...»[٣]. «وإذا طال عليهم الأمر: تصبح هذه الأخلاق موروثة ومن صميم طباعهم، ذلك لأنهم ألفوا رؤية الطغيان ببطش ولا يتحرّكون، حتى وهموا أن هذا هو الأصل، أن هذا هو الأدب، وأن هذا هو الصلاح»[٤].

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة، إلا وهم فاسقون، إذ لمّا «أضاع الإنسان ربه، فقد الرجاء، وقويت في الجماعة حاسة التأثير، وصارت سريعة التحوّل، إلى الدرجة القصوى.

---

(١) قطب، سيد: الظلال، ٥/ ٣١٩٤.
(٢) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص ٤٩.
(٣) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء، ص ٢٥٠.
(٤) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٦٨٣.

ولم يعد أمامها من سدّ يردّ جماحها، فهي تموج بلا انقطاع، متنقّلة من جنون الفوضى إلى خنوع الاستبداد، مجرّد القول يثيرها، ولها كل يوم معبود جديد تسجد له في الصباح، وتعدمه في المساء.

يخيّل لك أنها تجدّ في طلب الحرية، وهي في الحقيقة تطاردها، وتسأل الحكومة أن تضع في أعناقها سلاسل وأغلالاً.

تقدّم الطاعة العمياء لأحقر شيعتها، وأضيق المستبدين نظراً»[1].

«حين يصير الناس في مدينة،

ضفادعاً مفقوءة العيون،

فلا يثورون ولا يشكون،

ولا يغنون ولا يبكون،

ولا يموتون ولا يحيون،

تحترق الغابات، والأطفال، والأزهار،

تحترق الثمار..

ويصبح الإنسان في موطنه،

أذلّ من صرصار»[2].

«ويكون موقف الطاغية هو موقف ذلك الذي يقطع الشجرة ليقطف ثمرة»[3].

المطلب الثالث: المكايد الشيطانية: إذا كان التعذيب الجسدي، للمخالفين في الرأي والمصلحة، يعدّ جريمة في كل الشرائع والأعراف، فإن تضليل الناس، وتشكيل عقولهم، على نحو خرافي مضطرب، «يعد، في نظري، جريمة أكبر. إن التعذيب الجسدي، مهما اتّسع فلن ينال الملايين. على حين أن من

---

(١) لوبون، غوستاف: سر تطوّر الأمم، ص ١٤٩.
(٢) قباني، نزار: الأعمال السياسية، بيروت، نزار قباني، ط١، ١٩٧٤، ص١٧.
(٣) إمام، عبد الفتاح: الطاغية، ص ١٥، والقول منسوب لمونتسكيو.

الممكن أن تضلّل شعوب بأكملها على مدى قرون، مع اختلاف الأساليب والوسائل»[1].

ومن تلك الأساليب التهويلية «إثارة الاتهامات، التي لا ترتكز على أساس»[2]، لكي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة، «والبحث وراء الحقيقة، وتدبّر ما يواجههم من أمور خطرة»[3]؛ ولعلنا نلاحظ ذلك في منطق فرعون ضد موسى، عندما كان يريد إثارة المجتمع ضدّه بحجّة أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه].

وهذا ما نلاحظه في منطق الكثير من الحاكمين، ضد أصحاب الفكر التغييري، «إذ يعمدون إلى تحريك الانفعالات الشعبية ضدّهم، بمختلف الأساليب الغوغائية كوسيلة من وسائل إبعاد الذهنيّة العامة عن أفكارهم»[4]؛ فهؤلاء لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير بالأباطيل.

ومن تلك الأساليب أيضاً، خداع الجماهير بالأبّهة والبريق، وزخرف القول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف].

إنه مكيدة شيطانية لفرعون، حيث «يبرز في جاهه وسلطانه، وفي زخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة، بمنطق سطحي، ولكنّه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبّهة والبريق»[5]، «ويصدّها عن التأثير برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام»[6].

---

(١) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٢) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٣٠.
(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٣٠٠٩.
(٤) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٥٧.
(٥) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٣١٩٣.
(٦) حبنكة، عبد الرحمن حسن: الأخلاق الإسلامية، ٣/ ١٣٩.

ومن تلك الأساليب أيضاً، إشغال الجماهير بالمباريات والاحتفالات، ليلهوها عمّا تعاني من ظلم وكبت. «والجماهير دائماً تتجمّع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكّامها الطغاة، يلهون بها، ويعبثون»[1]، ويصنعونها كما يريدون، إذ ليست هذه الجماهير «بين يدي الزعيم القائد إلا أشبه بقطعة الحجر بين يدي أصابع المثّال»[2].

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء].

وهكذا تجمّع المصريون، ليشهدوا المباراة بين السحرة وموسى عليه الصلاة والسلام.

المطلب الرابع: التطميع والتهديد: فهذا فرعون يغري السحرة بالأجر والقربى، إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام، ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء].

ولما انهزم السحرة على يد موسى، آمنوا بربّ العالمين، رب موسى وهارون، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف].

المطلب الخامس: غسل الدماغ: إن أي نظام، فرعوني، طاغوتي، فاسد، ظالم، لا يستطيع أن يبقى ويستمر دائماً بالتعذيب، والقتل، والقمع، والتطميع، والتهديد.

---

(١) قطب، سيد: الظلال، دار الشروق، ٥/ ٢٥٩٤.

(٢) القول لـ جوبلز، الزعيم النازي المعروف، ووزير الدعاية في الحكومة النازية، ابتداءً من عام ١٩٣٣. انظر إمام، عبد الفتاح: الطاغية، ص ٣٤٣.

ولهذا لا يجد الطغاة ضماناً لاستمرار قدرتهم، وتسلّطهم، سوى ترويج الأفكار الباطلة، المغلّفة بعاطفة من العواطف، واللعب «في عقائد الناس، وتغيير رؤيتهم الكونية، وإشاعة الأفكار النظرية التي تستطيع أن تؤمّن لهم استمرار هذا التسلّط، وتلك القدرة»[1].

ويمكن لهذه الأفكار الباطلة أن تسود الجماهير الغوغائية العامّة، إذ تقلّ عند هذه الجماهير القدرة على محاكمة هذه الأمور، محاكمة منطقية عاقلة، اعتماداً على رأي الأكثرية، واتّكالاً عليه. ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام/١١٦].

وبالتالي تندفع الجماهير، منادية بهذه الفكرة الباطلة، بغوغائية عمياء رعناء، «لا تعرف سوى شخص واحد هو الحر... فتدور حول محوره»[2]، متّبعة الأكاذيب التي تنتشر بينها، والظنون الضعيفة التي تتحيلها.

«وهذا هو بعينه سوء الاستغلال للتعليم، والتربية، والإعلام. وأساساً فإن طول عمر أي نظام سياسي، ومدى نجاحه واستقراره، يتوقّف تماماً على مدى تأثيره في أذهان الناس، ونفوسهم، ومعتقداتهم.

فالجيوش تبقى عديمة الفائدة، إلا إذا كان جنودها معتقدين بالأمر الذي يحاربون من أجله»[3].

---

(١) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٢٩٢.

(٢) هيجل، جورج وليهم فريدريك: محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة فؤاد زكريا، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨١، ١/٨٢. وكلمة هيجل هذه، عنى بها الشرق فقط.

(٣) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٨٧.

ختام الفصل

لو افترضنا أن للطغيان إيجابيات هائلة، فما قيمة هذه الإيجابيات، إذا كان ثمنها تدمير الإنسان، وتحطيم قيمه، «وتحويل الشعب إلى جماجم، وهياكل عظمية تسير في الشارع، منزوعة النخاع، شخصيات تافهة، تطحنها مشاعر الدونية والعجز»[1]؟

فلا يبدو لها أمراً مزعجاً «أن تبيع أنفسها كعبيد، وأن تأكل خبز العبودية المر»[2].

إن المصيبة لا تتلخّص فقط «في علوّ فرعون وطغيانه، بل أيضاً في خنوع القوم وذلّهم له»[3]، وتبعيّتهم العمياء، ممّا يؤدّي إلى سوء مصير كثير من الأمم الغابرة.

فهذا القرآن الكريم، يذمّ قوم هود عليه السلام، لأنهم اتّبعوا جبابرتهم «التي بسببها استحقّوا الهلاك والطرد من رحمة الله»[4].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود].

ولقد انحازت عاد إلى طغاتها، «ووقفت في صفّهم، وقلّدتهم في التكبّر، والعناد، فلاقت سوء المصير»[5].

وليس من ريب أن ذلك مصير كل عاد.

---

(١) إمام، عبد الفتاح: الطاغية، ص ٨٧.
(٢) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ ٢/ ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) البوطي، محمد سعيد رمضان: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص ٥٤.
(٤) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٩٩.
(٥) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٢٦٠.

الفصل العاشر

سلطان الأوضاع الموروثة والقائمة

تمهيد:

لا شيء أصعب على الإنسان من تغيير معتقداته الموروثة، التي حلّت في نفسه «مكان التقديس والإجلال، ولا شيء يثير غضبه أكثر من هذه المعتقدات»[١].

وعلى الرغم من أن في هذه المعتقدات ما هو باطل، وفيها ما هو فاسد، إلا أن نشوء الإنسان في بيئة اجتماعية، واكتسابه منها هذه المعتقدات «يتكوّن في نفسه إلف لها، مهما كان وضعها. وإذ يعتبر نفسه جزءاً من هذه البيئة الاجتماعية، يتكوّن لديه بدافع الأنانية، خلق التعصّب لأهله وعشيرته وقومه، وسائر من هم في بيئته»[٢]، وجميع ما في بيئته من مفاهيم، وعادات، وأخلاق، لأنه بتعصّبه هذا، «يدافع عن مصالحه الذاتية أو مركزه الاجتماعي المكتسب»[٣].

فهو يشعر بالخوف من الجديد، الذي قد يعرّضه لكثير من الأخطار، «ممّا يؤدّي به إلى التمسّك بالمألوف، على الرغم من قدمه، ومخالفته للعقل، والمنطق، وما يصاحبه من جمود فكري»[٤]، دون أن يسمح لعقله المتجرّد «من

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٣٨.
(٢) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٨٥.
(٣) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٧.
(٤) المصدر نفسه، ص ٧٠.

مؤثّرات البيئة، أن يبحث ويناقش، ويميّز بين الحق والباطل، والصالح والفاسد»[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة].

فقد أدّى التقليد، بالمشركين والكافرين، إلى رفض التحوّل إلى عبادة الله سبحانه.

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٨٥.

المبحث الأول: سلطان الأوضاع الموروثة

المطلب الأول: سلطان التقاليد: إن لسلطان التقاليد قيمته، وله وزنه، من الناحية الاجتماعية في كل أمّة.

ففي الجاهلية كانت العادات، التي تنتقل من جيل إلى جيل، والتقاليد التي سنّها لهم الآباء والأجداد، «تقوم مقام القانون الخلقي، أو المقياس الذي به يعرف ما يحمد وما يقوم من الأعمال»[1].

ولذلك نسمع العُجَير السّلولي، بعد ما وصف نفسه بالعفّة، وبرعاية حق الجار، يقول:

كذلك هَدْي آبائي قديماً ... توارثَهُ النّجارُ[2] عن النّجارِ

ونسمع الآخر يقول:

وينشأ ناشئُ الفتيانِ منّا ... على ما كانَ عوّده أبوهُ

وآخر يقول:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوتْ ... غويتُ وإن تَرْشُدْ غزيَّةُ أَرْشُدِ

وقد يكون المبدأ فاسداً، والعادة قبيحة، غير أن الفساد أو القبح، لا يظهر إلا لأهل العقول النيّرة، «ولكنه يكون حقيقة ثابتة في نظر الكافّة، وتكرّ العصور، وهي تتأثّر به، وتجري عليه»[3]، «وفي التكرار، أثر ملموس في التأثير على الجماعات والأفراد. فإذا تكرّر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً، ينتهي إلى قبوله؛ وهذا حقيقة ساطعة»[4].

---

(١) موسى، محمد يوسف: فلسفة الأخلاق في الإسلام، ص ٤٠.
(٢) النجار: الأصل.
(٣) لوبون، غوستاف: سر تطور الأمم، ص ٩.
(٤) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص ٢٧.

ومن هنا كان من الصعب «تقرير مذهب جديد، أو هدم مذهب قديم، مقرّ في الأذهان»[1].

إذ إن العادات والتقاليد، التي وجدت في البداية تحت تأثير دافع خاص، من الممكن أن تثبت هي، بعد أن ينعدم ذلك الدافع.

وهنا علينا أن نقول: «إن العادة أصبحت تسوّق نفسها بنفسها أي: تندفع بذاتها. وقد اصطلحوا على هذا باسم: الذاتية الفعّالة، أو الفعل الذاتي.

إذ بدل أن تكون العادات تابعة للحاجات، أو ميول الإنسانية أو آمالها، تكون منفصلة عنها بنوع من الاستقلال.

نحن نتعلّم أن نقضي حاجاتنا باستعمال طريقة خاصة. ومن الممكن أن تترسّخ لدينا هذه الطريقة الخاصة، بحيث كأننا لا نتمكّن نحن من أن نقضي حاجاتنا بطريقة أخرى، مهما كانت تلك أيضاً ممكنة في حد ذاتها.

وحينئذ نقول: إنّا قد اعتدنا على تلك الطريقة الخاصة»[2]، وبالتالي تجعلنا العادة، على طريقة معينة، كأننا نضطر إلى أن نسير عليها، وفي كثير من الأحيان، يكون الخروج عليها شاقّاً. وقد روي عن الإمام الحسن العسكري (رض) أنه كان يقول: «ردّ المعتاد عن عادته كالمعجز»[3].

وكأن العادة أصبحت «دافعاً من الدوافع، أو باعثاً ثانوياً في النفس»[4].

ومع أن بعض الناس قد يغيّرون من عاداتهم، وقد تغيّر الحوادث الطارئة سيرة حياتهم، إلى سيرة جديدة، ولكننا لا يمكننا أن ننكر «أن النفس الإنسانية

---

(١) لوبون، غوستاف: سر تطور الأمم، ص ٩.
(٢) مان: أصول علم النفس، ص ١٣٩ ـ ١٤٠، الترجمة الفارسية؛ عن اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق ص ٤١.
(٣) المجلسي: بحار الأنوار ٢١٧/١٧؛ عن اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٤١.
(٤) مان: أصول علم النفس، ص ١٣٩ ـ ١٤٠؛ عن اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

تقاوم ما هو جديد عليها، وكأنها تستوحش من التغيير والتبديل»[1]؛ وأن الأمم كلّما تقادمت الدنيا في الوجود، «زادت ثباتاً ورسوخاً، وقلّ تحوّلها بتأثير الامتزاج شيئاً فشيئاً. وكلما بلغت الإنسانية عقداً من العمر، أثقلت كاهلها عوامل الوراثة وتعذّر عليها التحوّل عن حالتها»[2].

«فطبائع النفوس بطيئة التحوّل، وخاصة في شؤون العقيدة، ومن ثم تحتاج إلى زمن طويل يمتدّ إلى أجيال»[3].

«فكما أن المبادىء تحتاج إلى زمن طويل، كي تتكوّن، فهي لا تندثر إلا بعد زمن طويل»[4].

وعلى هذا، فليس في طاقة الإنسان أن يوقف تيار الأفكار، بعد أن تتّصل بالنفوس؛ «ولا بدّ لها من إكمال دورتها، وحماتها في الغالب هم الذين يكونون أول ضحاياها.

وليس إلا الغنم تمشي خلف الدليل، الذي يقودها إلى المذبحة. ولا تتخلّص الأمم من ربقة مبدأ استولى على قلبها إلا بمرور الدهر، أو بعنف الثورة، قد يكون الاثنان لازمين، وما أكثر الأوهام التي افترضتها البشرية، فافترستها على الدوام»[5].

ولكن، ومن وجهة النظر القرآنية، فإن التقاليد والعادات ليست القضاء المحتّم والمبرم، والعنصر الحاسم والمسيطر، والذي لا يقاوم. فمن وجهة نظر الإسلام، فإن التقاليد لا تكبّل حرية الإنسان.

---

(١) مان: أصول علم النفس، ص ١٣٩ ـ ١٤٠؛ عن اللاوي، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.
(٢) لوبون، غوستاف: سر تطور الأمم، ص ٥٠.
(٣) قطب، محمد: جاهلية القرن العشرين، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص ٦٩.
(٤) لوبون، غوستاف: سر تطور الأمم، ص ٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

المطلب الثاني: التقاليد لا تكبّل حرية الإنسان: صحيح أن الناس يتعصّبون لموروثاتهم الفكرية، وعاداتهم التقليدية، «ويصرّون على التمسّك بمواقفهم، والإصرار عليها»[1] تأثّراً «بذوي القدرة والسوابق الذاتية في الذهن»[2]، ودفاعاً عن طروحات تحوّلت «جزءاً من الذات، وعنواناً من عناوين الكرامة، والقوة، والموقع الاجتماعي»[3]،

ولكن ظاهرة مؤمن آل فرعون:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ [غافر/٢٨].

وامرأة فرعون:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم]،

وامرأة نوح وامرأة لوط:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم]،

وابن نوح:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ [هود/٤٥ ـ ٤٦]،

تؤكّد الفكرة الإسلامية التي ترفض اعتبار البيئة عنصراً حاسماً، يشلّ في الإنسان عنصر الاختيار والإرادة، في ما يتّخذه من مواقف، وفي ما يقوم به من أعمال، ليكون ذلك مبرّراً شرعياً للانحراف من جهة، ودليلاً على الاتّجاه

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٣٠.
(٢) كلشني، مهدي: مقالات المؤتمر الثاني للفكر الإسلامي في طهران، ص ٣٩٥.
(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٣٠.

الجبري ـ الذي سنناقشه في المبحث التالي ـ «الذي ينكر على الإنسان حريته من موقع البيئة التي تسيطر على تفكيره، وتوجّه إرادته في اتّجاهها المعيّن، سواء منها المنحرف والمستقيم»[1].

فوجود مؤمن آل فرعون الذي ولد في مجتمع الشرّ، أو امرأة فرعون التي تعيش تحت ضغط هذا المجتمع يؤكّد الفكرة، «التي تعتبر جوّ الشر عنصر تشجيع للشرّ يضعف المقاومة، ولكنه لا يلغيها، بل يبقي للإنسان، برغم الظروف الصعبة، مجال ممارسة الإرادة، التي تسمح له بالانتصار»[2].

كذلك يؤكّد الفكرة وجود الإنسان الذي ولد في مجتمع الخير، أو عاش به، كابن نوح وامرأته وامرأة لوط وغيرهم من الأشخاص الذين لم تمنعهم أجواء الخير التي عاشوا بها، من الانحراف، كنتيجة للاستجابة لمؤثراته.

فالواقع أن البيئة لا تضع أمام الإنسان حاجز المستحيل، بينه وبين الخروج عن إرادة قيمه وسلوكه، «بل تشارك في إقامة العقبات والصعوبات التي يمكن للإنسان أن يخترقها بقوة الفكر والإرادة، إذا شاء ذلك، وبالجهد الطويل»[3].

«إنني لا أنكر، بل أؤيّد تأثير المذهب الاجتماعي، أو المذهب المادي أو المذهب الطبيعي، أو المذهب التاريخي، على الإنسان.

ولكن ما أريد أن أقوله، هو أن الإنسان، وعلى طور صيرورة تكامله، وعلى طول انتقاله من كينونته البشرية إلى صيرورته إنساناً، يتمكّن من التخلّص من هذه الأنواع من الجبر والنجاة فيها»[4].

المطلب الثالث: سلطان التقليد: إذا أردنا أن نعبّر «عن العوامل التي يخضع الإنسان لها في حركته تعبيراً بسيطاً، قلنا إنها ثلاثة أنواع:

---

(١) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٣٨٤.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٢.
(٤) شريعتي، علي: الإنسان والإسلام، ص ١٢٠.

أوّلها وأشدّها تأثيراً عامل الأجداد، والثاني تأثير الوالدين، والثالث تأثير البيئة»[1]. ويمكننا، إذا أردنا أن نعبّر عن تأثير هذه العوامل أن نقول: إن أعظم مصيبة وضرر يصيب الجماعات البشرية، ويمنعها من ارتياد طرق النجاح هو: «التقليد الأعمى للآباء والأجداد»[2]، و«تقليد الشخصيات الاجتماعية والوجوه المحترمة في المجتمع»[3].

فالتبعية العمياء لآراء الآخرين، وتقليدهم، من الأسباب المانعة لطلب الحقيقة، واتّباع الهدى؛ ومن أمارات التخلف والجمود، «ممّا يجعل الأمة غير قادرة على الحركة والسير، في مضمار الرقي، ومسايرة ما يحدث من تطورات اجتماعية»[4].

ومن روعة القرآن الكريم، أنه حارب التقليد الأعمى، من دون رؤية وتبصّر؛ وبيّن متسائلاً: كيف ينقاد الإنسان إلى آبائه، ويعتبر ذلك حجّة له، ولو كانوا لا يسلكون طريق العقل، أو كانوا في ضلال؟

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة].

لا ريب في أن هذه الحجة لا شأن لها، في منظار العقل السليم، ألا وهي الاستمساك بمعتقدات آبائهم لمجرّد التقليد، الذي لا بصر فيه ولا نظر.

وقد أظهر القرآن «سقوط هذا الاستدلال، وأعلن تفاهته في ميزان العقل، إلى درجة أنه يصحّ السخرية منه»[5].

---

(١) لوبون، غوستاف: سر تطور الأمم، ص ٢٠.
(٢) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٢٥٧.
(٣) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٢٦٤.
(٤) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص ٢٥٧.
(٥) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٨٦.

إذ لو فرضنا أن آباءهم لم يؤتوا حظّاً من العقل، أو من الهداية، أفيتبعونهم على عمًى وجهل، وقد يكون في تقليدهم الهلاك والدمار[1].

المطلب الرابع: سلوك التقليد: وهو السلوك، الذي يؤدّي الى تقليد الآخرين، «بشكل يؤدّي إلى التطابق والتماثل، دون أن يتفقّد الشخص السلوك المتّبع، والأسباب المنطقية التي تكمن وراءه. ويؤدّي هذا السلوك إلى اتّباع آراء الغير، وأساليب تصرّفهم في الخير والشر.

ويمثّل هذا النمط من السلوك خطورة، وبخاصة في مجال المعتقدات، على المستويين الديني والاجتماعي، إذا كان النموذج الذي يجري تقليده، منحرفاً دينياً أو أخلاقياً»[2].

والقرآن الكريم يعدّ كثيراً من الناس مقلّدين للشخصيات الاجتماعية والوجوه المحترمة في المجتمع.

«وهو ينظر إلى هذا الأمر بعنوان كونه أمراً واقعاً، وليس أمراً صحيحاً، ولا هو مورد تصديقه»[3].

ينقل القرآن الكريم، عن لسان الكافرين أصحاب جهنّم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب].

وتدلّ مثل هذه الآيات على واقع نفسي اجتماعي، وهو أنه تصبح في كل مجتمع مجموعة من الناس، مورد التقليد والتبعية عادة.

وهؤلاء يظهرون بين حين وآخر، في كل أمّة من الأمم، ويبلغون درجة عظيمة في النفوس، «في الزهد والاستقامة، أو في العلم والعبقرية، أو في الإخلاص لأمّتهم وبلدهم. وقد يكتب على أيديهم الظفر والازدهار، والنجاح

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٨٦.
(٢) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٣١.
(٣) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٢٦٤.

الباهر، والتوفيق العظيم، وما إلى ذلك من رغائب»[1]، «بحيث يعتبرون ناجحين، بحسب النظام القيمي والثقافي في ذلك المجتمع»[2].

فيعظّمهم الناس، ويحمدونهم، ثم يبالغون في ذلك، حتى يصل تقديسهم في نفوس الرعاع السذّج، أو الجهلاء، إلى درجة الاتّباع الأعمى، ممّا يؤدّي، «بالمجتمع غالباً إلى الضلال والانحراف»[3].

إذ لم تكن الفضيلة هي مقياس الشخصية في نظر هؤلاء المقلّدين، ولم يلتفتوا إليها، «بل إنهم تأثّروا بالعقل الجمعي أو الجماعي في بيئتهم، فيتّبعون ما أقبل عليه الآخرون، دون أن يفكّروا في عواقبه السيّئة»[4].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف].

ففي هذا النص القرآني، «نرى الاستعباد الروحي، يسيطر على قوم هود، حيث تقليد الآباء سلبهم حرية التفكير والنظر»[5].

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ [الشعراء].

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ الذي هم عليه من عبادة الأصنام، ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ «وكفى به حجة ودليلاً»[6].

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ [النمل].

«كانت هذه المرأة عاقلة ذكية، ولا عيب فيها إلا الشرك، الذي ورثته عن الآباء والأجداد»[7].

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص ٦٨٦.
(٢) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية، ص ٢٦٤.
(٣) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٤) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص ٢٩.
(٥) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء، ص ٨٩.
(٦) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص ٤٨٨.
(٧) المصدر نفسه، ص ٤٩٩.

- أبواه يهودانه. . :

إن المجتمع، بكل ما يسوده من أفكار وعقائد وعادات، «هو الذي ينمّي أحد الخيارات المتاحة على حساب غيره»[١].

فمجموعة المثيرات والمؤثّرات المختلفة، «التي يتعرّض لها الفرد منذ نشأته، من عوامل مادية، واجتماعية، وثقافية، وحضارية، لها أهمية بالغة في صياغة شخصية الفرد ونموه»[٢].

وما يملكه الإنسان من مكتسبات، «يدين بها إلى المجتمع الذي يعيش في وسطه، حيث يجد المعرفة المحافظ عليها منذ أجيال»[٣].

وقد وردت الإشارة إلى هذا في الحديث الشريف: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجّسانه، كما تُنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»[٤].

«وكلمة أبواه تتّسع هنا لتشمل المجتمع بأسره»[٥].

فالبيت، والأسرة والمدرسة، والمحيط الاجتماعي، عوامل قوية في بناء الشخصية، وصنع أخلاق الإنسان وصفاته الإنسانية[٦].

«وإن كانت الأسرة هي أهم وأقوى الجماعات الأولية، وأكثرها أثراً في تنشئة الطفل، وفي سلوكه الاجتماعي، وفي بناء شخصيته»[٧].

---

(١) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ٢١٣.
(٢) دويدار، عبد الفتاح: علم النفس الاجتماعي، أصوله ومبادئه، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٤، ص ٩٣.
(٣) بوكاي، موريس: أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ترجمة فوزي شعبان، المكتبة العلمية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٣١.
(٤) صحيح البخاري: ضبط البغا، ١/٤٥٦، الحديث رقم ١٢٩٢/١٢٩٣.
(٥) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٢١٥.
(٦) انظر: بوكاي، موريس: أصل الإنسان، ص ١٣٣؛ اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٧٧.
(٧) دويدار، عبد الفتاح: علم النفس الاجتماعي، ص ٩٦.

فدور الطفولة الأولى هو أهم أزمنة تقولب الإنسان «من حيث النمو العاطفي، ومن أجل تشكيل المجتمع الأفضل المطلوب؛ فالتربية الأولى للطفل من خلال أبيه وأمه، وسائر الأفراد المقرّبين إليه، تقولب له قالبه.

ولمقال وأفعال المربين، الأثر القطعي في تعيين خط سيره، وأسلوب حياته، وهي التي تفتح فيه طاقاته الأولى، وتنمّي شخصيته.

وأيضاً، فإن أخطاءهم في أساليب التربية، تحطّم شخصية الأطفال وتميت ما فيهم من استعداد»[1].

المطلب الخامس: العامل المجهول: «إن لآثار المحيط في بناء شخصية أفراد البشر أهمية كبرى... وقد أكّد علم النفس أهمية الأطر الثقافية والاجتماعية، في تكوين الشخصية؛ فليست علاقة الفرد بثقافة أخرى، ومجتمع آخر، كانت تصنع منه شخصية أخرى فحسب، بل حتى أن يكون الفرد من أهل ناحية من بلاده، ومترعرعاً في أية أسرة، وأن يكون أبواه معه، أو منفصلين عنه، وكيف يعيشان، وأية مدرسة كانت تربيته، وأي نوع من أترابه كانوا يعاشرونه، وماذا رأى، وماذا سمع.

لكل هذه الأمور أثر يُعتدُّ به، في بناء شخصيته. وإنّ أثر العوامل الاجتماعية في تكوين الطفل تبدأ منذ ميلاده، ويستمر هذا الأثر ما دام حيّاً»[2].

ولكن، وعلى الرغم ممّا يقوله «مان»، فإنهم، في علم النفس الحديث، يهتمّون اهتماماً بالغاً بما يسمّونه: العامل المجهول في تكوين الشخصية.

«فيرون أن هذا العامل المجهول عنصر أساسي في تكوين شخصية الفرد، فإنه بإمكانه أن يغيّر مجرى العوامل الأخرى، فيصنع من الفرد شخصية أخرى غير مرتقبة»[3]. وهذا ما يؤكّد الفكرة الإسلامية بأن البيئة لا تكبّل الإنسان، «ولكن

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٨٠.
(٢) مان: أصول علم النفس، ص ٧٨ ـ ٧٩؛ عن رسالة الأخلاق، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٧٨.

لا شك أنهم قليلون أولئك الذين يتمكّنون من أن يقاوموا نفوذ آثار المحيط فيهم، ويسبحون في مواجهة أمواجها»[1].

أما الآخرون «الذين تهيكلت ثقافتهم على التقليد والنقل لأقوال زيد وعمرو، دون حظ من النظر الخاص القادر، على استلال نماذجه الخاصة من أكداس المعلومات المتوافقة والمتضادّة، فلن يكون الحوار معهم ذا فائدة تذكر»[2].

وعلى حد قول نيتشه: «من العبث أن يطالب بالعفّة من تمرغ آباؤه بالنساء، وكرعوا الخمور، والتهموا لحم الخنازير»[3].

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص ٧٨.

(٢) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ٢١٥.

(٣) نيتشه، فريدريك: هكذا تكلّم زرادشت، ترجمة: فيلكس فارس، دمشق، دار أسامة، من دون تاريخ، ص ٣١٩. فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche: فيلسوف ألماني، مؤسّس فلسفة القوة، ومن أكثر الفلاسفة تأثيراً في القرن العشرين (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠)؛ مات عنه أبوه صغيراً، فربّته أمّه على التقوى، فانقلب تقواه ثورة عقلية. كان أستاذاً لأصول اللغة في بال ١٨٦٩، وتأثّر بفلسفة شوبنهور، وغيره، ثم خرج عليهما، وعلى سائر أصدقائه، بعد إصابته باضطرابات عصبية ومرض في عينيه؛ فترك التدريس، وطفق يتنقّل مستشفياً؛ ولكنه مضى يجهد نفسه، حتى انتهى به الأمر إلى مرض عقلي خطير، إلى الجنون.
وكتابه: هكذا تكلم زاردشت، قصيدة مستفيضة، يبشّر فيها بالإنسان الأعلى (السوبرمان)، وبأخلاقية السادة، ويهاجم الأخلاق التقليدية، وبخاصة الأخلاق المسيحية، لأنها في رأيه أخلاق تصلح لسواد الناس، ممّن ينساقون وراء الأقوى، فهي أخلاق تعادي الممتاز لحساب الضعفاء؛ فليس الهدف مجرّد الحياة، بل الحياة القوية، وسيحقق الإنسان إرادته، إنساناً أعلى، يكون فوق الخير والشر، ويمحو الديموقراطية المنهارة.
ما القرد بالنسبة للإنسان؟ أضحوكة وعار مؤلم، وهكذا يجب أيضاً أن يكون الإنسان بالنسبة إلى الإنسان الأعلى: أضحوكة وعاراً مؤلماً. ترجمة نيتشه، انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ٢/٢٥٠٨، ٥١٥ ـ ٥١٦؛ الموسوعة العربية الميسّرة، ٢/١٨٦٤.

المبحث الثاني: سلطان الأوضاع القائمة

المطلب الأول: سلطان الألفة: إن المصالح المشتركة لا تقتصر، في عملها، على التقريب بين الناس، ولكنها موحّدة بينهم في الاتجاهات.

«فعندما عادت قريش رسول الله، تبنّى نفس الاتجاه جميع حلفاء قريش، ومن تربطها بهم علاقة مادية، أو اقتصادية، أو أحلاف، أو مواثيق، أو عهود»[(١)].

ويمكن ملاحظة ذلك، أيضاً، في أعضاء الجماعات، كالفرق الرياضية، وفرق العمل، وأعضاء الجمعيات والنوادي، والعاملين في مؤسسة واحدة، وجماعات الطلبة وغيرهم.

«كما أن كثيراً ما يتّحد أطفال الشارع ـ شارع معيّن ـ في معتقداتهم، تجاه أطفال شارع في حين آخر، ما يجعلهم يقومون بنشاطات جماعية، تتماشى مع اتجاهاتهم، تجاه الطرف الآخر»[(٢)]. وغالباً ما يكون هذا التشابه، بسبب تأثير الجماعة، والرغبة في استمرار عضويتها، وتحاشي ضغوط أعضائها «والرغبة في المحافظة على علاقات المودّة التي تربط أعضاءها، أو بهدف إقامة علاقات الصداقة، وإن علم الشخص أن هذه المعتقدات والاتجاهات، مخالفة للحق والحقيقة، بمعنى أنه لكي يتّصل بالخلق، فهو ينقطع عن الحق»[(٣)].

وقد هاجم إبراهيم عليه السلام قومه لهذا السبب، كما يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت/ ٢٥].

فإبراهيم، عليه السلام، يقول لقومه: إنما اتخذتم الأوثان من دون الله، «لا اعتقاداً ولا اقتناعاً، بل مجاملة بعضكم لبعض»[(٤)]، وكرمز وعنوان لوحدتكم

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(٣) يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، ص ٢٦٠.
(٤) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن، ص ١٤٠؛ قطب، سيد: في ظلال القرآن الكريم، دار الشروق، ٥/ ٢٧٣٢.

«وكيانكم الاجتماعي، وأنكم قلب واحد ويد واحدة، على عدوكم»[1]؛ «واستبقاء لما بينكم من مودّة على حساب الحق؛ وهذا يقع في كل المجتمعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد، فيسترضي الصاحب صاحبه على حساب العقيدة، ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه. وهي الجد كل الجد»[2].

فالفرد في تلك المجتمعات يتعصّب للملّة الموروثة والعقيدة الموجودة، «ويتحمّس للدفاع عنها، ويثور لأي انتقاص لها، لا عن اقتناع وبصيرة، بل لأنه يحسب عقيدته ملكاً له ولآبائه، يردّ عنها من يهجم عليها، كما يردّ صاحب البيت من يهجم عليه. والعقيدة، إذا كانت قوية السلطان، غلبت عزّتها على عزّة العقل والفؤاد»[3]؛ فإنه «ليس أروح لنفس المرء، ولا أثلج لحشاه، من أن يجد له شريكاً في اعتقاده»[4].

المطلب الثاني: سلطان الصخب الجماهيري: يبدو أن الناس، حين تجتمع أعداد وفيرة منهم على رأي، أو موقف، يتولّد من ذلك الإجماع قوة إقناعية متبادلة أي:

«يتحقق ما يسمّيه المناطقة بـ «الدور». فتصفيق (س) لفكرة سمعها، هو، عينه، الذي يمنح الشرعية والقناعة، والقبول، لتصفيق (ص).

ويفعل نحواً من ذلك تصفيق (ص) في (س) وهكذا...

وقد كان الإعلام النازي مدركاً لهذا، من الجماهير، ومن ثم فإن هتلر كان يأمر بجمع الأعداد الهائلة من الألمان، حين يريد إلقاء خطب بينهم، وخلفاء هتلر في هذا ما زالوا ملء السهل والجبل»[5].

---

(١) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص ٥٢٤.
(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن الكريم، دار الشروق، ٥/ ٢٧٣٢.
(٣) العقاد، عباس محمود: العبقريات الإسلامية ١/ ٢٦٤.
(٤) كارليل، توماس: الأبطال، ص ٧٥.
(٥) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ٢٥٦.

وقد علّمنا القرآن الكريم هذه القضية، منذ زمن بعيد، حيث قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ].

نجد في الآية السابقة منهاجاً، يبعد من يقوم بعملية التشخيص، عن التحيّز، أو التخبّط، أو الادّعاءات غير العلمية؛ «ويدلّ العباد على شيء من منهجية البحث والنظر»[1]، إذ يشير عليهم، إن أرادوا استجلاء الحقيقة، «أن يقوموا لله، بعيداً عن الهوى، بعيداً عن المصلحة، بعيداً عن ملابسات الأرض، بعيداً عن الهواتف والدوافع، التي تشتجر في القلب، فتبعد به عن الله.

بعيداً عن التأثر بالتيّارات السائدة في البيئة، والمؤثّرات الشائعة في الجماعة»[2]. وبعيداً عن الأجواء الانفعالية، «التي تعيق الإنسان، عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير. فإنه قد يخضع في قناعاته وأفكاره، للجو الاجتماعي الذي تنطلق فيه الجماعة، في أجواء انفعالية حماسية، لتأييد فكرة معيّنة، أو رفض أخرى»[3]، ممّا «يجعل الذين يراجعون القول من الطرفين، خاضعين بصورة ما للحاضرين، وتوجّهاتهم ومواقفهم»[4]؛ و«مستسلمين لها استسلاماً لا شعورياً، كنتيجة طبيعية، للانصهار بالجو العام والذوبان فيه، الأمر الذي يفقد الإنسان فيه استقلاله الفكري، وشخصيته المميّزة؛ ويجعله ظلاً باهتاً للجماعة»[5].

وقد صوّر لنا القرآن الكريم ذلك. فيما نقله لنا من أسلوب النبي ﷺ، في الحوار مع خصومه، عندما واجهوه بتهمة الجنون؛ إذ أشار على الكفّار أنهم، لو نظروا في الأدلّة الواضحة، التي بين أيديهم من دون تعصّب، أو افتراء، أو ميل إلى الأهواء، لتأكّدوا من صدق الرسالة، وانتفاء أسباب الجنون:

(١) بكار: د. عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ٨.
(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٩١٤.
(٣) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٧٥.
(٤) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ٢٥٧.
(٥) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص ٧٥.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ/٤٦] (مثنى ليرجع أحدهما إلى الآخر، ويأخذ معه ويعطي، في غير تأثّر بعقلية الجماهير، التي تتبع الانفعال الطارىء، ولا تتلبّث لتتبع الحجة في هدوء»[١]، «فيسلم النظر عندئذ من المؤثّرات الخارجية»[٢]؛ «وفرادى، مع النفس وجهاً لوجه، في تمحيص هادىء عميق»[٣].

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ/٤٦]، «فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبّر والرزانة، وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده»[٤].

ولكنكم عندما خضعتم للجو الانفعالي «الذي كان يسيطر على التجمّع العدائي للرسول، أصبحتم لا تملكون ما تستطيعون أن تزنوا به صحة القضايا وفسادها، بل ظلت أفكاركم صدًى لأفكار الآخرين»[٥].

يقول بيكون[٦]: «وأما الطائفة الثالثة من أخطار العقل، فهي أوهام السوق، التي تنشأ من التجوّل، واجتماع الناس بعضهم ببعض، لأن الناس يخاطبون بعضهم بعضاً، من طريق اللغة، التي فرضت كلماتها على الناس، وفقاً لعقلية أهل السوق، والعامة من الناس، حيث ينشأ، عن سوء تكوين هذه الكلمات، وعدم موافقتها تعطيل شديد للعقل»[٧].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٩١٤.
(٢) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص ١٨.
(٣) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٥/ ٢٩١٤.
(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٥) فضل الله، السيد محمد حسين: الحوار في القرآن، ص٧٥.
(٦) فيلسوف وسياسي إنكليزي: انتخب عضواً بمجلس العموم، اتّهم بالخسّة والغدر والخيانة، بعد أن غدر بصديقه (إيرل اسكس)، الذي سعى جاهداً، لدى الملكة اليصابت لتعيين بيكون في منصب المدعي العام؛ فما كان من بيكون، وبعد أن فقد اسكس الحظوة لدى الملكة، إلا أن أطاع الملكة بتدبير التهم لـ (اسكس)، ومن ثم الحكم عليه بالإعدام؛ وأما دوره العظيم، فهو: المنهج التجريبي الجديد، القائم على الملاحظة، والتجربة، ويبدأ ببيان مواطن الخطأ في التفكير البشري، أو ما يسميه بالأوهام الأربعة: أوهام الجنس، أوهام السوق، أوهام الكهف، أوهام المسرح. انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ١/ ٣٧٥ وما بعد؛ الموسوعة العربية الميسرة، ١/ ٤٧٠.
(٧) ديورانت، ول: قصة الفلسفة، ص١٦٦.

ختام الفصل

كثيراً ما يكون تراث الآباء سبباً في تعطيل العقل، والاستفادة من خبر طارف، يخالف ما كان عليه السابقون. ومن ثم فإن الإنسان مكلّف امتلاك الميزان الذي يمكّنه من تقويم تركة أسلافه، وإنزالها في المنزلة اللائقة بها «لئلّا يقدّس ما كان عارياً عن كل مقوّمات البقاء، سوى ميزة القدم»[١].

ولئلّا يكون أشد الفريقين قوة هم الأموات، «لأنهم هم الأكثر عدداً، وهم المؤثرون في عالم الحركات اللاتنبيهية، الذي يخضع لسلطانه العقل والأخلاق في جميع المظاهر. فالأمّة مسيّرة بتأثير أمواتها، أكثر ممّا هي مسيّرة بتأثير أحيائها»[٢]. «والجماجم تحت التراب، يسير على هداها الأحياء»[٣].

ولقد عانى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، على اتّساع أمداد الزمان والمكان، من مشكلة تقديس أقوال الآباء والأجداد، وميلهم إلى منح كل قديم مكانة خاصة، «ونظرتهم إلى الأفكار الجديدة، كما ينظرون إلى الفتى الحدث، الذي لم يبلغ مرحلة النضج؛ وهذه نظرة غير موضوعية»[٤].

ومن ثم «فإن الرسل الكرام، شنّوها حرباً لا هوادة فيها، ضد صنمية ميراث السابقين»[٥]، والتي أضحت لشدّة الإلف لها «جزءاً من المنظومة الرمزية، لفرد أو لأمّة[٦]. فيتعصّب لها الناس، ويشمّون فيها عطر الذكريات، ودفء الماضي، ممّا يجعلهم يركنون إليها، ويلوذون بها، وينفرون من كل جديد يخالفها.»

---

(١) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٥٩.
(٢) لوبون، غوستاف: سر تطوّر الأمم، ص٢١.
(٣) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص٨٠.
(٤) بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، ص٢٧٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٥٣.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٥.

«ولعل ذلك يرجع، جزئياً، إلى أن كونك متعصّباً، يمدّك شعور أليف من المشاركة والتعاون، مع الذين يعانون تجربة التعصّب. فأفراد الجماعة المتعصّبون، يحسّون بشعور مريح يشعرهم بأنهم أصدقاء مترابطون؛ فمصدر هياجهم وانفعالهم واحد»[1].

لذا، «فالشخص المتعصّب، يتجنّب الدليل الذي يدحض معتقداته.. وقد يرفض أن يقرأ أو يستمع إلى نتائج مقاييس لاختيار الواقع، قام بها باحثون محايدون»[2].

(١) راسل، برتراند: يتحدث عن مشاكل العصر، ترجمة مروان الجابري، ص١٠١.
(٢) جورارد، سدني، م: الشخصية بين الصحة والمرض، ص٩٦.

الفصل الحادي عشر

الهرب... حيث لا مهرب

تمهيد:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام]. وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل].

إن المشركين، وبعد تضييق الخناق عليهم، وسدّ الذرائع في وجوههم، يلجأون إلى الادّعاءات الباطلة، يسوّغون فيها انحرافاتهم العقائدية والسلوكية، ويحيلون عليها شركهم وضلال تصرّفاتهم وتصوّراتهم؛ وهكذا شأن المجرمين الفاشلين، «حين تتغلّب عليهم دوافعهم، فإنهم يتّجهون إلى البحث عن الأعذار، لتبرير طيشهم واندفاعهم، وعدم سيطرتهم على أزمة سلوكهم، واستسلام لدوافعهم وانقيادهم لها»[1].

إن المشركين يلقون التبعية والمسؤولية، على الحظّ والظروف، أو القضاء والقدر، أو أي شيء آخر، «حتى كأنهم بلا حرية ولا إرادة، تماماً كريشة في مهبّ الرياح»[2].

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٤٨.

(٢) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص١٨٨.

«إنهم يقولون: بأنهم مجبرون لا مخيّرون، في ما اعتسفوا من شرك وضلال. فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال، لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء»[١]. ولغير هذا السلوك الوضعي، الذي لا يريده سبحانه، وحيث إن المشيئة الإلهية لم تشأ ذلك، فهم معذورون، إذن، في انحرافهم.

وهكذا نشاهد هذا المنطق الباطل، لدى أهل الجاهليات، سواءٌ في ذلك السابقون أو المعاصرون، الذين يلجأون إلى هذا المنطق، وهم يعلمون ببطلانه[٢].

يقول نيتشه، معبّراً عن بعض جوانب هذا المنطق: «وإذا كانت آذاننا هي التي أساءت السمع، فعلامَ جهّزنا بآذان لا تحسن السمع. وإذا كانت آذاننا طين يسدّها، فمن ترى وضع هذا الطين فيها؟ ولكم انحطم من إناء تحت يد هذا الخزّاف، الذي لم يتم تعلّمه، ولم يتقن صنعته؟»، وهو يقصد ـ واستغفر الله ـ الله جل جلاله.

«ينتقم من مخلوقاته، التي أبدعها، إذا كانت خرجت مشوّهة من بين يديه»[٣]. واستغفر الله.

وليس ذلك بحق ـ وأيم الله. وهؤلاء علماء النفس، وعلماء في مجالات شتى، ينفون ذلك، ويؤيّدون، من حيث يدرون أو لا يدرون، الفكرة الإسلامية، «بأن الإنسان مفطور على الإيمان، والخير والصلاح، ولكنه هو الذي ينحرف من بعد»[٤].

---

(١) قطب، سيد: في ظلال القرآن، ٣/١٢٦٦.
(٢) التسخيري والنعماني: تفسير الأجزاء العشرة الأولى من القرآن، ص ١٧٤.
(٣) نيتشه، فريدريك: هكذا تكلم زرادشت، ص٢٩٠.
(٤) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، بيروت، دار الروضة، ط٢ ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٢٢٣.

المبحث الأول: شخصيتا الإنسان

من وجهة نظر الإسلام، أن الإنسان له شخصيتان ونوعان من الروحية:

١ ـ الشخصية الذاتية؛ ٢ ـ الشخصية العرضية، وبها نبدأ:

المطلب الأول: الشخصية العرضية: فهي تلك الأفكار المستوردة، التي تخلق حجاباً من الثقافة الطاغوتية، والبيئة الفاسدة، وأصدقاء السوء، أمام الفطرة؛ ويغرق الإنسان في الأفكار المستوردة، لدرجة أن نور الفطرة يختفي تحت ستار، أو حجاب هذه الأفكار[١].

وأما الشخصية الذاتية، فهي ما نحن بصدده.

المطلب الثاني: الشخصية الذاتية: جعلت يد الخالق سبحانه، في باطن كل إنسان «رغبة لمعرفة الله، وقول الحق، وإعادة الأمانة، والتمسّك بالطهر»[٢].

وفي «ضمير الإنسان، شعور أصيل بالواجب الأدبي، وقسطاس مستقيم يوحي إليه أن يعامل الناس، كما يحبّ أن يعاملوه»[٣].

والطفل منذ اليوم الأول لولادته، من طريق الفطرة، «يميل إلى الاعتقاد بالله، ويكون صادق القول والعمل، ولا يفكّر بغير ردّ الأمانات»[٤].

«والمجرم بمولده، الذي اخترعه (الامبروز)، لا وجود له»[٥]. ولكن الصغار «يصابون بالانتكاس، عن طريق المثل، الذي يضرّ به لهم أقرانهم، فهم مضطرون إلى مسايرة القطيع»[٦].

---

(١) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢٢٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٢١٨.
(٣) العقاد، عباس: كتاب الله، ص١٣٤.
(٤) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢١٨.
(٥) كاريل، الكسيس: الإنسان ذلك المجهول، ص١٦٢.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٣١.

فإذا كانت ثقافة البيئة «ثقافة كافرة، أو أن يترعرع الطفل في بيئة خيانة وفساد، فإن جذور كمالاته تحترق، أو على الأقل، تدفن تحت أطنان الموانع»[1].

أما عندما ينشأ «الشاب في سعادة ساذجة، فسوف ينجذب، في نموه الطبيعي، إلى جهة الأحاسيس الناعمة واللذيذة؛ وسوف يرى قلبه، كذلك، آلام أبناء نوعه من البشر.

إنه يلتذّ برؤية صديقه، ويحبّ الإنسانية من شغاف قلبه، ولا يكون مستعدّاً لأن يفعل فعلاً يؤذي به الآخرين.

نعم، من الممكن أن يغضب أحياناً، إلا أنه يكون سريع الرضا بعد الغضب، وسيجبر ما كسر. وكما يجبر ما قام به من إساءة، كذلك يعفو عن أخطاء الآخرين بسرعة.

إن دور المراهقة ليس دور الحقد والانتقام، بل هو دور المواساة، والعطاء، والسخاء. أجل إنني أؤكد هذا، ومطمئنّ إلى أن التجربة أيضاً ستؤيّد هذا. إن الطفل لا يولد شريراً»[2]. وإننا إذا قرنّا أنفسنا بغرائز الطفولة «الحقيقية وحاجاتها، وتتبّعنا تحقيقها، ونموّها إلى أقصى حدّ ممكن، فإن النظام، أو التهذيب والمعلومات، وثقافة حياة البلوغ، كل ذلك يأتي في أوانه المناسب»[3].

أما عندما نتجاهل وضع الطفل الفطري وميله، فإننا، عندئذ، «لا نتعامل مع الطفل الحيّ مطلقاً، بل مع الصورة الميّتة، التي نصبناها له»[4].

---

(١) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢١٨.

(٢) جان جاك روسو: أميل، ص٢٩، الترجمة الفارسية؛ عن اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٣٢.

(٣) ديوي، جون: المدرسة والمجتمع، ترجمة: أحمد حسن الرحيم، محمد ناصر، محمد حسين آل ياسين؛ نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة النشر بغداد: نيويورك؛ الناشر: دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ١٩٦٤، ص٧٣.

(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

«وإنّا، إن هيّأنا لهما ـ وضع الطفل الفطري وميله، دوراً وإشباعاً، وحافظنا لهذا الطفل على عصمته الأولى، إلى العشرين من عمره، كان أفضل، أسمى، وأحب وأعطف إنسان. وأنا أعلم أنه لم يسمع مثل هذا الكلام حتى اليوم.

وليس هذا من جرم الفلاسفة، فإنهم قد ابتلوا في حياتهم الدراسية بكل فساد، ولذلك فهم لا يدركون مثل هذا الكلام»[1].

---

(١) جان جاك روسو: أميل، ص ٢٩؛ عن اللاري: مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٣٢.
روسو: ١٧١٢ ـ ١٧٧٨، فيلسوف فرنسي، اتصل بديدرو: المسرحي الفرنسي والفيلسوف المادي، والناقد الأدبي والفني، والروائي والكاتب المسرحي. في عام ١٧٤٩، ظفر روسو بالجائزة الأولى في مسابقة، عن بحث لأكاديمية ديجون موضوعه: هل عمل تقدّم العلوم والفنون على إفساد البشر أم إصلاحهم؟ فكان رأيه أن الإنسان خيّر بطبعه؛ ومجمل مذهبه السياسي أن الإنسان بطبيعته، لا هو بالخيّر ولا بالشرير، وأن القوانين شرّعت لتثبيت قوة الظالم على المظلوم، ويستطيع الناس تحقيق شيء من الحرية المدنية، بدخولهم في تعاقد اجتماعي، يجعل السيادة للمجتمع بأسره، بحيث لا يجوز النزول عنها لأحد، فلا تشرّع القوانين إلا برضا الجماعة كلها.. ويرى في التربية أن تترك للطفل فرصة تنمية مواهبه الطبيعية، دون أن تعطّلها مؤثّرات الحضارة الفاسدة. فالتربية تنبع من داخل النفس، ولا تأتي من قراءة الكتب. وهدف التربية الأسمى، هو أن يتعلّم الإنسان كيف يعيش.
غربال أشرف وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ١/ ٨٣٠، ١/ ٨٩٤.
جون ديوي ١٨٥٩ ـ ١٩٥٢: فيلسوف أمريكي، برجماتي، وعالم تربوي وناقد اجتماعي، عالج عام ١٨٨٤ موضوع علم النفس عند كانْتْ؛ وتولّى التدريس في عدة جامعات.
من كتبه: «المدرسة والمجتمع» الذي كان له صدى بعيد، وترجم إلى ١٣ لغة منها العربية.
ومن كتبه، أيضاً، «كيف تفكر؟» و«الديموقراطية والتجربة» و«التجديد في الفلسفة» و«البحث عن اليقين» و«التربية في العصر الحديث» وغيرها: ترجم أكثرها إلى العربية.
يؤكد ديوي أن المعرفة مستمدة كلها من التجربة، والتفكير ليس من طراز يختلف عن الإدراك الحسّي، والأفكار استباقات للإدراكات الحسية، والأشياء هي كما تدركها الحواس فقط، وتوجد كما تدرك في التجربة.
ووظيفة التفكير الأولى ليست بناء أفكار، وصور عامة من إدراكات نتذكّرها، أو استنباط مواقف عامة بطريقة عامة، والأفكار تولدها الظروف.
والرذائل والفضائل ليست ممتلكات خاصة بالشخصي، بل هي ناتج التفاعل بين الطبيعة الإنسانية والبيئة. يقول ديوي: كل الفضائل والرذائل عادات تتجسد قوى موضوعية.
والعادات السيئة هي ميول للفعل تسيطر علينا، ولكننا اكتسبناها في الغالب دون وعي، وقصد واع.
أنظر بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ١/ ٥٠١؛ غربال، أشرف وآخرون: الموسوعة العربية الميسّرة ١/ ٨٤١ ـ ٨٤٢؛ ديورانت، ول: قصة الفلسفة، ٦٥٤ ـ ٦٣٢.

إن بعضهم يصف الطبيعة الإنسانية، وكأنها كلبة مكلوبة، عرفت بسوء السمعة، وقد جعلوها معرضاً لأنواع اللوم والعتاب، من دون أن يعترض عليهم أحد؛ ولكن الحقيقة غير ذلك.

فالفضائل موجودة في النفس القوية، وهي محيطة بها. والنفس الإنسانية تسعى وراء الطهر، والعدل والخير، وهي أسمى من كل ذلك.

وعلى هذا، فنحن، إذ نريد الدعوة إلى الفضيلة، وترك الكلام عن طبيعة الروح الإنسانية، نكون قد حططنا من مكانتها.

إن الطفل، الذي يتربّى تربية حسنة، يتّصف بجميع الفضائل الطبيعية، دون أن يكون قد جد في الحصول عليها.

أنتم تكلّمون قلب الإنسان، فإنكم ستجدونه ذا فضيلة لا محالة.

«إن الائتلاف، بين الفضيلة والطبيعة، يدعو كل شيء إلى أن يقف من الرذيلة موقفاً عدائيّاً، والقوانين والمواد الجميلة في هذه الدنيا، تضطهد الخائن، وتضربه بالسياط. إنه يجد أن الأشياء معدّة للحق والمنفعة، ولكن ليس في الدنيا الواسعة عرين يختبىء فيه إنسان سافل... إن قوانين الطبيعة وموادّها، من ماء وثلج وريح وجاذبية، تصبح للسارق عقوبات»[1].

«ليس للفضيلة عقوبة، وليس للحكمة عقوبة، إنما هما من مستلزمات الوجود المتعلّقة به»[2].

---

(١) مختارات من مقالات أموسن، تعريب محمود محمود، المراقب العام للتعليم المصري بالسودان؛ ملتزم الطبع والنشر: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥، ص١٠١.

(٢) المصدر، ص ١٩٦.
رالف والد أموسن: ١٨٠٣ ـ ١٨٨٢، كاتب مقالات وشاعر وفيلسوف أميركي، من أبرز الشخصيات في تاريخ الأدباء الأمريكي، كان قسّيساً في بداية حياته، ولكنه اعتزل لاعتبارات فكرية وعقائدية. له صداقة وطيدة مع كارليل؛ أكبّ على دراسة الأدب الإنكليزي في عصر الملكة اليزابيت، وعلى فلسفة أفلاطون، وكتب الشرق المقدّسة. كما أثار أصدقاؤه الإنكليز اهتمامه بالفلسفة الألمانية المثالية؛ نزع في كتاباته نزعة مثالية.
ألقى عدة محاضرات، أصبحت مصدر شهرته. ولقد نشرها في مجلّداته العديدة. ترجمت مختارات من مقالاته إلى العربية. كما ترجم له كتاب بعنوان: من وحي الغابة. انظر الموسوعة العربية الميسّرة، ١/ ٢٢٤.

المطلب الثالث: الواقع والتجربة: إن ما نجده في الواقع الخارجي، بالدراسة والمطالعة، هو أن الإنسان لم يخلق في ذاته شرّيراً وشيطانياً.

ولو كان في أصل خلقته شرّيراً، لكانت كل المساعي التربوية، باطلة وبلا ثمر»[1]؛

و«لما كان لدعوة الأنبياء تأثير. ولم يكن لعرض الشرائع موضع، لولا الاقتضاء في ذات الإنسان»[2]، ولذهبت مساعي جميع الأنبياء الإلهيين، والقادة التربويين، أدراج الرياح.

«ولو كان القتل وسفك الدماء قد عجن بطينة الناس، في جزيرة العرب، فكيف كان يمكن لرسول الإسلام أن يحدث ثورة شاملة في روحيات الناس هناك، وأن يغيّر ذواتهم وماهياتهم؟!»[3].

لقد استطاع ذلك، لأن «الإيمان بالله فطرة في النفس الإنسانية؛ فكل إنسان يجد نفسه مسوقاً إلى قوة أرفع من قوته»[4].

إنه قد يختار «أن يسلك سلوكاً مضاداً للقوانين الأخلاقية، ولكنه لا يستطيع ـ كما يفعل المسخ ـ أن يفلت من الإطار الأخلاقي، بعيداً من الخير والشر. إنه لا يستطيع أن يغير نفسه»[5].

---

(١) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٢٢.
(٢) مجموعة من الباحثين: القرآن الكريم علوم وآفاق، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق ١٩٤٢، بحث: لغة القرآن لآية الله محمد هادي معرفت، ص٤٩.
(٣) اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص٢٢.
(٤) طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص٢٣.
(٥) بيجوفيتش، علي عزت: الإسلام بين الشرق والغرب، ص١٨٤.

المبحث الثاني: الإحساسات الأربعة

لقد اكتشف علماء النفس في هذه الأيام أربعة إحساسات تجذّرت في روح كل واحد منا ونفسه، وهي:

١ ـ الحسّ الفني، أو الجماليات.

٢ ـ حسّ اكتشاف العلوم، أو البحث.

٣ ـ حسّ الخير أو الأخلاق.

٤ ـ حسّ معرفة الله، أو الحس الديني.

وعلماء النفس، بتوصّلهم لمعرفة هذه الإحساسات الأربعة، أزاحوا الستار عن حقيقة، كان مادّيو القرن العشرين يتصوّرون خلافها.

لقد كانوا يعتقدون أن الحسّ الديني فكرة مستوردة من خارج ضمير الإنسان، وليس لها جذور فطرية[1].

ولكن، مع إثبات هذا البعد، من روح الإنسان، الذي يمكن تسميته بعدها الرابع، مقابل الأبعاد الثلاثة الأخرى، تثبت حقيقة فطرة الدين.

المطلب الأول: الحس الفني، أو الجماليات: لولا أن الله سبحانه، لم يودع في باطن الإنسان، حب الجماليات والصناعات الفنية، لما رغب الشبان في الرسم، ولما رسمت اللوحات الجميلة، والتصاوير الجذابة.

ولو أن مثل هذا الحب الباطن، لم يكن لدى الإنسان، لما ظهر فن القاشاني والتذهيب، وأنواع المعارض والفنون.

وربما قضى رسام، أو فنان، مئات الساعات لعمل فني واحد، دون أن يفكّر بالقيمة المادية لعمله هذا.

---

(١) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢١٨.

إن جميع هذه المساعي والجهود للفنانين، إنما هي لإشباع الرغبات الباطنية[1].

المطلب الثاني: حسّ اكتشاف العلوم، أو البحث: يقضي العلماء الساعات، حتى منتصف الليل، في الغرف الرطبة، وفي ظروف غير مساعدة، بالمطالعة والتحقيق، وربما نسوا الطعام والنوم، وقطعوا ارتباطهم بشكل مؤقت، مع جميع الأحداث المادية.

إن مثل هذه الرغبات، لا يمكن أن تكون مستحدثة، أو مستوردة، فإن الإنسان لا يمكن أن يتحمّل العناء، لولا الرغبة الباطنية والدافع الفطري في هذا العمل[2].

المطلب الثالث: حس الخير أو الأخلاق: توجد في جميع أفراد البشر رغبة للخير. «ولفكرة الكمال المطلوب، جذور عميقة في نفس الإنسان»[3].

ودليل ذلك أن خيانة العهد، بين جميع أفراد المعمورة، تعتبر عملاً قبيحاً؛ والوفاء بالعهد يعتبر عملاً حسناً لدى الجميع، وضرورياً.

يقول الإمام علي (رض)، في كتابه إلى مالك الأشتر: «وإن عقدت بينك وبين عدوّك عقدة، أو ألبسته منك ذمّة، فحط عهدك بالوفاء، وارعَ ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت.

فإنه ليس من فرائض الله شيء، الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرّق أهوائهم، وتشتّت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود»[4].

وإن «الإنسان، وهو في دور الطفولة، يفتّش عن الكمال؛ وإن أشعة القيم السامية، من الجاذبية، بحيث ينجذب الإنسان إليها، بإرادته واختياره»[5].

---

(١) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢١٩.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) اللاري، مجتبى: رسالة الأخلاق، ص١٨.
(٤) ابن أبي طالب: الإمام علي: نهج البلاغة، ضبط الشيخ صبحي الصالح، خطبة ٤١، ص٤٢٦.
(٥) اللاري، مجتبى: رسالة الأخلاق، ص١٨.

ولا يوجد شعب يحبّذ الظلم والاستبعداد، « ولا يمكن ردّ عمل العدل لدى أي شخص. ومن ذلك يمكن اكتشاف جذور مثل هذه الرغبات، وهو أن جميع هذه الرغبات، لها جذور في فطرة الإنسان»[١]، أي أن «حبّ الكمال، ينبع من عمق الباطن، ثم يبدأ للسعي وراءه، للحصول عليه.

كل هذا سمة أن لحب الكمال قاعدة في باطن الضمير، وما أن يجد فرصة مناسبة يبدأ بالتجلّي والظهور»[٢].

المطلب الرابع: حس معرفة الله، أو الحس الديني: «لقد استنتج هنري سيمل Henri Simle، بعد دراسة لرسوم إنسان (النيندرتال Neanderthal) في فرنسا، أن الحياة النفسية للإنسان البدائي، لا تختلف إلا قليلاً جدّاً، عن الحياة النفسية للإنسان المعاصر.

حتى رجل الكهف، الذي عاش قبل سبعين ألف سنة، عانى هذا الدوار «الميتافيزيقي، ما وراء الطبيعة».

وهو مرض الإنسان الحديث. ومن الواضح أن هذا ليس استمراراً لتطور بيولوجي، ولكنه فصل من فصول المأساة، التي كانت قد بدأت بمقدمة في السماء»[٣].

وهو دليل على فطرة الحاجة إلى الدين. «واليوم، يؤيّد علماء الحضارات أن أقدم الأفكار لدى أبناء البشر، هي فكرة (الله)، والشؤون المتعلقة بالعبادة والدعاء. ويوجد، في جميع الحضارات، نوع من الرغبات الدينية تلفت النظر»[٤].

---

(١) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢١٩.
(٢) اللاري، مجتبى: رسالة الأخلاق، ص١٨.
(٣) بيجوفيتش، علي عزت: الإسلام بين الشرق والغرب، ص٦١. وقد نوّه عزت أن سيمل ذكر هذا، في مؤتمر علوم الحفريات عام ١٧٦٠ في نيس.
(٤) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢١٩.

المبحث الثالث: الحجّة عليهم لا لهم

إنّ النفس الإنسانية قادرة على اختيار طريقها، والتمييز بين الخير والشر، بما منحها الله من قدرات.

«تلقي حرية الاختيار على النفس مسؤولية ضخمة، هي مسؤولية الالتزام بنتائج ما تختاره من أنماط السلوك والاستجابات المتعددة، ونوعية الجزاء المنتظر بنوعيه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»[1].

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء/ ١٥].

وكما يلاحظ في هذا المجال، «أن الله سبحانه، خلق النفس مستقيمة على الفطرة»[2]، وأن القلب الإنساني مجهّز ـ بملاحظة الفطرة والشهود الحضوري ـ بوعي ومعرفة خاصة بفجوره وتقواه، وهذه المعرفة مؤثّرة في استقامة الروح»[3].

يقول رب الروح والعقل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس]. لكن الإنسان خُلق جاهلاً، من جهة الأفكار والمفاهيم الحصولية، «لذا فهو يحصل على العلوم المختلفة، باستعداده للتلقّي، بالوسائل الإدراكية للمطالب»[4].

فيصل إلى مقام التفكير والاستنباط. يقول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل].

أما بشأن الإلهام الوارد في الآية السابقة، «فمن المسلّم به أن هذا الإلهام لا يشبه إلهام الأنبياء، وإنما يسمعه الإنسان من الأعماق. ولهذا السبب، فإن الإنسان يشخّص الطيّب من الخبيث، عن طريق الباطن. من منّا لا يعرف أن

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٧.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٠.
(٣) آملي، جواد: تفسير سورة إبراهيم، ص٧.
(٤) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

العدل والإحسان طيّبان؟ والظلم والاستبداد قبيحان وخبيثان؟ والإنسان حتى ولو لم يطّلع على أية نظرية، ولم يعلم شيئاً عن آراء الفلاسفة عن الطيب والخبيث، والحسن والقبح، فإنه لا يشك ولا يتردّد في أن العدالة حسن والظلم قبح»[1].

ولا شك، أيضاً، في أنه بالإضافة إلى هذا، فإن الله سبحانه «زوّد النفس بالأدوات، التي تساعدها على الاختيار، وإصدار القرار، ممّا يجعلها قادرة على تحديد طريقها الذي قد يستقيم، فيصل بها إلى مراتب التقى والفلاح، أو ينحرف فيهوي بها إلى حيث الضلال والفساد»[2].

ولمّا أورد القرآن الكريم تعلّل المشركين بمشيئة الله تعالى، في إشراكهم وفي عبادتهم لغير الله، ورد عليهم تعلّلهم هذا، وكذبهم في ادّعائهم أن الله قد شاء لهم الشرك وعبادة غيره تعالى، وقال لهم: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام]، أي تكذبون.

المطلب الأول: الحجة الواهية: أ ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام].

ب ـ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام].

جـ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل].

إن الجاهلين هؤلاء يحتجّون بهذه الحجّة الواهية، ويتذرّعون بأن لو شاء الله منهم خلاف ما هم فيه من الشرك وغيره، لكانوا مضطّرين لترك ما هم عليه من شرك وفساد.

---

(١) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ص٢٢٠.
(٢) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٨.

وإذ لم يشأ الله ذلك، ولم يجبرهم على تركه، كان ذلك إذناً في الشرك والفساد، فلا بأس بهما.

ولكن الله سبحانه يكذّبهم في هذا الادّعاء، ويتوعّدهم بالعذاب، فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام/١٤٨]، «بسبب هذا الكذب الذي كذبوه على الله»[١].

ويواجه مقولتهم وحجّتهم، فيجعلها حجّة عليهم لا لهم. فالآيات الكريمة وبعد أن تذكّر بالمصير الأسود، الذي انتهى إليه المكذّبون السابقون، لعلها بذلك تحرّك مشاعرهم، وتوقظهم من غفلتهم، وتوجّههم إلى الاعتبار؛ فإن هذه الآيات، وبلمسة ثانية، تصحّح منهج التفكير والنظر، وتطالبهم بالدليل على ما ادّعوه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام].

«أي هل عندكم خبر من عند الله يثبت مدّعاكم هذا؟ فإن كان عندكم شيء عن ذلك تحتجّون به، فأخرجوه لنا»[٢].

ولكن الحقيقة هي: أن حديثهم عن المشيئة الإلهية التي تعلّقت بهذا الوضع المنحرف كما يزعمون، إن هو إلا رجم بالغيب، وظنّ، ووهم، وتخرّص «إذ ليس هناك طريق علمي للمشركين إلى عالم المشيئة الغيبية»[٣].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ «فإنه إن كانت مشيئة الله غيب لا وسيلة لهم إليه»[٤]، ولا يتأتّى لهم بحال أن يعلموه يقيناً، فإنه قد جاء من عند الله، أوامر ونواهٍ معلومة علماً مستيقناً قطعياً «فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية، ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه»[٥].

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٧٨.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى، ص٣٧٤.
(٤) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٣/١٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه، ٣/١٢٢٧.

يقول الإمام جعفر الصادق (رض): «إن الله أراد منا شيئاً، وأراد بنا شيئاً؛ فما أراده بنا طواه عنّا، وما أراده منّا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا، عمّا أراده منّا»[1].

وما الاشتغال بما أراده بنا، «إلا دخول في متاهة، يرتادها العقل بغير دليل، ومضيعة للجهد، الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود»[2].

وفي مرحلة ثالثة، يجعل القرآن الكريم الحجّة الإلهية البالغة في أنفسهم. فهم يجدون أنفسهم مختارين في فعل الخير والشر، وفي الوصول إلى الحقيقة العقائدية.

ويقرّون بأن الله قادر، لو أراد، أن يهديهم، ويجبرهم على الإيمان، «وحيث أنه لم يجبرهم على ذلك، وأبقاهم على الاختيار، فله أن يدعوهم إلى ترك الشرك والتحريم.

وبعبارة أخرى، يتفرّع على حجّتكم، أن الحجة لله عليكم، لأنه لو شاء لأجبركم على الإيمان، ولهداكم أجمعين.

ولم يفعل، بل جعلكم مختارين، فيجوز بذلك دعوتكم إلى ما دعاكم إليه»[3].

وإلّا، فإن الله سبحانه، لو شاء غير ذلك، أي لو شاء أن يجعل الناس مجبرين لا خيرة لهم فيما يقومون به من أعمال، «لكانت حكمته تقضي أن يهديهم أجمعين»[4].

يقول تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) الجندي، عبد الحليم: الإمام جعفر الصادق، القاهرة، مطبعة الأهرام الدولية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص١٤٥.

(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، ٣/ ١٢٢٨.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٧/ ٣٦٧.

(٤) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٧٨١.

المطلب الثاني: الفطرة الإنسانية: يقول الله تعالى:

أ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام].

ب ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾. [يونس]

جـ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود].

د ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة/ ١٣].

ومفاد هذا أن مشيئة الله سبحانه، لم تتّجه إلى أن تكون الفطرة الإنسانية «على سنّة إلهية أخرى، غير السنّة التي فطر الناس عليها، بحيث لا يتأتّى معها إلا الطاعة والامتثال، كما هو الشأن في فطرة الملائكة»[1]. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم].

«لأن مثل هذه السنّة الفطرية الإلهية في الملائكة، لا تقوم على أساس التكليف والابتلاء، والمسؤولية والجزاء»[2]، كما هو الشأن في الفطرة الإنسانية، التي كرّمها الله بهذه المنحة، «منحة الابتلاء والاختيار»[3].

وإلّا، فلو شاء الله «لسلب من في الأرض، من إنس وجنّ، إرادتهم الحرّة، وجعل لهم طريقاً واحداً، وقهرهم عليه، حتى لا تكون لهم إرادة في اختيار، بل إنهم مكرهون على الطاعة بالفطرة»[4].

ولو كان الأمر كذلك ﴿لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، لأن الله «إذا

---

(١) الدريني، فتحي: مجلة الرصد الثقافي، العدد ٤٦ ـ ٤٧، آب ـ أيلول ١٩٩٤، ص٢٩.
(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.
(٣) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٧٧٩. قطب، سيد: في ظلال القرآن، الدار العربية، ٧/ ١٧٥، ١١/ ١٨٨.
(٤) التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة، ص٣٣٤.

جعلهم مجبرين غير مختارين، فلا يختار لهم، بحكمته، إلا الإجبار على الإيمان والطاعة»[1].

ولكن حكمة الله الخالق «التي قد ندرك مراميها، وقد لا ندرك، دون أن ينفي عدم إدراكنا لها وجودها؛ هذه الحكمة اقتضت خلقة هذا الكائن البشري، باستعداد للخير وللشر، وللهدى والضلال، ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك.

وقدّرت أنه، إذا أحسن استخدام المواهب اللدنية، من حواس ومشاعر ومدارك ووجّهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون، والنفس، وما يجيء به الرسل من آيات وبيّنات، فإنه يؤمن؛ ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص.

وعلى العكس، حين يعطّل مواهبه، ويعلّق مداركه، ويسترها عن دلائل الإيمان، يقسو قلبه، ويستغلق عقله، وينتهي بذلك إلى التكذيب أو الجحود، فإلى ما قدّره الله للمكذّبين الجاحدين من جزاء»[2].

وبهذا، يكون القرآن الكريم قد واجه مَهْرَب المشركين الأخير.

---

(١) حبنكة، عبد الرحمن حسن: العقيدة الإسلامية وأسسها، ٧٧٨.

(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن الدار العربية، ٧/ ١٧٥، ١١/ ١٨٨.

ختام الفصل

لقد جعل الله لكل مخلوق، من الصفات الفطرية، والمقدرات الطبيعية، «ما يجعله، يعرف ما فيه مصلحة نفسه، فيميل إليه ويختاره، وما يتعارض مع طبيعته، فيأنف منه ويهجره»[١].

وكل إنسان، حتى أكثر الخلق شرّاً وفجوراً، يودّ تلقائياً، وبدافع من أعماقه، أن يصون الناس دمه وماله وعرضه، ولا يمسّه أحد بسوء.

«وأيضاً، يحبّ بغريزته أن يحسنوا إليه، ويتعاونوا معه على خيره وصلاحه، ومعنى هذا: أنه يطلب من جميع الناس أن يكونوا متديّنين، من حيث لا يشعر»[٢].

يقول الإمام علي (رض)، في خطبته الأولى في نهج البلاغة، معرّفاً الأنبياء باعتبارهم مذكّرين، قبل أن يكونوا مجدِّدين، أي أن يكونوا مربّين للرغبات الباطنية للإنسان، قبل أن يكونوا معلّمين: «فبعث فيهم رسله، وواتر فيهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسيّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دقائق العقول»[٣].

إن جمل ميثاق فطرته، ومنسي نعمته، ودقائق العقول، إشارة إلى أن القسم الأعظم من برامج الأنبياء، هي تذكير بأمور فطرية، وإعادة الإنسان إلى الميثاق المأخوذ، من بني آدم جميعاً. «وهذا الميثاق، هو مخزون الفطرة، وحجّة بذاته على الإنسان، في كل حركة له على الأرض.

---

(١) القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، ص٣١٩.
(٢) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٥٣٤.
(٣) ابن أبي طالب: الإمام علي (رض): نهج البلاغة، ضبط الشيخ صبحي الصالح، خطبة ١، ص٤٣.

وهو الكشّاف الذين يهدي إلى الصراط المستقيم، ويجنّب صاحبه الانزلاق في مهاوي الضلال والإفساد»[1].

يقول الكسيس كاريل في كتابه الإنسان ذلك المجهول: «إننا نعلم أن العته العقلي، وسوء الأخلاق والإجرام، ليست وراثية في مجموعها. فمعظم الأطفال يوهبون عند ولادتهم، نفس الإمكانيات، التي وهبت لوالديهم، وفي استطاعتنا أن ننمّي هذه الصفات الفطرية، إذا رغبنا في ذلك رغبة أكيدة»[2].

ويقول في ذلك الإمام علي (رض): «إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبله، فبادرتك قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لبك»[3].

(١) أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، ص١٦.
(٢) كاريل، الكسيس: الإنسانية ذلك المجهول، ص٣١٣.
(٣) ابن أبي طالب، الإمام علي: نهج البلاغة، ضبط الشيخ صبحي الصالح، ص٣٩٣.

الخاتمة

قال رسول الله: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعِلمَ وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1].

ونسب للسيد المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال لتلاميذه: «أما تفهمون هذا المثل؟

كيف، إذاً، تفهمون غيره من الأمثال؟

الزارع يزرع كلام الله، وبعض الناس مثل الزرع، الذي يقع على جانب الطريق، يسمعون كلام الله، فيسرع الشيطان إليهم، وينتزع الكلام المزروع فيهم.

وبعض الناس، مثل الزرع في أرض صخرية، ما إن سمعوا كلام الله حتى يقبلوه، فرحين، ولكن لا عمق له في نفوسهم، فلا يثبتون على حال.

فإذا، حدث ضيق أو اضطهاد من أجل كلام الله، ارتدّوا عنه في الحال.

وبعض الناس، مثل الزرع بين الأشواك، يسمعون كلام الله، ولكن هموم الدنيا، ومحبة الغنى، وسائر الشهوات، تدخل في قلوبهم، وتخنق كلام الله فلا يثمر.

---

(١) صحيح البخاري: ضبط البغا ١/ ٤٢، الحديث رقم ٧٩.

وبعض الناس، مثل الزرع في الأرض الطيّبة، يسمعون كلام الله ويقبلونه؛ فيثمرون.

ومنهم من يثمر ثلاثين، ومنهم ستين ومنهم مئة»[1].

إن الناس، من جهة الإنسانية، متكافئون؛ وإنما يختلفون ويتفاوتون «بالعقل، والعادات الروحية، والمزايا الأخلاقية؛ وقوام الشخصية هو كل ما يميّز الأفراد، بعضهم من بعض، ويعيّن قيمة كل رجل ومنزلته»[2].

«وما من صنف، أو فرد من الناس، إلا وله صورة وهوية في كتاب الله»[3]. وفي حديث رسول الله ﷺ، أن في الأرض صخوراً قاسية ملساء، وأرضاً متحجّرة صلدة، ورؤوس جبال مستكبرة، ورمالاً ذرّاتها قاسية مبعثرة؛ ينزل عليها الغيث من السماء، فيصيبها كما يصيب غيرها من الأرض، لكنها لا تمتص ماء ولا تمسكه، ولا تحفظه، ولا تنبت عشباً ولا كلأً؛ فهي لا تنتفع من الماء بنفسها، ولا تمسكه لمن ينتفع به.

وكذلك نجد في الناس، طائفة كهذه القيعان، يقرع أسماعها هدى الإسلام وعلومه، وتصدم عيونها أنواره، وتنزل عليها غيوثه.

ولكنها «تغلب عليها الشهوات الدنيئة، والأخلاق السيّئة ووساوس الشيطان، في حب الرياسات، ويلصق بقلوبها رسوم الآباء»[4].

فلا تعبأ بهدي منه، ولا معرفة، ولا ترفع بشيء من رؤوسها، قسوةً في قلوبها، وكبراً في نفوسها، وجفاءً في أخلاقها.

«لقد أودع الله سبحانه، في الحنطة حركة ذاتية، نحو العطاء الأكثر، وفي الورد، ما يزيد في جماله وعطره، وللبشر حركة حسب اللّب والحبّ.

---

(١) الكتاب المقدس، (مرقص ٤: ١٣ ـ ٢٠)، (متى ١٣: ١٨ ـ ٢٣)، (لوقا ٨: ١١ ـ ١٥).
(٢) اللاري، مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، ص٦٣.
(٣) مغنية، الشيخ محمد جواد: التفسير المبين، ص٣٦٥.
(٤) الدهلوي، ولي الله بن عبد الرحيم: حجة الله البالغة، حقّقه وراجعه سيد سابق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ٢/ ٧٨٤.

فإذا رأينا آفة في نتاج القمح، أو في جمال الورد وعطره، أو في طهارة روح البشر، لم يكن لنا أن نرى ذلك، على حساب الحركات الذاتية لهذه الموجودات، بل إنما هي بعلّة خلاف عارض على تلك الحركة الذاتية»[1].

«إلهي!

إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة،

وإلى الخطيئة مبادرة،

وبمعاصيك مولعة،

ولسخطك متعرّضة،

تسلك بي مسالك المهالك،

وتجعلني عندك أهون هالك،

كثيرة العلل،

طويلة الأمل،

إنْ مسّها الشر تجزع،

وإنْ مسّها الخير تمنع،

ميّالة إلى اللعب واللهو،

مملوءة بالغفلة والسهو،

تسرع بي إلى الحوبة،

وتسوّفني بالتوبة.

إلهي

أشكو إليك عدوّاً يضلّني،

---

(١) دائرة المعارف البريطانية؛ عن اللاري، مجتبى الموسوي: رسالة الأخلاق، ص١٥.

وشيطاناً يغويني،
قد ملأ بالوسواس صدري،
وأحاطت هواجسه قلبي،
يعاضد لي الهوى،
ويزيّن لي حب الدنيا،
ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى.
إلهي!
إليك أشكو قلباً قاسياً،
مع الوسواس متقلّباً،
وبالرين والطبع متلبّساً،
وعيناً عن البكاء من خوفك جامدة،
وإلى ما تسرّها طامحة.
إلهي!
لا حول ولا قوة إلا بقدرتك،
ولا نجاة لي من مكاره الدنيا إلّا بعصمتك،
فأسألك ببلاغة حكمتك،
ونفاذ مشيئتك،
أن لا تجعلني لغير جودك متعرّضاً،
ولا تصيّرني للفتن غرضاً،
وكن لي على الأعداء ناصراً،
وعلى المخازي والعيوب ساتراً،

ومن البلاء واقياً،

وعن المعاصي عاصماً،

برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين»[1].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين وصحبه الميامين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) ابن الحسين: الإمام علي زين العابدين: الصحيفة السجادية، مناجاة الشاكرين، ص٢٩٦.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأصفهاني، الراغب الحسين بن محمد: المفردات، في غريب القرآن، تحقيق وضبط محمد سيد كلاني، بيروت، دار المعرفة، (من دون تاريخ).

أفلاطون: جمهورية أفلاطون، ترجمة: حنا خباز، مطبعة المقتطف والمقطم، ١٩٢٩م.

الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، قرأه وصححه محمد حسين العرب، بإشراف هيئة البحوث والدراسات في دار الفكر، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

إمام، عبد الفتاح: الطاغية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

آملي، جوادي:

أ ـ تفسير سورة إبراهيم، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

ب ـ معارف القرآن من خلال الحواميم السبع، ترجمة دار الصفوة، بيروت، دار الصفوة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

أيوب، سعيد: الانحرافات الكبرى، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

البخاري، محمد بن إسماعيل:

أ ـ الأدب المفرد، طبع على نفقة عبد الواحد محمد التازي، مطبعة التازية، ط١، (من دون تاريخ).

ب ـ صحيح البخاري، ضبط: مصطفى ديب البغا بيروت، الخدمات الطباعية، ١٩٨١م.

بدوي، عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٤م.

البستاني، بطرس: دائرة المعارف، مطبعة الهلال بمصر، ١٩٠٠م.

بكائي، محمد حسن: الدليل إلى فقه اللغة وسر العربية، مشهد، إيران، مؤسسة طبع ونشر الآستانة الرضوية المقدسة، ١٤٠٧هـ.

بكار، عبد الكريم: فصول في التفكير الموضوعي، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

البوطي، محمد سعيد رمضان: نهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دمشق، دار الفكر، تصوير عن ط٢، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

بوكاوي، موريس: أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ترجمة فوزي شعبان، المكتبة العلمية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

بيجوفيتش، علي عزت: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة يوسف عدس، بيروت، مؤسسة العلم الحديث، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

البيضاوي، عبد الله بن عمر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المعروف بتفسير البيضاوي، بيروت، دار صادر، (من دون تاريخ).

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: سنن الترمذي، حمص، سوريا، مطبعة الفجر، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

التسخيري، محمد علي؛ والنعماني، محمد سعيد: تفسير الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم، طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

التميمي، عبد الواحد الآمدي: غرر الحكم ودور الكلم: مجموعة من

كلمات وحكم الإمام علي بن أبي طالب (رض)، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد: فقه اللغة وسر العربية، قم، إيران، مؤسسة مطبوعات اسماعيليان، (من دون تاريخ).

الجراحي، الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، بيروت، دار التراث العربي، ط٢، ١٣٥١هـ.

الجندي، عبد الحليم: الإمام جعفر الصادق، القاهرة، مطبعة الأهرام الدولية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

الجواهري، أبو نصر إسماعيل بن محمد: الصحاح في اللغة والعلوم، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، بيروت، دار الحضارة العربية، ط١، ١٩٧٤م.

جورارد، سدني م: الشخصية بين الصحة والمرض، ترجمة: حسن الفقي، وسعيد خير الله، مكتبة الأنجلو المصرية ط١، (من دون تاريخ).

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: تلبيس إبليس، بيروت، دار الرائد العربي، (من دون تاريخ).

ابن الحجاج النيسابوري، مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي. حقق أصوله الشيخ خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط٣، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

حبنكة، عبد الرحمن حسن:

أ ـ الأخلاق الإسلامية، دمشق، دار القلم، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ب ـ العقيدة الإسلامية وأسسها، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

الحراني، أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة: تحف العقول عن آل الرسول

صلى الله عليه وسلم وآله وسلم، بيروت، دار الأعلمي ط٢، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

ابن الحسين، الإمام علي زين العابدين: الصحيفة السجادية، بيروت، مؤسسة الأعلمي، (من دون تاريخ).

الخازن، علاء الدين بن محمد البغدادي: تفسير الخازن، المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

خان، وحيد الدين: الإسلام يتحدى، ترجمة عبد الصبور شاهين، (من دون تاريخ).

دراز، محمد عبد الله: النبأ العظيم، الكويت، دار القلم، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

الدهلوي، ولي الله بن عبد الرحيم: حجة الله البالغة، حقّقه وراجعه السيد سابق، القاهرة، دار الكتب الحديثة (من دون تاريخ).

دويدار، عبد الفتاح: علم النفس الاجتماعي: أصوله ومبادئه، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٤م.

ديورانت، ول:

أ ـ قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٦٨م.

ب ـ قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله شعشع، بيروت، مكتبة المعارف ط٥، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ديوي، جون: المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم، محمد ناصر، محمد حسين آل ياسين، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤م.

الرازي، الإمام الفخر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، ضبط حمزة فتح الله، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

راسل، برتراند: برتراند راسل يتحدّث عن مشاكل العصر، ترجمة مروان الجابري، بيروت، المؤسسة الوطنية، ط١، ١٩٦٢م.

الرضي، الشريف محمد بن الحسين: تلخيص البيان في مجازات القرآن، طهران، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط١، ١٤٠٧هـ.

الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق الترزي، وحجازي، والطحاوي، والغرباوي، راجعه عبد الساتر أحمد فراج، الكويت، مطبعة الكويت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

الزركلي، خير الدين: الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٠، أيلول، ١٩٩٢م.

سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، بيروت، دار الروضة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

السويح، محمد: بين الجدران فيما فسّر أو دلّ على تفسير القرآن من القرآن، مع ملحقه، بيروت، دار البيان، العربي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الجامع الصغير، حقّقه محمد محيي الدين عبد الحميد، دمشق، مكتبة الحلبوني، (من دون تاريخ).

شريعتي، علي: الإنسان والإسلام، ترجمة: عباس الترجمان، بيروت، دار الروضة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن أبي القاسم: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير، مطبعة البابي الحلبي بمصر، ط٢، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

شيخو، محمد أمين: تأويل جزء عم، دمشق، دار ابن هانىء، ط١، ١٩٩١م.

الصيمري، الشيخ مجيد: في ظلال السيرة المطهرة، بيروت، دار الزهراء، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ابن أبي طالب، الإمام علي: نهج البلاغة، ضبط: الشيخ صبحي الصالح، قم، إيران، دار الهجرة، (من دون تاريخ).

طبارة، عفيف عبد الفتاح: مع الأنبياء في القرآن الكريم، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٨٣م.

الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، قم، إيران، مط اسماعيليان، ط٣، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (من دون تاريخ).

عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطىء): الشخصية الإسلامية، دراسة قرآنية، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٠م.

عبده، الإمام محمد: رسالة التوحيد، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، ط١٤، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

العظم، صادق جلال: نقد الفكر الديني، بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٦٩م.

العقاد، عباس محمود:

أ ـ كتاب الله، القاهرة، نهضة مصر للطباعة، ط١، ١٩٩٤م.

ب ـ العبقريات الإسلامية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٧٤م.

عمر، عمر أحمد: السنن الإلهية في النفس البشرية، دمشق، دار حسان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

غارودي، روجيه:

أ ـ ما يعد به الإسلام، ترجمة قصي أتاسي وميشيل واكيم، دمشق، دار الوثبة (من دون تاريخ).

ب ـ ملف إسرائيل، ترجمة فئة من المختصين، بإشراف: محمد ياسر شرف، دمشق، دار الوثبة، (من دون تاريخ).

غربال، أشرف، وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

فاروقي، إسماعيل، وآخرون: مقالات المؤتمر الثاني للفكر الإسلامي في طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

فضل الله، السيّد محمد حسين:

أ ـ الحوار في القرآن، بيروت، دار الملاك، ط٥، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

ب ـ خطوات على طريق الإسلام، بيروت، دار التعارف، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٩م.

الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٧.

قباني، نزار: الأعمال السياسية، بيروت، منشورات نزار قباني، ط١، ١٩٧٤.

القذافي، محمد رمضان: علم النفس الإسلامي، طرابلس، ليبيا، منشورات صحيفة الدعوة الإسلامية، ط١ ن ١٤٠٠ من وفاة الرسول (ص) ١٩٩٠م.

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر: الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

قطب، سيد:

أ ـ الإسلام ومشكلات الحضارة (من دون تاريخ).

ب ـ خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ط٢، ١٩٦٥م.

ج ـ في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

د ـ في ظلال القرآن، بيروت، الدار العربية، ط٤، (من دون تاريخ).

قطب، محمد:

أ ـ الإنسان بين المادية والإسلام، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ط٣، ١٩٦٠م.

ب ـ جاهلية القرن العشرين، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

كاريل، الكسيس: الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، بيروت، مؤسسة المعارف ١٩٧٤م.

ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

كلاوزفتيز، كارل فون: الوجيز في الحرب، ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي، دمشق، ١٩٧٣م.

كلاوي، رامي: روجيه غارودي من الإلحاد إلى الإيمان، دمشق، دار قتيبة، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، بيروت، دار الشروق، ط٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، علّق عليه علي أكبر الغفاري، بيروت، دار صعب، ط٤، ١٤٠١هـ.

اللاري، مجتبى الموسوي:

أ ـ دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، تعريب: محمد هادي يوسف الغروي، مطبعة مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط٣، ١٤١٥هـ.

ب ـ رسالة الأخلاق، بيروت، الدار الإسلامية، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٩م.

لاشين، عبد الفتاح: لغة المنافقين في القرآن، بيروت، دار الرائد العربي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

لوبون، غوستاف: سر تطور الأمم، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، ضبط أسعد السحمراني وعدنان السيّد حسين، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

لوقا ويوحنا ومتى ومرقص: الكتاب المقدس، الترجمة العربية المشتركة من اللغة الأصلية، بيروت، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ط٤، ١٩٩٤م.

ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجة، شرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

المحلاتي، هاشم الرسول: عقاب الذنوب، ترجمة محمد علي آذرشب، بيروت، دار البلاغة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٨٥م.

مرسي، سيد عبد الحميد: الشخصية السوية، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١ ن ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

مطهري، مرتضى: المجتمع والتاريخ، تعريب محمد علي آذرشب، طهران، مؤسسة البعثة، ط١، (من دون تاريخ).

معرفت، محمد هادي، وآخرون: القرآن الكريم: علوم وآفاق، المستشارية الإيرانية بدمشق، ١٩٩٤م.

معروف، نايف: الإنسان والعقل، بيروت، دار سبيل الرشاد، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

ابن المقفع: عبد الله: آثار ابن المقفع، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٩٣م.

موسى: محمد يوسف: فلسفة الأخلاق في الإسلام، القاهرة، مطبعة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م.

النووي، الإمام يحيى بن شرف: رياض الصالحين، تحقيق محيي الدين الجراح، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

نيتشه، فريدريك: هكذا تكلّم زرادشت، ترجمة فيلكس فارس، دمشق، دار أسامة، (من دون تاريخ).

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية، تعليق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٥م.

هويدي، محمد: التفسير المعين للواعظين والمتّعظين، بيروت، دار البلاغة، ط٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩١م.

هيجل، جورج وليهم فريدريك: محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح، مراجعة: فؤاد زكريا، بيروت، دار التنوير، ط٤، ١٩٨١م.

يزدي، محمد مصباح: النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ، تعريف محمد عبد المنعم الخاقاني، بيروت دار الروضة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الدوريات:

ـ الثقافة الإسلامية: مجلة شهرية تصدرها المستشارية الإيرانية بدمشق، دمشق.

ـ الرصد الثقافي: مجلة شهرية تصدرها المستشارية الإيرانية في بيروت.

ـ العالم: مجلة أسبوعية تصدر باللغة العربية في لندن.

ـ الوحدة: مجلة أسبوعية تصدر في بيروت عن المكتب الإعلامي لتجمّع علماء المسلمين.

صدر عن:

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

□ **الموسوعة القرآنية (١٢ مجلداً)**	إعداد: جعفر شرف الدين تقديم: د. عبد العزيز بن عثمان التويجري
□ **المعجم المفهرس للمخطوطات العربية والإسلامية في طشقند (١١ مجلداً)**	
□ **قضاء الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهما)**	تأليف: وهاب رزّاق شريف
□ **الوحدة الإسلامية ما لها وما عليها**	تأليف: د. محمود حمدي زقزوق
□ **على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية**	تأليف: مجموعة من العلماء
□ **المذاهب الإسلامية الخمسة والمذهب الموحّد**	تأليف: القاضي محمد سويد
□ **مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية**	تأليف: مجموعة من العلماء تصدير: الشيخ عبد الله العلايلي
□ **الإسلام هو الحل لقضايا الإنسان**	تأليف: القاضي محمد سويد
□ **أحسن القصص**	تأليف: د. زاهية الدجاني
□ **يوسف في القرآن الكريم والتوراة**	تأليف: د. زاهية الدجاني
□ **سورة الأنبياء**	تأليف: د. زاهية الدجاني
□ **المفهوم القرآني والتوراتي عن موسى(ع) وفرعون**	تأليف: د. زاهية الدجاني
□ **المعجم الطبيعي للقرآن الكريم**	تأليف: عزيز العلي العِزّي
□ **الشخصية الكافرة (دراسة قرآنية)**	تأليف: د. حسن عبّارة

صدر عن:

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) ـ دار التقريب

سلسلة الدراسات الإسلامية

□ **الإمام الطبري (جزءان)**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **الإمام أبو حامد الغزالي**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **الإمام الشافعي**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **الإمام جلال الدين السيوطي**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **الإمام مسلم**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **الأحكام الصغرى (جزءان)**	تأليف: العلاّمة الإمام أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي الإشبيلي
□ **معجم تفاسير القرآن الكريم** (الجزء الأول)	تأليف: أ. عبد القادر زمامة، د. محمد عبد الوهاب التازي سعود، أ. فاضل عبد النبي، د. محمد الكتاني
□ **معجم تفاسير القرآن الكريم** (الجزء الثاني)	تأليف: محمد أبو خبزة
□ **العقيدة الإسلامية** دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية لدار بريل طبعة لايدن	تأليف: د. علي محيي الدين القره داغي
□ **القرآن الكريم** دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية لدار بريل طبعة لايدن	تأليف: الإيسيسكو
□ **مفهوم التعايش في الإسلام**	تأليف: د. عباس الجراري
□ **حقوق المرأة المسلمة في العالم الإسلامي**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **وضع المرأة في العالم الإسلامي**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **التقريب بين المذاهب الإسلامية**	أبحاث لنخبة من العلماء والباحثين
□ **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**	تأليف: د. محمد المختار ولد ابّاه